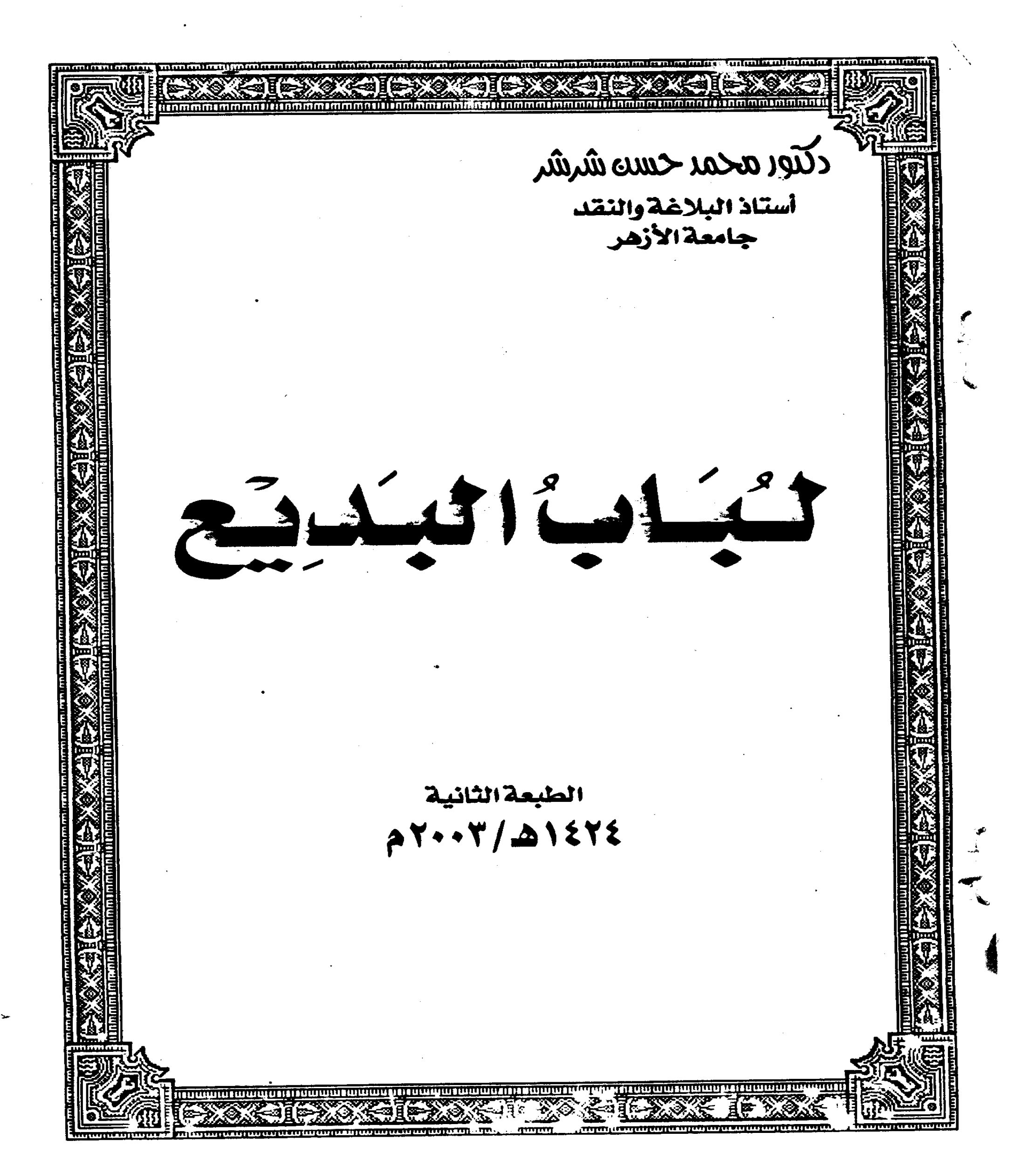


دكتور محمد حسن شرشر
أستاذ البلاغة والنقد
جامعة الأزهر

لُبَابُ البَدِيعِ

الطبعة الثانية
١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أفضل خلق الله أجمعين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، ومن سار على هديه ، واقتدى بسنته إلى يوم الدين .

« وبعد » فيسعدنى أن أقدم هذه الدراسة فى « علم البديع » . توخيت فيها نقاء العبارة ، وحسن الإشارة ، وجمال اللفظ ، وشرف المعنى ، وعمق البحث ودقة التحليل ، وإلى جانب الحفاظ على القواعد والأصول البلاغية ، فقد تجملت بالأساليب الأدبية الرفيعة ، متحلية بالشواهد الناصعة والبراهين الساطعة من كتاب رب العالمين ، وحديث سيد المرسلين ، وأرباب الفكر القويم ، حتى تكون عونًا على تذوق البلاغة التى هى أشرف علوم العربية غاية ، وأعلاها منزلة وأسماها مكانة لأنها إلى جانب أنها ترشد الذوق الفنى إلى الكمال ، توقفنا على موطن السر من إعجاز القرآن الكريم عن إيمان ويقين .

والله أسأل أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم ، وأن تكون فى صحيفتى يوم الدين .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ،،

المعادى فى : ١١ من المحـرم ١٤٠٧ هـ
١٥ من سبتمبر ١٩٨٦ م

د. محمد حسن شرشر

تمهيد

ذكر البديع في كلام الشعراء والخطباء والكتاب في عصرى الجاهلية وصدر الإسلام عفواً فكان صفواً ، لأن بلاغتهم أغنتهم .

فقد طابق امرؤ القيس فقال في وصف فرسه :

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعًا ... كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السيلُ مِنْ عَلِ

كما بالغ في وصف فرسه أيضًا فقال :

فَعَادَى عِدَاءً بَيْنَ ثَوْرٍ وَنَعْجَةٍ ... دِرَاكًا فَلَمْ يَنْضَحْ بماءٍ فَيُغْسَلِ

واستطرد السموءل فقال :

وَإِنَّا أُنَاسٌ مَا نَرَى القتلَ سُبَّةً ... إِذَا مَا رَأَتْهُ عَامِرٌ وَسَلُولُ

يُقَرِّبُ حُبُّ الموتِ آجالَنَا لَنَا ... وَتَكْرَهُهُ آجالُهُمْ فَتَطُولُ

وتجاهل زهير بن أبى سلمى تجاهل العارف فقال :

وَمَا أَدْرِى وَسَوْفَ إِخَالُ أَدْرِى ... أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ

وأكد النابغة الذبيانى المدح بما يشبه الذم فقال :

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ

فالصور البديعية موجودة عند الأدباء القدامى من غير أن يعرفوا لها مسميات وظلت الحال كذلك حتى انتهى عصر الدولة الأموية .

وجاء العصر العباسى الأول ، وظهر من شعراء البديع بشار بن برد المتوفى ١٦٧ هـ ، ومسلم بن الوليد المتوفى ٢٠٨ هـ وأبو تمام المتوفى ٢٣١ هـ ، وابن الرومى المتوفى ٢٨١ هـ ، والبحترى المتوفى ٢٨٤ هـ .

وقد تنبهت الأذهان إلى ما فى شعرهم من طرائف الصنعة البديعية واندفع فيها بعضهم إلى درجة الإفراط كأبى تمام ، ووقف فيها بعضهم عند حد القصد كالبحترى ، كما ادعى بعضهم أنهم مخترعو هذه الفنون .

وبقيت هذه الفنون البديعية تزداد وتطغى على الأساليب الشعرية والنثرية ولكنها حائرة تبحث عمن يجمع شملها ، أو يضع عنوانها الأول فى مؤلف خاص ، لعلها تجتمع حوله أو تحته ، فتأخذ بذلك وضعها البلاغى أو النقدى الدقيق ، وتعيش ذات اعتبار فنى .. فإذا بأمير عباسى يحقق لها هذا الأمل ، ويضع اللبنة الأولى لهذا البناء البلاغى ، ذلك هو عبد الله بن المعتز المتوفى ٢٩٦ هـ صاحب كتاب البديع ، وقد اعترف بأن هذه التسمية ليست من ابتكاره ، وإنما هى من وضع المحدثين .

يقول ابن المعتز فى مقدمة كتابه « وقد قدمنا فى أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدناه فى القرآن واللغة وأحاديث الرسول ﷺ ، وكلام الصحابة وغيرهم ، وأشعار المتقدمين من الكلام الذى سماه المحدثون البديع ،ليعلم أن بشاراً ومسلماً وأبا نواس ومن تقيلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ، ولكنه كثر فى أشعارهم فعرف فى زمانهم حتى سمى بهذا الاسم »(١) .

وفى موضع آخر يشير إلى غرضه من تأليف كتاب البديع فيقول : « وإنما غرضنا فى هذا الكتاب تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شىء من أبواب البديع »(٢) .

وفى موضع ثالث يشير إلى أنه أول من نظم وجمع فنون هذا العلم فيقول : « وما جمع فنون البديع ، ولا سبقنى إليه أحد ، وألفته سنة أربع وسبعين ومائتين »(٣) .

---

(١) البديع ، لابن المعتز ، ص ١ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٣ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٥٨

هذا .. والبديع عند ابن المعتز خمسة أنواع هى : الاستعارة ، والتجنيس والمطابقة ، ورد العجز على الصدر ، والمذهب الكلامى .

كما ذكر بعض المحسنات الأخرى للنثر والشعر ، ولا مانع عنده أن تدخل هذه المحسنات تحت اسم البديع(١) .

ثم اقتفى أثر ابن المعتز الكثير من الأدباء والشعراء الذين أضافوا إلى ما سبق أنواعًا أخرى ، ومن هؤلاء قدامة بن جعفر المتوفى ٣٣٧ هـ صاحب كتاب نقد الشعر ، وأبو هلال العسكرى المتوفى ٣٩٥ هـ صاحب كتاب الصناعتين ، وابن رشيق القيروانى المتوفى ٤٥٦ هـ صاحب كتاب العمدة فى صناعة الشعر ونقده ، وصفى الدين الحلى المتوفى ٧٥٠ هـ له ديوان مشهور .

ومن ثم يتبين أن ابن المعتز بوضعه كتاب البديع قد قام بالمحاولة الأولى فى سبيل استقلال هذا العلم وتحديد مباحثه كما لفت أنظار الناس إلى أن البديع كان موجودًا فى أشعار الجاهلية وصدر الإسلام ، ولكنه كان مفرقًا ، يأتى عفوًا ، ثم جاء الشعراء المحدثون من أمثال بشار ومسلم بن الوليد وأبى نواس وأبى تمام فأكثروا منه فى أشعارهم ، وقصدوا إليه .

وكان مما استحدثه ابن المعتز فى كتابه أيضًا ، وضع مصطلحات لأنواع البديع فى زمنه ، ونقد ما أتى معيبًا من كل نوع .

وتلك بلا شك محاولة علمية جادة تلقفها البلاغيون والنقاد من بعده وأضافوا إليها ما استكملوا به مباحث هذا العلم وقضاياه(٢) .

---

(١) انظر البديع ، ص ٥٨ .
(٢) علم البديع ، ص ١٥ ، ومقدمة بديع القرآن ، ص ١٩ ، ٢٠ .

مكان البديع من البلاغة

قبل أن نتطرق إلى بيان منزلة البديع من البلاغة ، يجدر بنا أن نعرض رأى المتقدمين ، والمتأخرين ، ونشرح رأيهم ونناقشهم .

وقبل الحديث عن آرائهم ، ينبغي أن نشير إلى أن البديع في عرف المتقدمين منذ عصر عبد الله بن المعتز ، يطلق على ما يشمل بعض صور البيان في عرف المتأخرين ، كما يشمل بعض أبواب المعانى لدى المتأخرين أيضًا ، كذلك يشمل ما وضعه المتأخرون تحت عنوان البديع .

وسأكتفى برأى عالمين من المتقدمين ، وهبهما الله قدرة فائقة ، فى تذوق الأساليب ونقدها ، وبيان ما فيها من أسرار بلاغية ، وأعنى بهما « الرمانى[1] وعبد القاهر الجرجانى[2] » فى بعض الألوان التى جعلها المتأخرون تحت علم البديع ، وحكموا عليها بالتبعية والعرضية .

ورأى عالمين لهما قدم راسخة فى الدراسة البلاغية عند المتأخرين وأعنى بهما السكاكى[3] والخطيب القزوينى[4] .

إن « الرمانى » يرى أن الجناس والمشاكلة من ؟أقسام البلاغة كالاستعارة والتشبيه ، وغير ذلك من الأبواب التى ترجع إليها البلاغة القرآنية .

وبالنظر فى كلامه تحت باب « التجانس » نجده يتضمن لونين من ألوان البديع ، أحدهما داخل فى المحسنات المعنوية ، والآخر فى المحسنات اللفظية .

---

(١) هو : أبو الحسن على بن عيسى الرمانى ، توفى ٣٨٦ هـ .

(٢) هو : أبو بكر عبد القاهر بن الرحمن الجرجانى ، توفى ٤٧١ هـ .

(٣) هو : أبو يعقوب يوسف السكاكى ، المتوفى ٦٢٦ هـ .

(٤) هو : قاضى القضاة جلال الدين أبو عبد الله محمد القزوينى ، توفى ٧٣٩ هـ .

أما النوع الداخل فى المحسنات المعنوية فهو المشاكلة التى سماها « مزاوجة » وجعلها نوعًا من « التجانس » .

يقول الرمانى : « والتجانس على وجهين : مزاوجة ومناسبة ، فالمزاوجة تقع فى الجزاء كقوله تعالى : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ ﴾[١] .

أى جازوه بما يستحق على طريق العدل ، إلا أنه استعير للثانى[٢] لفظ الاعتداء لتأكيد الدلالة على المساواة فى المقدار فجاء على مزاوجة الكلام لحسن البيان .

أما النوع الداخل فى المحسنات اللفظية فهو الجناس الذى أطلق عليه « الرمانى » المناسبة الثانى من المجانس وهو المناسبة وهى تدور فى فنون المعانى التى ترجع إلى أصل واحد ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم ﴾[٣] ، فجونس بالإنصراف عن الذكر صرف القلب عن الخير ، والأصل فيه واحد ، وهو الذهاب عن الشىء أما هم فذهبوا عن الذكر وأما قلوبهم فذهب عنها الخير ، ومنه : ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴾[٤] فجونس بالقلوب التقلب والأصل واحد ، فالقلوب تتقلب بالخواطر ، والأبصار تتقلب فى المناظر ، الأصل التصرف ، ومنه : ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِى الصَّدَقَاتِ ﴾[٥] فجونس بإرباء الصدقة ربا الجاهلية ، والأصل واحد وهو الزيادة ، إلا أنه جعل بدل تلك الزيادة المذمومة زيادة محمودة[٦] .

---

(١) سورة البقرة : ١٩٤ .
(٢) ليس المقصود بالاستعارة هنا المبنية على التشبيه ، وإنما المقصود المجاز المرسل .
(٣) سورة التوبة : ١٢٧ .
(٤) سورة النور : ٣٧ .
(٥) سورة البقرة : ٢٧٦ .
(٦) النكت فى إعجاز القرآن ، ص ١٠٠ .

وإذا كان « الرماني » يتصور السجع في صورة قاصرة ومحدودة في أنه لا يكون إلا رديئًا ولا يسمى ما جاء على أسلوبه في القرآن سجعًا ، وإنما يسميه فاصلة ، فإن التسمية لا تسقطه حقه ولا تبعده عن مجال البلاغة فالعبرة بالمسمى لا بالتسمية ، وما ذكره « الرماني » في الفواصل القرآنية وبلاغتها وأهميتها هو الذي يمثل رأيه في السجع ، لأن الفواصل داخلة في السجع عند المتأخرين .

يقول الرماني : « وفواصل القرآني كلها بلاغة وحكمة لأنها طريق إلى إفهام المعاني التي يحتاج إليها في أحسن صورة يدل بها عليها »[١] .

أما العلامة « عبد القاهر » ، فنظرته إلى البديع أعم من نظرة المتأخرين كما ذكرنا آنفًا ، وأما التطبيق والاستعارة وسائر أقسام البديع ، فلا شبهة أن الحسن والقبح لا يعترض الكلام بهما إلا من جهة المعاني خاصة من غير أن يكون للألفاظ في ذلك نصيب ، أو يكون لها في التحسين أو خلاف التحسين « تصعيد وتصويب »[٢] .

وقد تحدث « عبد القاهر » عن الألوان التي جعلها المتأخرون تحت علم البديع كالجناس والسجع والطباق ، والمزاوجة ، والعكس والتبديل وإن لم يسمه والتقسيم والجمع مع التقسيم حديث المتذوق للأساليب الخبير بدقائقها ، ووجدها من البلاغة في أعلى منزلة وأسمى مكان ، وفي النظم في أجل مراتبه وأرفع درجاته يقول تحت عنوان « فصل في النظم يتحد في الوضع ويدق فيه الصنع » واعلم أن مما هو أصل في أن يدق النظر ، ويغمض المسلك في توخي المعاني التي عرفت أن تتحد أجزاء الكلام ، ويدخل

(١) المرجع السابق ، ص ٩٨ .

(٢) أسرار البلاغة : أحمد مصطفى المراغي ، مطبعة الاستقامة ، ص ٢٦ .

بعضها فى بعض ، ويشتد ارتباط ثان منها بأول وأن يحتاج فى الجملة إلى أن تضعها فى النفس وضعًا واحدًا وأن يكون حالك فيها حال البانى يضع بيمينه ههنا ما يضع بيساره هناك ، نعم وفى حال ما يبصر مكان ثالث ورابع يضعهما بعد الأولين ، وليس لما شأنه أن يجيء على هذا الوصف حد يحصره وقانون يحيط به ، فإنه يجيء على وجوه شتى وأنحاء مختلفة ، ما سبق من هذه الألوان بقوله : وإذ قد عرفت هذا النمط من الكلام ، وهو ما تتحد أجزاءه حتى يوضع وضعًا واحدًا ، فاعلم أنه النمط العالى والباب الأعظم والذى لا ترى سلطان المزية يعظم فى شيء كعظمه فيه(١) .

ونجد أنفسنا بعد كلام الإمام عن هذه الألوان ، وتعليقه عليها ، فى غير حاجة إلى دليل أو برهان يؤكد أن هذه الألوان من البلاغة فى الصميم .

وإذا انتقلنا إلى التجنيس والسجع نجد الإمام قد وضعها الموضع اللائق بها فى البلاغة من أن حسنها راجع إلى المعنى ، وأنهما فى درجة عليا من البلاغة فيقدم الكلام عن ذلك بقوله :

« وههنا أقسام قد يتوهم فى بدء الفكرة ، وقبل إتمام العبرة ، أن الحسن والقبح فيها لا يتعدى اللفظ والجرس إلى ما يناجى فيه العقل النفس ، ولها إذا حقق النظر مرجع إلى ذلك ، ومنصرف فيما هنالك ، ومنها التجنيس »(٢) .

ثم يستطرد بالكلام عن التجنيس فيشيد بغير المتكلف منه مبينًا أن التجنيس الحسن هو الذى طلبه المعنى واستدعاه وساق نحوه فيقول :

---

(١) دلائل الإعجاز ، ط ١٩٦١ م ، السيد رشيد رضا ، ص ٦٤ ، ٦٥ .

(٢) أسرار البلاغة ، مطبعة الاستقامة ، تعليق الشيخ المراغى ، ص ١١ .

« أما التجنيس فإنك لا تستحسن تجانس اللفظين[١] إلا إذا كان موقع معنيهما من العقل موقعًا حميدًا ، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيدًا »[٢] .

ويوازن الإمام بين بيتين من الشعر أحدهما متكلف فى تجنيسه ، والآخر محكم السبك جيد المعنى . فيقول : « أتراك استضعفت تجنيس أبى تمام » فى قوله :

ذهبت بمذهبه السماحة فالتوت ... فيه الظنون أمذهب أم مذهب

واستحسنت تجنيس القائل :

ناظراه فيما جنى ناظراه ... أودعانى أمت بما أودعانى

لأمر يرجع إلى اللفظ ، أم لأنك رأيت الفائدة ضعفت عن الأول وقويت فى الثانى[٣] .

ثم أوضح الإمام أن التكلف عاقبته وخيمة ، وضرره أسبق من نفعه ، فيقول : « وربما طمس بكثرة ما يتكلفه على المعنى وأفسده ، كمن ثقل العروس بأصناف الحلى حتى ينالها من ذلك مكروه فى نفسها » .

وإذا كان الإمام قد ذم بعض المتأخرين لتكلفهم ، فقد مدح المتقدمين لتجنبهم التكلف فى أساليبهم ، وأثنى على الجاحظ فى قوله فى أول كتاب الحيوان .

---

(١) من هذه العبارة أخذ المتأخرون تقسيم المحسنات إلى معنوية ولفظية .
(٢) المرجع السابق ، ص ١١ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٢ .

جنبك الله الشبهة وعصمك من الحيرة وجعل بينك وبين المعرفة سببًا وبين الصدق نسبًا ، وحبب إليك التثبت ، وزين في عينك الأنصاف وأذاقك حلاوة التقوى ، وأشعر قلبك عز الحق وأودع صدرك برد اليقين وطرد عنك ذل اليأس ، وعرفك ما في الباطل من الذلة وما في الجهل من القلة » .

وعلل الإمام سر إعجابه « بالجاحظ » وأثنى عليه « بأنه رأى التوفيق بين المعاني أحق ، والموازنة فيها أحسن ، ورأى العناية بهما حتى تكون أخوة من أب وأم ، ويذرها على ذلك تتفق بالوداد ، على حسب اتفاقها بالميلاد أولى من يدعها لنصرة السجع ، وطلب الوزن ، أولاد علة عسى ألا يوجد بينها وفاق ألا في الظواهر ، فأما أن يتعدى ذلك إلى الضمائر ، ويخلص إلى العقائد والسرائر ففي الأقل النادر »(١) .

ثم نجد الإمام يؤكد أصالة التجنيس والسجع بدليل قاطع ، وبرهان ساطع أن ما يأتي منهما غير متكلف من البلاغة في أعلى منازلها ، وأن الحال هي التي دعتها حتى لو خلا الكلام عنهما لكان غثا رديئًا فيقول « وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيسًا مقبولاً ولا سجعًا حسنًا حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه ، وساق نحوه وحتى تجده لا تبتغي به بدلاً ولا تجد عنه حولاً »(٢) .

ويمثل الإمام للتجنيس غير المتكلف بقول الشافعي ، رضي الله عنه ، وقد سئل عن النبيذ « أجمع أهل الحرمين على تحريمه » . وأمثلة أخرى منها قول البحتري :

يَعْشَى عَنِ المجدِ الغبيُّ ولَن تَرى ... في سُؤْدَدٍ أَرَبًا لغيرِ أَريبِ

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٤ ، ١٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥ .

وقوله أيضًا :

وَهَوًى هَوَى بِدُمُوعِهِ فَتَبَادَرَتْ   نَسَقًا يَطَأْنَ تَجَلُّدًا مَغْلُوبًا

كما يمثل للسجع الذى جاء هذا المجىء ، وجرى هذا المجرى فى لين وسلاسة ، وحل هذا المحل من القبول قول القائل : اللهم هب لى حمدًا ، وهب لى مجدًا ، فلا مجد إلا بفعال ولا فعال إلا بمال وقول المصطفى ﷺ : « يا أيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام »(١) .

ويعلق على ما ذكره من الأمثلة الجيدة بقوله : فأنت لا تجد فى جميع ما ذكرت لفظًا اجتلب من أجل السجع ، وترك له ما هو أحق بالمعنى منه ، وأبر وأهدى إلى مذهبه »(٢) .

ونجد الإمام يأتى بدليل آخر قاطع على أصالة السجع على لسان عربى سلمت فطرته ، ونقت عربيته بقوله : ولذلك أنكر الأعرابى حين شكا إلى عامل الماء بقوله : « حلأت(٣) ركابى ، وشققت ثيابى ، وضربت صحابى » .

فقال له العامل : أو يسجع أيضًا « إنكار العامل السجع ، حتى قال : فكيف أقول ؟ »(٤) .

وبالنظر إلى قول الأعرابى : « فكيف أقول » نجد فيه استفهامًا إنكاريًا لأن العربى بفطرته السليمة لم ير شيئًا يطابق مقتضى الحال إلا هذا التعبير .

ومن ثم التزمه ، وكم كانت دهشته عند إنكار العامل له .

(١) المرجع السابق ، ص ١٨ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٨ .
(٣) منعت من ورود الماء .
(٤) المرجع السابق ، ص ١٩ .

ومن ثم التزمه ، وكم كانت دهشته عند إنكار العامل له .

ويعلق الإمام على قول الأعرابى : « بأنه لم يعلم أصلح لما أراد من هذه الألفاظ ولم يره بالسجع مخلاً بمعنى ، أو محدثًا فى الكلام استكراهًا ، أو خارجًا إلى تكلف ، واستعمال لما ليس بمعتاد فى غرضه » .

كما يعلق الجاحظ أيضًا بقوله : لأنه لو قال حلأت إبلى ، أو جمالى أو نوقى أو بعرانى ، أو صرمتى ، لكان لم يعبر عن خفى معناه ، وإنما حلئت ركابه ، فكيف يدع الركاب إلى غير الركاب ؟ وكذلك قوله : وشققت ثيابى وضربت صحابى .

ويستنتج الإمام من ذلك أن التجنيس والسجع إنما يحسنان إذا طلبهما المعنى ، ثم يؤكد أصالتهما حينئذ كما ظهر فى قول الأعرابى فيقول :

فقد تبين من هذه الجملة أن المعنى المقتضى اختصاص هذا النوع بالقبول هو أن المتكلم لم يقد المعنى نحو التجنيس والسجع بل قاده المعنى إليهما ، وعبر به الفرق عليهما حتى أنه لو رام تركهما إلى خلافهما مما لا تجنيس فيه ولا سجع لدخل من عقوق المعنى[1] .

وأقول : « أن هذه العبارة لخير دليل على علو منزلة البديع عند الإمام ».

ويذكر الإمام بعد ذلك سر التجنيس ونكتته : والعلة فى استحقاقه الفضيلة بأنها « حسن الاستفادة مع أن الصورة صورة التكرير والإعادة .

ويعلق على هذه النكتة بقوله : وإن كانت لا تظهر الظهور التام الذى لا يمكن دفعه إلا فى المستوفى المتفق الصورة كقول أبى تمام :

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٩ .

مــا مــات من كــرم الزمــان فــإنه　　يحــيــا لدى يحـيى بن عــبــد الله

أو المرفو الجارى هذا المجرى كقول (أبو الفتح البستى) :

أو دعـــــانى أمت　　بما أودعـــــــانى

فقد يتصور فى غير ذلك من أقسامه أيضًا(١) .

وإذا انتقلنا إلى المتأخرين فأننا نجد أبا يعقوب السكاكى لم يعرض لألوان البديع على أنها علم مستقل عن العلمين المعانى والبيان « بل على أنها تشارك مسائلهما فى تزيين الكلام والوصول به إلى أعلى درجات التحسين » .

يقول السكاكى : « وإذ تقرر أن البلاغة بمرجعيها وأن الفصاحة بنوعيها مما يكسو الكلام حلة التزيين ، ويرفعه إلى أعلى درجات التحسين فهاهنا وجوه مخصوصة كثيراً ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام فلا علينا أن نشير إلى الأعرف منها » .

ثم يقسم السكاكى المحسنات إلى قسمين : قسم يرجع إلى المعنى ، وقسم يرجع إلى اللفظ ، ويذكر من القسم الأول : المطابقة ، والمقابلة ، والمشاكلة ومراعاة النظير ، والمزاوجة واللف والنشر ، والجمع ، والتفريق والتقسيم والإيهام « التورية » وتأكيد المدح بما شبه الذم ، والتوجيه ، وسوق المعلوم مساق غيره « تجاهل العارف » والاعتراض وسماه « الحشو » والاستتباع والالتفات ، وتقليل اللفظ ولا تقليله » ويتفرع عليهما الإيجاز فى الكلام والأطناب فيه .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٢ .

ويذكر من القسم الثانى « المحسنات اللفظية » التجنيس ، ورد العجز على الصدر والقلب ، والأسجاع ، والترصيع .

وبالنظر إلى كلام السكاكى يتضح أن :

١ - السكاكى - رحمه الله - لم يشر إلى أن هناك فرقًا بين هذه الألوان وبين غيرها من مباحث علمى البيان والمعانى .

٢ - السكاكى فى أفراده هذه الوجوه بالذكر بعد الفراغ من العلمين لم ينزل من مكانتها ، بل سوى بينها وبين العلمين « المعانى والبيان » فى العود عن الكلام بالتحسين الذاتى تاركًا الخيار للقارئ فى وضعها موضع المقدمات ، أو توزيعها على المعانى والبيان .

٣ - السكاكى ذكر ضمن هذه المحسنات : الالتفات ، والإيجاز ، والإطناب ، ونبه إلى أن هذه الألوان قد سبق الحديث عنها فى علم المعانى[١] .

وعلى ضوء ذكر الالتفات ، والإيجاز ، والإطناب ، ضمن ألوان البديع عند السكاكى يمكن الحكم أن هذه الوجوه تعدل الفصاحة والبلاغة فى تحسين الكلام ، وإذا كان التحسين الذى تعقبه الفصاحة والبلاغة فى الأساليب ذاتيًا ، فالتحسين الذى تعقبه هذه الوجوه فى الكلام كذلك ذاتيًا .

٤ - السكاكى أخذ تقسيمه للمحسنات إلى معنوية ولفظية من قول الإمام عبد القاهر الجرجانى .

أما التجنيس فإنك لا تستحسن تجانس اللفظين إلا إذا كان موقع معنيهما من العقل موقعًا حميدًا ، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيدًا[٢] .

---

(١) المفتاح ، الطبعة الأولى ، ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، الصبغ البديعى فى اللغة العربى ، ص ٢٥٠-٢٥٢ .
(٢) أسرار البلاغة ، تحقيق الشيخ المراغى ، ص ١١ .

٥ - السكاكي في تعقيبه على المحسنات اللفظية بقوله : « وأصل الحسن في جميع ذلك أن تكون الألفاظ توابعًا للمعاني لا أن تكون المعاني لها توابع ، وإذا كان يعني بذلك المحسنات اللفظية فكيف الشأن بالمحسنات المعنوية ، لا ريب أنها أسمى وأرفع .

٦ - السكاكي في كونه لم يعرض لألوان البديع على أنها علم مستقل عن المعاني والبيان ، بل على أنها تتضافر مع مسائلهما في تزيين الكلام ، والوصول به إلى أعلى درجات التحسين يحمد عليه ، وفي وضعه هذه الوجوه في آخر العلمين يؤخذ عليه ، فقد خولت طريقته هذه لكثير من المتأخرين ، أن يعتبروا البديع من توابع البلاغة ، وعرضا وحلية ، لا يمس صميمًا ولا يمثل غرضًا[1] .

ولما كان السكاكي لم يفرد للبديع بابا خاصًا ، ولكونه قد ذكر هذه الوجوه بعد الكلام عن المعاني والبيان ، فقد يسر ذلك للخطيب اعتبار البديع من توابع البلاغة ، وليس أصلا يقصد لذاته ، وغرضًا يؤم لنفسه فنجده يقول في كتابه « الإيضاح » بعد أن عرف بلاغة الكلام .

« وإذ قد عرفت معنى البلاغة في الكلام ، وأقسامها ، ومراتبها فاعلم أنه يتبعها وجوه كثيرة غير راجعة إلى مطابقة مقتضى الحال ، ولا إلى الفصاحة تورث الكلام حسنًا »[2] .

وقد ترتب على نظرته هذه أن تكون البلاغة مقصورة على « علمي المعاني والبيان » .

---

(١) انظر الصبغ البديعي في اللغة العربية ، ص ٥٠٢ .
(٢) الإيضاح ، جـ ١ ، ص ٣٠ ، الطبعة السادسة .

وقد صرح بذلك أيضًا في كتابه « الإيضاح » إذ يقول : والبلاغة في الكلام مرجعها إلى الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد ، وإلى تمييز الكلام الفصيح من غيره ، والثاني أعني التمييز منه ما يتبين في علم متن اللغة أو التصريف أو النحو أو يدرك بالحس وهو ما عدا التعقيد المعنوي ، وما تحترز به عن الأول ، أعني الخطأ هو علم المعاني وما يحترز به عن الثاني أعني التعقيد المعنوي . وهو علم البيان ، وما يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال وفصاحته هو علم البديع[١] .

ثم يخلص من ذلك إلى تعريف البديع بأنه : « علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ، ووضوح الدلالة »[٢].

ويقسم الخطيب هذه الوجوه إلى ضربين[٣] ضرب يرجع إلى المعنى ، وضرب يرجع إلى اللفظ .

ثم ذكر خاتمة في فصلين يلحقان بالبديع .

أحدهما : القول في السرقات الشعرية وما يتصل بها .

والثاني : القول في الابتداء ، والتخلص ، والانتهاء .

وعلق على ما سيذكره في هذين الفصلين بأنه « لا بأس بذكره لاشتماله على فائدة[٤] .

وإذا استعرضنا ما كتبه الخطيب عن هذه الوجوه نجد بين السطور ما يفيد صراحة أوضمنا أصالة البديع ، ومنزلته الرفيعة في البلاغة العربية .

---

(١) المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٣٢ .
(٢) المرجع السابق ، جـ ٤ ، ص ٢ .
(٣) المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٣٢ .
(٤) المرجع السابق ، جـ ٤ ، ص ١٠٨ .

يقول الخطيب : « ومن مراعاة النظير ما يسميه بعضهم تشابه الأطراف وهو أن يختم الكلام بما يناسب أوله فى المعنى .

كقوله تعالى : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾(١) .

فإن اللطف يناسب ما لا يدرك بالبصر ، والخبرة تناسب من يدرك شيئًا فإن من يدرك شيئًا يكون خبيراً به .

وقوله تعالى : ﴿ لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِىُّ الْحَمِيدُ ﴾(٢) . قال الغنى الحميد لينبه على أن ماله ليس لحاجة بل هو غنى عنه جواد به ، فإذا جاد به حمده المنعم عليه .

ثم يقول : ومن خفى هذا الضرب قوله تعالى : ﴿ إن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(٣) .

فإن قوله « وإن لم تغفر لهم » يوهم أن الفاصلة الغفور الرحيم ، ولكن إذا أنعم النظر علم أنه يجب أن تكون ما عليه التلاوة لأنه لا يغفر لمن يستحق العذاب إلا من ليس فوقه أحد يرد عليه حكمه ، فهو العزيز لأن العزيز من صفات الله هو الغالب ، ووجب أن يوصف بالحكيم أيضًا لأن الحكيم من يضع الشئ فى محله ، والله تعالى كذلك إلا أنه قد يخفى وجه الحكمة فى بعض أفعاله فيتوهم الضعفاء أنه خارج عن الحكمة »(٤) .

وبالتأمل نجد أن هذا الكلام للبديع لا عليه ، وأنه ينصفه ولا يظلمه ، وأنه يرفع من قدره ، ويعلى من شأنه ، ويبين أصالته .

---

(١) سورة الأنعام : ١٠٣ .

(٢) سورة الحج : ٦٤ .

(٣) سورة المائدة : ١١٨ .

(٤) الإيضاح ، جـ ٤ ، ص ١٨ ، ١٩ .

وإذا أردنا تفصيلاً فلنقف عند قوله : « قال الغنى الحميد لينبه على أن ماله ليس لحاجة بل هو غنى عنه جواد به ، فإذا جاد به حمده المنعم عليه » .

أليس فى قوله هذا ما يفيد أن هذا التعبير الرائع « الغنى الحميد » جاء مطابقًا لمقتضى الحال .

ثم لننظر إلى قوله تعقيبًا على الآية الكريمة « إن تعذبهم فإنهم عبادك .... إلخ » .

فإن قوله « وإن تغفر لهم » ، يوهم أن الفاصلة الغفور الرحيم ولكن إذا أنعم الناظر علم أنه يجب أن تكون ما عليه التلاوة لأنه لا يغفر لمن يستحق العذاب إلا من ليس فوقه أحد يرد عليه حكمه فهو العزيز لأن العزيز من صفات الله ، هو الغالب ، ووجب أن يوصف بالحكيم أيضًا لأن الحكيم من يضع الشئ فى محله ، والله تعالى كذلك ، إلا أنه قد يخفى وجه الحكمة فى بعض أفعاله فيتوهم الضعفاء أنه خارج عن الحكمة[١] .

ألست تجد فى تعبيره بكلمة يجب أن تكون ما عليه التلاوة « وقوله » ووجب أن يوصف بالحكيم ، بيانًا صريحًا ، واعترافًا قاطعًا ، وبرهانًا ساطعًا بأصالة البديع وأهمية هذا اللون حتى إنك لو رمت تغيير هذا اللفظ بمرادف له لم يقع هذا الكلام هذا الموقع الحسن ، بل لم يؤد الغرض المروم والهدف المقصود ، وإذا كان هذا التعبير هو المطابق لمقتضى الحال باعتراف الخطيب ، ألا يكون هذا اللون من البلاغة فى الصميم ، ويكفينا أن تتبين أن فى كلامه ما يؤكد ما نرمى إليه من أصالة البديع .

---

(١) المرجع السابق ، جـ ٤ ، ص ١٨ ، ١٩ .

ونجد الخطيب فى المشاكلة يمثل لها بقول الله تبارك وتعالى :﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾(١) وهذا المثال نفسه يذكره شاهدا على المجاز المرسل الذى تكون علاقته السببية ، فكيف يستساغ أن تنظر إليه نظرتين أحداهما على أنه مجاز مرسل فيكون تحسينه ذاتيًا ، والأخرى أنه من ألوان البديع فيكون تحسينه عرضيًا ، ألا يفهم من تمثيله بهذه الآية الكريمة أن أسلوب المشاكلة من البيان وهى من البلاغة فى أسمى مكان(٢) .

ونجده فى حسن التعليل يمثل له بقول أبى الطيب المتنبى :

مَـــا بِهِ قَـــتْلُ أَعَـــادِيهِ وَلَكِنْ   يَتَّقِى إِخْـلَافَ مَـا تَرْجُـو الذِّئَابُ

ويقول : فإن قتل الملوك أعداءهم فى العادة لإرادة هلاكهم وأن يدفعوا مضارهم عن أنفسهم حتى يصفو لهم ملكهم من منازعتهم ، لا لما ادعاه من أن طبيعة الكرم قد غلبت عليه ، ومحبته أن يصدق رجاء الراجين بعثته على قتل أعدائه ، لما علم أنه لما عدا للحرب غدت الذئاب تتوقع أن يتسع عليها الرزق من قتلاهم ، وهذا مبالغة فى وصفه بالجود ، ويتضمن المبالغة فى وصفه بالشجاعة على وجه تخييلى أن تناهى فى الشجاعة حتى ظهر بذلك للحيوانات العجم ، فإذا غدا للحرب رجت الذئاب أن تنال من لحوم أعدائه، وفيه نوع آخر من المدح وهو أنه ليس ممن يسرف فى القتل طاعة للغيظ والحنق(٣) .

ألا ترى أن الخطيب أراد بهذا الكلام أن يبين أن المتنبى جاء بتعليل حسن لقتل سيف الدولة أعداءه ، وأنه قد وفى المبالغة فى وصفه بالجود

(١) سورة الشورى : ٤٠ .
(٢) الصبغ البديعى ، ص ٤٧٣ .
(٣) الإيضاح ، جـ ٤ ، ص ٥٤ .

والشجاعة حقها ، حتى ظهر ذلك للحيوانات العجم ، وإذا كان هذا مقصود الشاعر ، أليس مفهوم كلام الخطيب أن هذا الأسلوب جاء مطابقًا لمقتضى الحال .

ونجده فى تأكيد المدح بما يشبه الذم يمثل بقول النابغة الذبيانى :

وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ غيرَ أَنَّ سُيُوفَهَمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ

ويعلق عليه بقوله :

أى إن كان فلول السيف من قراع الكتائب من قبيل العيب ، فأثبت شيئًا من العيب على تقدير أن فلول السيف منه ، وذلك محال ، فهو فى المعنى تعليق بالمحال كقولهم ، حتى يبيض القار ، فالتأكيد فيه من وجهين ، أحدهما أنه كدعوى الشيء ببينة ، والثانى أن الأصل فى الاستثناء أن يكون متصلاً ، فإذا نطق المتكلم بالاً أو نحوها توهم السامع قبل أن ينطق بما بعدها أن ما يأتى بعدها مخرج مما قبلها ، فيكون شيء من صفة الذم ثابتًا ، وهذا ذم ، فإذا أتت بعدها صفة مدح تأكد المدح لكونه مدحًا على مدح ، وإن كان فيه نوع من الخلابة(١) .

وعن الضرب الثانى من تأكيد المدح بما يشبه الذم يمثل بقول النبى ﷺ :

« أنا أفصح العرب بيد أنى قريش » . ويعقب على ذلك بقوله : « وأصل الاستثناء فى هذا الضرب أيضًا أن يكون منقطعًا ، لكنه باق على حاله لم يقدر متصلاً فلا يفيد التأكيد إلا من الوجه الثانى من الوجهين المذكورين ، ولهذا قلنا أن الأول أفضل »(٢) .

---

(١) المرجع السابق ، جـ ٤ ، ص ٥٨ .

(٢) المرجع السابق ، جـ ٤ ، ص ٥٩ .

وهنا نقف لنتأمل : يقول الخطيب فى تعقيبه على النوع الأول « فالتأكيد فيه من وجهين » ثم يقول بعد ذلك « وإن كان فيه نوع من الخلابة » أليس هذا الكلام صريحًا فى أن هذا الأسلوب يفيد التأكيد ، وإذا كان هذا غرض الشاعر أو الناثر ، ألا يكون هذا اللون من مقتضيات الأحوال حسب منطق الخطيب .

ثم لنتأمل قوله : « أن الأول أفضل » أليس المراد بأفضل هذا معنى «أبلغ» وهل جاءت الأبلغية إلا من أن الأول أفاد التأكيد من وجهين ، وإذا كان الغرض هو المبالغة فى المدح ، ألا يكون مفهوم كلام الخطيب أن هذا الأسلوب تستدعيه المقامات وتقتضيه الأحوال .

ونجده يمثل « للاستتباع » بقول أبى الطيب المتنبى :

نَهَبْتَ مِنَ الأعمارِ مَا لَوْحَوَيْتَهُ   لَهُنِّئَتِ الدنيَا بِأَنَّكَ خَالِدُ

ويعلق على ذلك بقوله :

« فإنه مدحه ببلوغ النهاية فى الشجاعة ، إذ كثر قتلاه بحيث لو ورث أعمارهم لخلد فى الدنيا على درجة استتبع مدحه بكونه سببًا لصلاح الدنيا ونظامها حيث جعل الدنيا مهنأة لخلوده « وينقل قول على بن عيسى الربعى » ، وفيه وجهان آخران من المدح أحدهما أنه نهب الأعمار دون الأموال ، والثانى أنه لم يكن ظالمًا فى قتل أحد من مقتوليه لأنه لم يقصد بذلك إلا صلاح الدنيا وأهلها فهم مسرورون ببقائه[١] .

ونقول : إذا كان مقصود الشاعر توفير صفات المدح لسيف الدولة ومفهوم كلام الخطيب أن الشاعر قد أجاد وأصاب فى مدحه باتباعه هذا

---

(١) المرجع السابق ، جـ ٤ ، ص ٦١ .

الأسلوب ألا يكون هذا اللون جديراً بأن تطلبه المقامات من مفهوم كلام الخطيب .

ونجده في « تجاهل العارف » يقول : « هو كما سماه السكاكى » سوق المعلوم مساق غيره لنكته . ويفصل الخطيب المراد بالنكتة فيقول : «كالتوبيخ» في قول الخارجية :

أيا شجر الخابور مالك مورقا　　　كأنك لم تجزع علي ابن طريف

والمبالغة في المدح في قول البحترى :

ألمع برق سرى أم ضوء مصباح　　　أم ابتسامتها بالمنظر الضاحى

أو في الذم في قول زهير :

وما أدرى وسوف إخال أدرى　　　أقوم آل حصن أم نساء

والتدله في الحب في قول الحسين بن عبد الله العزى :

بالله يا ظبيات القاع قلن لنا　　　ليلاى منكن أم ليلى من البشر

والاستهزاء في قوله تعالى في حق النبى ﷺ حكاية عن الكفار : ﴿ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾(١) كأن لم يكونوا يعرفون عنه إلا أنه رجل ما .

والتعريض في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾(٢) ثم يذكر الخطيب فائدة « وفي مجيء هذا اللفظ على هذا الإيهام فائدة

---

(١) سورة سبأ : ٧ .

(٢) سورة سبأ : ٢٤ .

أخرى وهو أنه يبعث المشركين على الفكر فى حال أنفسهم ، وحال النبى ﷺ والمؤمنين ، وإذا فكروا فيما هم عليه من إغارات بعضهم على بعض ، وسبى ذراريهم ، واستباحة أموالهم ، وقطع الأرحام ، وإتيان الفروج الحرام ، وقتل النفوس التى حرم الله قتلها ، وشرب الخمر التى تذهب العقول وتحسن ارتكاب الفواحش .

وفكروا فيما النبى ﷺ والمؤمنون عليه من صلة الأرحام ، واجتناب الآثام والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وإطعام المساكين وبر الوالدين ، والمواظبة على عبادة الله تعالى ، علموا أن النبى ﷺ والمسلمين على هدى وأنهم على الضلالة ، فبعثهم ذلك على الإسلام ، وهذه فائدة عظيمة »(١) .

١ - أليست كلمة « نكتة » الواردة فى التعريف بمعنى « الغرض » ؟

ثم أليست النكات التى ذكرها كالتوبيخ ، والمبالغة فى المدح أو الذم والتدله فى الحب والتحقير ، والتعريض هى الأغراض التى يساق من أجلها الكلام .

٢ - الخطيب يعلق على الآية الكريمة ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ بقوله : « وفى مجىء هذا اللفظ على الإبهام فائدة أخرى ، ويستطرد فى ذكرها وهى « أنه يبعث المشركين على الفكر فى حال أنفسهم وحال النبى ﷺ » ثم يختم كلامه بقوله « علموا أن النبى ﷺ على هدى وأنهم على الضلالة فبعثهم ذلك على الإسلام وهذه فائدة عظيمة » .

أليست الفائدة العظيمة كما صرح بها الخطيب جاءت من هذا الإبهام ، وإذا كان المقصود هدايتهم ، وصلاح أمرهم ألا يكون الكلام بهذا الأسلوب باعتراف الخطيب مطابقًا لمقتضى الحال « ثم أليس الخطيب قد نص صراحة على

---

(١) الإيضاح ، جـ ٤ ، ص ٦٧ .

النكات البلاغية » الأغراض « التى يساق من أجلها هذا الأسلوب » « تجاهل العارف » وفى ذلك دلالة صريحة على أهمية هذا اللون من البديع وأصالته ، وارتفاع شأنه .

ونجده فى « القول بالموجب » يعرفه بقوله : هو حمل للفظ وقع فى كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله بذكر متعلقه ، ومثل له بقول الشاعر :

قلتُ ثَقَّلْتُ إذْ أتَيْتُ مِـرَارًا ... قَالَ ثَقَّلْتَ كَاهِلِي بالأَيَادِي
قلتَ طَوَّلْتُ قَالَ لا بَلْ تَطَوَّ ... لتَ وأبرمتُ قالَ حبلَ وِدَادِي[1]

ويكفى دلالة على أصالة البديع من كلام الخطيب أنه ذكر هذا الأسلوب ضمن أساليب إخراج الكلام على غير مقتضى الظاهر وأدرجه تحت عنوان « الأسلوب الحكيم » ليكون خير شاهد على علو منزلته وسمو مكانته .

وفى الفصل الثانى من الخاتمة التى قيل عنها أنها ملحقة بالبديع[2] يتكلم الخطيب عن مواضع التأنق فى الكلام فيقول : « ينبغى المتكلم أن يتأنق فى ثلاثة مواضع من كلامه ، حتى تكون أعذب لفظًا وأحسن سبكًا وأصح معنى » .

ونجده فى حسن الإبتداء يقول : إنه أول ما يقرع السمع ، فإن كان كما ذكرنا أقبل السامع على الكلام فوعى جميعه ، وإن كان بخلاف ذلك أعرض عنه ورفضه وإن كان فى غاية الحسن .

ومثل للابتداءات المختارة بقول امرىء القيس :

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ

---

(١) المرجع السابق ، جـ ٤ ، ص ٧٠ .

(٢) يرى الشيخ عبد المتعال الصعيدى أن براعة الاستهلال وحسن التخلص وبراعة المقطع من صميم البديع لامن لواحقه ، بغية الإيضاح ، جـ ٤ ، ص ١٠٨ .

ثم يتكلم عما كان حاله بالضد فكان منقوص المعنى ، وينبغى أن يتجنب فى المديح ما يتطير به ، فإنه قد يتفاءل به الممدوح أو بعض الحاضرين كما روى أن ذا الرمة أنشد هشام بن عبد الملك قصيدته البائية :

مَا بَالُ عينِكَ منها الماءَ يَنْسَكِبُ

فقال هشام بل عينك .

ويقال إن ابن مقاتل الضرير أنشد الداعى العلوى قصيدته التى أولها :

مَوْعِدٌ أَحْبَابِكَ بالفُرْقَةِ غَدٌ

فقال الداعى : موعد أحبابك ولك المثل السوء ، وروى أيضًا أنه دخل عليه فى يوم مهرجان وأنشد :

لَا تَقُلْ بُشْــرَى وَلَكِنْ بُشْــرَيَانِ   غُــرَّةُ الداعِى وَيَوْمَ المِهْــرَجَــانِ

فتطير به ، وقال : أعمى يبتدىء بهذا يوم المهرجان ، وقيل بطحه وضربه خمسين عصا ، وقال إصلاح أدبه أبلغ فى ثوابه .

وقيل لما بنى المعتصم بالله قصره بالميدان ، وجلس فيه أنشده اسحق الموصلى :

يَا دَارُ غَــيَّــرَكِ البِلَى وَمَــحَــاكِ   يَا لَيْتَ شِــعْــرِى مَــا الَّذِى أَبْلَاكِ

فتطير المعتصم بهذا الابتداء وأمر بهدم القصر(١) .

ونقف عند كلام الخطيب وننعم النظر .

١ - الخطيب يشيد بحسن الابتداء ويطلب الاهتمام به « لأنه أول ما يقرع السمع فإن كان كما ذكر أقبل السامع على الكلام فوعى جميعه ، وإن كان بخلاف ذلك أعرض عنه ورفضه وإن كان فى غاية الحسن » .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٤٩ ، ١٥٠ .

أليس إقبال السامع على الكلام ووعى جميعه هو غرض الشاعر أو الناثر فيكون الكلام المشتمل على حسن الابتداء مطابقًا لمقتضى الحال من مفهوم كلام الخطيب .

٢ - الخطيب يرى أنه ينبغى أن يتجنب فى المديح ما يتطير به ، ومفهوم ذلك أن الابتداء يجب أن يكون مطابقًا لمقتضى الحال .

٣ - يدلل الخطيب بأمثلته العديدة على أن قبح الابتداء يكون مخلاً ببلاغة الكلام ومطابقته لمقتضى الحال .

٤ - ما أصاب ابن مقاتل الضرير وبطحه وضربه خمسين عصا ، وما نال قصر المعتصم من تهدمه بعد تشييده إلا نتيجة لقبح الابتداء الذى لم يطابق مقتضى الحال .

٥ - قول الداعى العلوى بعد أن ضرب ابن مقاتل الضرير « إصلاح أدبه أبلغ فى ثوابه ، دليل ناصع على أن ابن مقاتل الضرير تجاهل مقتضى الحال .

٦ - ما أسلفناه من كلام الخطيب خير دليل على أهمية حسن الابتداء وأنه من البلاغة فى الصميم ، وأن الكلام شعراً أو نثراً تسقط بلاغته ، وتذهب قيمته الأدبية إذا وقع فيه هذا اللون البديعى على غير موقعه .

ونجد الخطيب يقول عن « حسن التخلص » ونعنى به الانتقال مما شبب الكلام به من تشبيب أو غيره إلى المقصود مع رعاية الملاءمة بينهما ، لأن السامع يكون مترقبًا للانتقال من التشبيب إلى المقصود كيف يكون . فإذا كان حسنًا متلائم الطرفين حرك من نشاط السامع ، وأعان على إصغائه إلى ما بعده ، وإن كان بخلاف ذلك كان الأمر بالعكس[1] .

---

(١) المرجع السابق ، جـ ٤ ، ص ١٥٣ .

وأقول : أليس ترقب السامع للانتقال من التشبيب إلى المقصود كيف يكون ؟ حالاً وإذا جاء الكلام حسنًا متلائم الطرفين ، وحرك من نشاط السامع ، وأعان على إصغائه إلى ما بعده ، ألا يكون بذلك قد طابق مقتضى الحال كما يفيده كلام الخطيب .

وعن حسن الانتهاء نجد الخطيب يطلب العناية به « لأنه آخر ما يعيه السمع ، ويرتسم في النفس فإن كان مختارًا كما وصفنا جبر ما عساه قد وقع فيما قبله من التقصير وإن كان غير مختار كان بخلاف ذلك وربما أنسى محاسن ما قبله »[1] .

ويمثل الخطيب لذلك بأمثلة عديدة منها قول أبي نواس :

فَبَقِيتَ للعلمِ الذى تَهْدِى له　　　وَتَقَاعَسَتْ عن يَوْمِكَ الأيامُ

وأقول : أليس آخر ما يعيه السمع ويرتسم في النفس حالاً تدعو إلى حسن الانتهاء ؟ ثم أليس الكلام إذا جاء حينئذ مختاراً ، وجبر ما عساه وقع فيما قبله من التقصير يكون بذلك قد جاء مطابقًا لمقتضى الحال من مفهوم كلام الخطيب .

ثم يختم الخطيب كلامه في براعة المطلع فيقول : « وأحسن الابتداءات ما آذن بانتهاء الكلام » ، ويمثل بقول الشاعر :

بَقِيتَ بَقَاءَ الدهرِ يا كَهْفَ أَهْلِهِ　　　وَهَذَا دُعَاءٌ لِلْبَرِيَّةِ شَامِلُ

ثم يقول :

« وجميع فواتح السور وخواتمها واردة على أحسن وجوه البلاغة وأكملها » ونظرة أخيرة إلى كلام الخطيب نجد في تعبيره الدليل الواضح على ما ننشده من أصالة براعة المطلع ، وأنه من البلاغة في أحلى مكان .

---

(١) المرجع السابق ، جـ ٤ ، ص ١٥٧ .

وبعد هذه التأملات ، وما يتبعها من مناقشات ، فيما كتبه الخطيب عن البديع ، وبعد أن وجدنا بين السطور ما يؤكد أصالته تصريحًا تارة وضمنًا تارة أخرى .

من ثم نجد أن تقييد البديع بأنه « يأتى بعد المطابقة لمقتضى الحال » هذا القيد الذى جعله المتأخرون معولاً لهدم قيمة البديع البلاغية وجعله ذنبًا وذيلاً ، وعرضًا وحلية فقط ، أولى به أن يحذف من تعريف علم البديع ، لأن البديع كغيره من علوم البلاغة ، يقصد لذاته ، ويؤم لنفسه له قيمته البلاغية ، ومنزلته العالية .

وبعد أن عرضنا وناقشنا آراء المتقدمين والمتأخرين فى ألوان البديع يجدر بنا أن ننوه بالجهود الطيبة التى قام بها أستاذنا المفضال الدكتور أحمد موسى لتأصيل ألوان البديع ، ووضعها فى مكانها اللائق بها فى الحقل البلاغى ، كما يصور هذا الرأى ، وتلك الجهود كتابه القيم « الصبغ البديعى فى اللغة العربية » .

وقد نوه الدكتور أحمد مطلوب بالجهود الطيبة التى نهض بها الأستاذ المفضال ، كما أشاد بالصبغ البديعى ، وما فيه من بحوث قيمة وتجديد فى الفكر ، وأصالته فى الرأى[١] .

هذا إلى جانب ما نجده فى كتاب « البيان العربى » للدكتور بدوى طبانه[٢] ومن بلاغة القرآن للدكتور أحمد بدوى من الإشادة بالبديع[٣] .

« وبعد » فالبديع - بحق - لون أخاذ من ألوان البلاغة وفن أصيل من فنونها ، يقصد لذاته ، ويؤم لنفسه ، يقتضيه الحال ويستدعيه المقام .

---

(١) مناهج بلاغية ، للدكتور أحمد مطلوب .
(٢) الطبعة الثالثة ، ٩٨ .　　(٣) من بلاغة القرآن ، ص ١٨١ .

علم البديع

البديع لغة : يطلق البديع فى اللغة على المبتدع ، أى المخترع على غير مثال سابق يقال أبدع الشئ اخترعه لا على مثال ، وأبدع الله الخلق إبداعًا خلقهم لا على مثال سابق ، قال تعالى : ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾(١) أى مبدعهما ومنشئهما على غير مثال ، ويأتى البديع - أيضًا - بمعنى الجديد والطريف والعجيب .

جاء فى اللسان : بدع الشئ يبدعه بدعًا وابتدعه : أنشأه وبدأه ، والبديع والبدع الشئ الذى يكون أولاً ، وفى التنزيل : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ﴾(٢) أى ما كنت أول من أرسل ، فقد أرسل قبلى رسل كثير ، والبديع المبتدع والمبتدع ، وشئ بدع بالكسر ، أى مبتدع ، وأبدع الشئ : جاء بالبديع(٣) .

واصطلاحًا : علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة(٤) .

والمحسنات البديعية نوعان : معنوية ولفظية .

فالمعنوية : هى التى يكون التحسين بها راجعًا إلى المعنى أصالة ، ويتبعه تحسين اللفظ ، ولكنه غير مقصود ، كقوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(٥) .

---

(١) سورة البقرة : ١٧٧ .
(٢) سورة الأحقاف : ٩ .
(٣) لسان العرب ، مادة « بدع » .
(٤) الإيضاح ، جـ٦ ، ص ٤ .
(٥) سورة آل عمران : ٢٦ .

ففى الآية الكريمة طباق بين « تؤتى » و « تنزع » وبين « تعز » و « تذل »

وكقول أبى صخر الهذلى :[1]

أَمَا والذِى أَبْكَى وَأَضْحَكَ والذِى أَمَاتَ وأحيَا والذى أَمْرُهُ الأمرُ

ففى البيت طباق بين « أبكى » و « أضحك » وبين « أمات » و « أحيا ».

والطباق محسن معنوى ، والعلامة المميزة لهذا النوع هى أنه لو غير اللفظ بما يرادفه - فى غير القرآن الكريم - لبقى الحسن كما كان قبل التغيير .

يقول الشيخ الدسوقى « قوله معنوى » أى منسوب إلى المعنى من حيث إنه راجع لتحسينه أو لا وبالذات بمعنى أن ذلك النوع قصد أن يكون كل فرد من أفراده محسنًا للمعنى لذاته ، وإن كان بعض أفراد ذلك النوع قد يفيد تحسين اللفظ أيضًا لكن ثانيًا وبالعرض أى التبعية لتحسين المعنى »[2] .

والمحسنات اللفظية : هى التى يكون التحسين بها راجعًا إلى اللفظ أصالة ويتبعه تحسين المعنى ، ولكنه أيضًا غير مقصود ، كقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾[3] فلفظتا « ساعة » فى الآية الكريمة قد اتفقتا فى نوع الحروف وعددها وهيئتها وترتيبها ، واختلفتا فى المعنى ، فالمراد بالساعة الأولى يوم القيامة ، والمراد بالساعة الثانية : الساعة الزمنية .

---

(١) أبو صخر شاعر إسلامى أموى . وجواب القسم فى البيت التالى :

لقدْ تركتنِي أحسدُ الوحشَ أن أرى أليفينِ منها لا يروعهما الذعـرُ

راعه ويروعه : أفزعه ، والذعر : الخوف .

(٢) حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ ، ص ٢٨٥ .

(٣) سورة الروم : ٥٥ .

وكقول محمد بن عبد الله بن كناسة الأسدى فى رثاء ولده يحيى :

وَسَمَّيْتُهُ يَحْيَى لِيَحْيَا فلَمْ يَكُنْ ... إلى رَدِّ أمرِ اللهِ فِيهِ سَبِيلُ

ففى البيت جناس بين لفظى « يحيى » و « يحيا » وهما كلمتان اتفقتا فى نوع الحروف وهيئتها وعددها وترتيبها ، بيد أن المعنى مختلف ، فالأول اسم للصغير والثانى بمعنى يعيش ، والجناس محسن لفظى ، وعلامة كونه لفظيًا أنك ولو غيرت اللفظ بمرادفه لسقط هذا الحسن بهذا التغيير .

يقول الشيخ الدسوقى : « قوله لفظى » أى منسوب للفظ من حيث إنه راجع لتحسينه أو لا وبالذات ، وإن كان بعض أفراد ذلك النوع قد يفيد تحسين المعنى أيضًا لكن بطريق التبع والعرض لتحسين اللفظ[١] .

هذا . والحق أن جمال الألفاظ فى تعلقها بالمعانى ، وأن حسنها فى اتصالها بالتراكيب .

يقول الإمام عبد القاهر : فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعرًا أو يستجيد نثرًا ، ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ ، فيقول : حلو رشيق ، وحسن أنيق ، وعذب سائغ ، وخلوب رائع ، فاعلم أنه ليس ينبئك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف[٢] وإلى ظاهر الوضع اللغوى ، بل إلى أمر يقع من المرء فى فؤاده ، وفضل يقتدحه العقل من زناده[٣] .

ويؤكد الإمام عبد القاهر أن الحسن لا يكون للفظ ذاته من غير نظر إلى المعنى بقوله : إنك لا تستحسن تجانس اللفظتين إلا إذا موقع معنييهما من العقل موقعًا حميدًا ، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيدًا ، أتراك استضعفت تجنيس أبى تمام فى قوله :

---

(١) حاشية الدسوقى ، جـ ٤ ، ص ٢٨٥ .

(٢) واحدها جرس بفتح الجيم وكسرها ، وهو الصوت ، أو الخفى منه .

(٣) أسرار البلاغة ، ص ٩ .

ذَهَبَتْ بِمُذْهَبِهِ السماحةُ فالْتَوَتْ ... فيهِ الظُّنُونُ أَمَذْهَبٌ أَمْ مُذْهَبُ[١]

واستحسنت تجنيس قول المحدث :

نَاظِرَاهُ فِيمَا جَنَى نَاظِرَاهُ ... أَوْ دَعَانِي أَمُتْ بِمَا أَوْدَعَانِي

لأمر يرجع إلى اللفظ ، أم لأنك رأيت الفائدة ضعفت عن الأول ، وقويت فى الثانى ؟ ورأيتك لم يزدك بمذهب ومذهب ، على أن أسمعك حروفًا مكررة ، تروم لها فائدة . فلا تجدها إلا مجهولة منكرة ، ورأيت الآخر ، قد أعاد عليك اللفظة ، كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها ، ويوهمك كأنه لم يزدك ، وقد أحسن الزيادة ووفاها ، فبهذه السريرة ، صار التجنيس ، وخصوصًا المستوفى منه ، المتفق فى الصورة من حلى الشعر ، ومذكورًا فى أقسام البديع ، فقد تبين لك أن ما يعطى التجنيس من الفضيلة أمر لم يتم إلا بنصرة المعنى ، إذ لو كان باللفظ وحده . لما كان فيه إلا مستحسن ولما وجد فيه معيب مستهجن[٢] .

هذا وقد أجمع العلماء والنقاد على أن هذه المحسنات لا تقع موقعها من الحسن ، إلا إذا طلبها المعنى ، واستدعاها المقام ، بحيث لا يجد الشاعر ، أو الناثر مندوحة عنها ، كذلك لا يجمل الاسترسال فيها ، والولع بها ، لأن المعانى لا تدين للألفاظ فى كل موضع ، ولا تنقاد لها فى كل حين .

يقول الإمام عبد القاهر : ولذلك ذم الاستكثار منه ، والولوع به ، وذلك أن المعانى لا تدين فى كل موضع لما يجذبها التجنيس إليه ، إذ الألفاظ خدم المعانى ، والمصرفة فى حكمها ، وكانت المعانى هى المالكة سياستها

---

(١) بمذهبه : بطريقته . التوت فيه الظنون - اختلفت ولم تحقق شيئًا - المذهب بالضم : الجنون . والمعنى : إن السماحة قد غلبت عليه واستولت على شمائله وسجاياه فهو يفرط فيها ويسرف فى لزومها حتى قيل على طريق التشكك أهذا خلق ومذهب أم جنون ومذهب .

(٢) أسرار البلاغة ، ص ١٢ .

المستحقة طاعتها ، فمن نصر اللفظ على المعنى ، كان كمن أزال الشىء عن جهته وأحاله عن طبيعته ، وذلك مظنة الاستكراه ، وفيه فتح أبواب العيب والتعرض للشين .

وقد تجد فى كلام المتأخرين الآن كلا ما حمل صاحبه فرط شغفه بأمور ترجع إلى ما له اسم فى البديع إلى أن ينسى أنه يتكلم ليفهم ، ويقول ليبين ، ويخيل إليه أنه إذا جمع بين أقسام البديع فى بيت ، فلا ضير أن يقع ما عناه فى عمياء ، وأن يوقع السامع من طلبه فى خبط عشواء ، وربما طمس بكثرة ما يتكلفه على المعنى وأفسده ، كم ثقل العروس بأصناف الحلي حتى ينالها من ذلك مكروه فى نفسها(١) .

كما عاب صاحب الموازنة التكلف فى الصنعة ، وأشاد بما جاء عفو الخاطر .

يقول الآمدى : إن الشاعر قد يعاب أشد العيب ، إذا قصد بالصنعة سائر شعره « وبالإبداع جميع فنونه ، فإن تلك مجاهدة للطبع ، ومغالبة للقريحة ، مخرجة سهل التأليف إلى سوء التكليف ، وشدة التعمل .. لأن لكل شىء حداً ، إذا تجاوزه المتجاوز سمى مفرطًا ، وما وقع الإفراط فى شىء إلا شانه . وأحال إلى الفساد صحته ، وإلى القبح حسنه وبهاءه(٢) .

إن البديع - بحق - إذا كان عفواً كان صفواً ، وكان بمثابة القلادة الثمينة التى تعلق فى جيد الحسناء ، أما إذا كان متكلفًا ، فإنه يكون بمنزلة الدر الذى يعلق فى أعناق الخنازير .

ولما كانت المعانى هى الأصل ، والألفاظ توابع وقوالب لها ، فإننا نبدأ بدراسة المحسنات المعنوية .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٤ .
(٢) الموازنة ، جـ١ ، ص ٢٦٠ .

المحسنات البديعية المعنوية

الطبـــاق

الطبـاق والمطابقة لغة : الموافقة : يقولون فـلان يطابق فلانًا على كذا إذا وافقه عليه .

قـال الخليل بن أحـمـد : يقـال : طابقت بين الشـيـئـين : إذا جـمـعت بينهما على حذو واحد وألصقتهما .

وذكر الأصـمعي المطابقة في الشعر[١] ، فقال : أصلها : وضع الرجل في موضع اليد في مشي ذوات الأربع .

وقال الرماني : المطابقة مساواة المقدار من غير زيادة ولا نقصان[٢] كما يقول صاحب اللسان : قد طابقه مطابقة وطباقًا ، وتطابق الشيئان تساويا ، والمطابقة : الموافقة ، والتطابق : الإتفاق ، وطابقت بين الشيئين إذا جعلتهما على حذو واحد وألزقتهما ، وهذا الشيء وفق هذا ووفاقه وطباقه وطابقه وطبقه وطبيقه ومطبقه وقالبه بمعنى واحد .. والمطابقة : أن يضع الفرس رجله في موضع يده[٣] .

وإصطلاحًا ؛ أن يجمع في كلام واحد بين معنى ومقابله أو ضده[٤] .

ووجه المناسبة بين المعنى اللغوى والاصطلاحى : أن المتكلم يوافق بين المعنيين المتقابلين أو لموافقة الضدين في الوقوع في جملة واحدة[٥] ،

---

(١) الإتفاق في الأوزان والقوافي .

(٢) العمدة ، جـ ٢ / ٨ .

(٣) لسان العرب ، مادة : طبق .

(٤) مقابلة : نقيضه - هذا - والضدان هما الأمران اللذان لا يجتمعان وقد يرتفعان كالسواد والبياض . والنقيضان هما اللذان لا يجتمعان ولا يرتفعان كالعمى والبصر .

(٥) بمعنى أنه يأتي بالمعنى ومقابلة أو ضده في جملة واحدة .

واستوائهما في ذلك ، مع بعد الموافقة بينهما ، وكون المطابقة من وجوه التحسين يعرف بالذوق[١] .

والطباق من الأمور الفطرية المركوزة فى الطباع ، والتى لها علاقة وثيقة ببلاغة الكلام ، فهو يثبت المعنى فى النفس ، إذ الضد أقرب خطوراً بالبال إذا ذكر ضده ، وكما قيل : والضد يظهر حسنه الضد .

يقول الإمام عبد القاهر : وأما التطبيق فأمره أبين ، وكونه معنويًا أجلى وأظهر ، فهو مقابلة الشيء بضده[٢] .

هذا . ويكون الطباق بين اسمين ، كقوله تعالى : ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾[٣] فالجمع بين « الإيقاظ والرقود » طباق ، لأن اليقظة ضد الرقود .

يقول الشيخ الدسوقى : الإيقاظ جمع يقظ ، بمعنى يقظان ، والرقود جمع راقد فالجمع بين إيقاظ ورقود مطابقة ، لأن اليقظة تشتمل على الإدراك بالحواس ، والنوم يشتمل على عدمه[٤] .

وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾[٥] .

جاء فى تفسير الجلالين : هو الأول قبل كل شيء بلا بداية ، والآخر بعد كل شيء بلا نهاية ، والظاهر بالأدلة عليه ، والباطن عن إدراك الحواس[٦] .

---

(١) حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٢٨٦ .
(٢) أسرار البلاغة ٢٦ ، يدخل فى الطباق التضايف كالابن وأبوه .
(٣) سورة الكهف : ١٨ .
(٤) حاشية الدسوقى ، جـ ٤ / ٢٨٨ .
(٥) سورة الحديد : ٣ .
(٦) تفسير الجلالين ، ص ٤٥٦ .

فالجمع بين الظاهر والباطن والأول والآخر طباق ، لأنهما معنيان متقابلان ، وكذلك الجمع بين الظاهر والباطن ، لأنهما معنيان متقابلان أيضًا .

وقول الرسول ﷺ : « خير المال عين ساهرة لعين نائمة » .

يقول الشريف الرضى : المراد بذلك عين الماء الجارية التى لا ينقطع جريها ليلاً ، كما لا ينقطع نهارًا ، فسماها ساهرة لهذا المعنى ، لأنها فى ليلها دائبة ، وعين صاحبها نائمة(١) .

ففى الحديث الشريف طباق بين ساهرة ونائمة .

وقول السموءل :

سَلِى إنْ جَهِلْتِ الناسَ عَنَّا وَعَنْهُمُ ... فليسَ سواءً عَالِمٌ وَجَهُولُ

فقد طابق بين عالم وجهول .

وقول القاضى الأرجانى(٢) :

وَلَقَدْ نَزَلْتُ مِنَ الملوكِ بماجدٍ ... فَقْرُ الرجالِ إليهِ مِفتاحُ الغِنَى

يريد أن فقرهم إليه مفتاح الغنى لهم بما يعطيهم .

فقد طابق بين الفقر والغنى .

وقول أبو نواس :

إذَا امتحنَ الدنيَا لبيبٌ تَكَشَّفَتْ ... لَهُ عَنْ عَدُوٍّ فى ثيابِ صَدِيقِ

---

(١) المجازات النبوية ، ص ٩٢ .

(٢) هو : أبو بكر أحمد بن محمد القاضى ، توفى ٥٤٤ هـ ، والبيت من قصيدة له فى مدح على ابن جهير وزير المستظهر بالله العباس .

فقد قابل بين العدو والصديق .

أو فعلين : كقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾(١) .

والطباق فى الجمع بين « أضحك وأبكى » ، وبين ﴿ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾(١) .

وقوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾(٢) .

والطباق فى هذه الآية بين « تؤتى وتنزع » و « تعز وتذل » والآية الكريمة تصور قدرة الله تعالى فى أوسع معانيها ، وبيان السلطان فى أشمل مظاهره وأكملها .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ ﴾(٣) .

والطباق فى الجمع بين أضحك وأبكى ، وبين أمات وأحيا .

وقول أبى صخر الهذلى :

أَمَا والذِى أَبْكَى وَأَضْحَكَ والذِى ... أَمَاتَ وَأَحْيَا والذِى أَمْرُهُ الأمرُ

فقد طابق بين أبكى وأضحك ، وبين أمات وأحيا .

أو حرفين كقوله تعالى : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾(٤) .

---

(١) سورة النجم : ٤٣ ، ٤٤ .
(٢) سورة آل عمران : ٢٦ .
(٣) سورة طه : ٧٤ .
(٤) سورة البقرة : ٢٨٦ .

فالجمع بين « اللام » و« على » طباق ، لأن فى « اللام » معنى المنفعة وفى « على » معنى المضرة ، أى لها ما كسبت من خير ، وعليها ما اكتسبت من شر لا ينتفع بطاعتها ، ولا يتأذى بمعصيتها أحد سواها .

يقول الشيخ الدسوقى : للنفس جزاء وثواب ما كسبته من الطاعات ، وعليها عقاب كما اكتسبته من المعاصى[١] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾[٢] .

والطباق فى الجمع بين « لهن » و « عليهن » .

قال القرطبى : أى لهن من حقوق الزوجية على الرجال مثل ما للرجال عليهن ، ولهذا قال ابن عباس : إنى لأتزين لامرأتى ، كما تتزين لى ، لأن الله تعالى قال : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أى زينة من غير مأثم ، وعنه أيضاً : أى لهن من حسن الصحبة والعشرة بالمعروف على أزواجهن مثل الذى عليهن من الطاعة فيما أوجبه عليهن لأزواجهن ، وقال ابن زيد : تتقون الله فيهن ، كما عليهن أن يتقين الله عز وجل فيكم ، والآية تعم جميع ذلك من حقوق زوجية[٣] .

وكقول مجنون ليلى :

عَلَى أَنَّنِى رَاضٍ بِأَنْ أَحْمِلَ الْهَوَى ... وَأَخْلُصَ مِنْهُ لاَ عَلَىَّ وَلاَ لِيَا

فقد طابق بين « على » الثانية ، وبين « اللام » فى قوله « ليا » لأن « على » الأولى بمعنى « مع » .

---

(١) حاشية الدسوقى ، جـ ٤ / ٢٨٨ .

(٢) سورة البقرة : ٢٢٨ .

(٣) تفسير القرطبى ، ص ٩٣٢ ، ط دار الشعب .

والمعنى أنه تحمل فى سبيل الهوى ما يوجب مدحه ، ولكنه يرضى بأن يخلص منه ، وليس عليه ذم ، ولا له مدح .

ويكون الطباق - أيضًا بلفظين من نوعين مختلفين ، كقوله تعالى : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾[1] أى ضالاً فهدينا ، فالجمع بين « ميتًا » و« أحييناه » طباق ، لأن معنييهما متضادان ، بيد أن الأول اسم ، والآخر فعل.

يقول صاحب المطول : « فإن الموت والإحياء مما يتقابلان فى الجملة[2] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾[3] ، والطباق فى الجمع بين « يضلل » و « هاد » والأول فعل والآخر اسم .

وقول طفيل بن عوف الغنوى :

بساهم الوجه لم تقطع أباجله يصان وهو ليوم الروع مبذول[4]

طباق الإيجاب وطباق السلب

المراد بطباق الإيجاب : ما لم يختلف فيه المعنيان إيجابًا وسلبًا - كما سبق - وكقوله تعالى : ﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾[5] فى الآية طباق بين الموت والحياة ، وهما موجبان وقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِىُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾[6] والطباق بين الظلمات والنور ، وهما موجبان أيضًا .

---

(١) سورة الأنعام : ١٢٢ .
(٢) المطول ، ص ٤١٨ .
(٣) سورة الرعد : ٣٣ .
(٤) ساهم الوجه : متغيره من كثرة الجرى صفة لفرس ، والأباجل : جمع أبجل وهو عرق فى ذراع الفرس والبعير بمنزلة الأكحل من الإنسان يفصد للتداوى ، الأكحل : وريد فى وسط الذراع ، والروع : الفزع .
(٥) سورة الملك : ٢ .
(٦) سورة البقرة : ٢٥٧ .

وقوله تعالى : ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ * وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى * الَّذِى يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ * ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ ﴾[١] والطباق بين « لا يموت ولا يحيا » وهما سالبان .

والمراد بطباق السلب : الجمع بين فعلين من مصدر واحد ، أحدهما مثبت والآخر منفى ، كقوله تعالى : ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾[٢] فالجمع بين « يستخفون » و « لا يستخفون » طباق سلب ، لأن المعنيين تقابلا إيجابًا وسلبًا .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾[٣] .

فالجمع بين « يعلمون » و« لا يعلمون » طباق سلب - أيضًا - لأن المعنيين تقابلا إيجابًا وسلبًا .

وقوله تعالى : حكاية عن المنافقين ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾[٤] .

والطباق بين « آمنا » و« ما هم بمؤمنين » وبين « يخادعون » و « ما يخدعون » والمقام يقتضى تكذيب المنافقين فى دعواهم للإيمان ، وأنها لم تصدر عن يقين وعقيدة ، وإنما صدرت عن كذب وخداع ، فكان فى الطباق أبلغ رد على ما ادعوه .

---

(١) سورة الأعلى : ١٠ - ١٣ .
(٢) سورة النساء : ١٠٨ .
(٣) سورة الزمر : ٩ .
(٤) سورة البقرة : ٨ ، ٩ .

وقول السموءل :

وَنُنْكِرُ إِنْ شِئْنَا عَلَى الناسِ قَوْلَهُمْ   وَلاَ يُنْكِرُونَ القَــولَ حِينَ نَقُــولُ

فقد طابق الشاعر بين « ننكر » و« لا ينكرون » ومادة الفعلين واحدة وهى الإنكار ، بيد أنهما متنافيان معنى ، فالأول إيجابى ، والثانى سلبى وتحس فى الطباق معنى الفخر والتحدى .

وقول البحترى :

يُقَيِّضُ لِي مِنْ حَيْثُ لاَ أَعْلَمُ النَّوَى   وَيَسْرِى إِلَيَّ الشوقُ مِنْ حيثُ أَعْلَمُ(١)

والطباق بين قوله « لا أعلم » و« أعلم » .

يريد أنه يهيأ له الفراق من حيث لا يعلم أسبابه ، لأن محبوبته تهجره بلا سبب ، أما الشوق فهو يعلم سببه .

وقول المتنبى من قصيدة فى مدح ابن عمار :

وَلَقَدْ عُرِفْتَ وَمَا عُرِفْتَ حَقِيقَةً   وَلَقَدْ جُهِلْتَ وَمَا جُهِلْتَ خُمُولاً

والمعنى : إن الناس قد عرفوا شخصك ، وما عرفوا شخصيتك وشمائلك وجهلوك لأنك عبقرى الصفات عالى القدر ، ولم يجهلوك لأنك خامل الذكر ، والطباق فى قوله « عرفت وما عرفت » وفى قوله « جهلت وما جهلت » .

ومن طباق السلب - أيضًا - أن يكون أحد الفعلين أمر والآخر نهى ، كقوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴾(٢) .

---

(١) يقيض : يهيأ ، النوى : الفراق - يريد أعرف سبب الشوق ولكن لا أعلم سبب الفراق .

(٢) سورة الشعراء ١٥٠ ، ١٥١ .

ففى الآية طباق بين « أطيعون » وهو أمر ، وبين « لا تطيعوا » وهو نهى ، فمادة الفعل واحدة ، ولكنهما متنافيان معنى ، فالأول إيجابى والثانى سلبى ، وتحس فى الطباق تحديد المراد تحديداً دقيقاً .

وقوله تعالى : ﴿ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾(١) .

يقول ابن يعقوب المغربى : من المعلوم أن الخشية لا يؤمر بها ، وينهى عنها من جهة واحدة ، بل من جهتين ، كما فى الآية ، فقد أمر بها باعتبار كونها الله تعالى ، وينهى عنها باعتبار كونها للناس ، فالتنافى بين الأمر والنهى أيضًا باعتبار أصلهما لا باعتبار مادة استعمالها(٢) . فكلاهما طلب .

وسمى هذا اللون من الطباق ، طباق السلب ، لاختلاف المعنيين فى الإيجاب والسلب .

ما يلحق بالطباق :

يلحق بالطباق أمران :

أحدهما : ما سمى بالطباق الخفى ، وهو أن يجمع بين معنيين غير متقابلين ولكن أحدهما يتعلق بالآخر نوع تعلق كالسببية أو اللزوم .

كقوله تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾(٣) فإن الرحمة وإن لم تقابل الشدة مسببة عن اللين المقابل للشدة .

---

(١) سورة المائدة : ٤٤ .

(٢) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ - ٢٩١ .

ومن ثم : فليس المراد مطلق النهى والأمر بالخشية وإنما المراد المتعلق بالخشية وهو النهى عن خشية الناس والأمر بخشية الله .

(٣) سورة الفتح : ٢٩ .

وسر التعبير بالرحمة ، أن اللين قد يكون عن ضعف ، أما الرحمة فلا تكون إلا عن قوة .

يقول ابن يعقوب : جمع فى الآية بين الشدة والرحمة ، ومن المعلوم أن الرحمة لا تقابل الشدة ، فإن الرحمة إنما تقابلها الفظاظة ، والشدة إنما يقابلها اللين ، لكن الرحمة مسببة عن اللين[١] .

وكقوله تعالى : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾[٢] .

فإن ابتغاء الفضل لا يقابل السكون ، ولكنه يستلزم الحركة المضادة للسكون . والعدول عن لفظ الحركة إلى لفظ ابتغاء الفضل لأن الحركة نوعان : حركة لمصلحة ، وحركة لمفسدة ، والمراد الأولى لا الثانية[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا ﴾[٤] .

فالنار لا تقابل الإغراق ، بيد أن إدخال النار يستلزم الإحراق المضاد للإغراق[٥] .

يقول ابن يعقوب : إن إدخال النار يستلزم الإحراق المقابل للإغراق لاستلزام أحدهما توقد النار والآخر إطفاءها[٦] .

---

(١) مواهب الفتاح ، جـ ٤ / ٢٩٤ .

(٢) سورة القصص ، ٧٣ . وفى الآية طبقا بين الليل والنهار وبين السكن والابتغاء ، وفى الآية أيضا لف ونشر مرتب .

(٣) الإيضاح ، جـ ٦ / ١٤ .   (٤) سورة نوح : ٢٥ .

(٥) ولما يشعر به الإغراق من الماء المشتمل على البرودة غالبا ، وما يشعر به إدخال النار من حرارة النار .

(٦) مواهب الفتاح ، جـ ٤ / ٢٩٥ .

والثاني : ما يسمى « إيهام التضاد » وهو أن يجمع بين معنيين غير متقابلين عبر عنهما بلفظين يتقابل معناهما الحقيقيان ، كقول دعبل بن على الخزاعى :

لاَ تَعْجَبِي يَا سَلْمُ مِنْ رَجُلٍ   ضَحِكَ المشيبُ برأسِهِ فَبَكَى[١]

يريد ظهر المشيب برأسه فبكى ، فظهور المشيب لا يقابل البكاء ، ولكن عبر عنه بالضحك ، ليقابل بمعناه الحقيقى البكاء .

وسمى إيهام التضاد لأن المعنيين ذكرا بلفظين يوهمان التضاد نظراً إلى الظاهر[٢] .

التدبيج :

التدبيج نوع من الطباق[٣] وهو أن يذكر فى معنى ، كالمدح أو غيره لونان أو ألوان بقصد الكناية أو التورية[٤] .

فتدبيج الكناية كقول أبى تمام من قصيدة يرثى بها أبا نهشل محمد بن حميد حين استشهد :

---

(١) « سلم » مرخم سلمى ، وقوله « ضحك المشيب » بمعنى ظهر ظهوراً تامًا ، ففيه استعارة تبعية . فقد شبه ظهور الشيب بالرأس بالضحك ، بجامع أن فى كل ظهور بياض ، ثم استعير لفظ الضحك ، وأشتق منه « ضحك » بمعنى ظهر . والقرينة : الشيب ، لأن المشيب لا يضحك ، ويعنى بالرجل نفسه والبيت من قصيدة أولها :

أين الشباب وأية سلكا   لا أين يطلب ضل بل هلكا

وبعده البيت :

يا سلم : ما بالشيب منقصة   لا سوقة يبقى ولا ملكًا

(٢) مختصر السعد ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٣٩٦ .

(٣) التدبيج : من دبج المطر الأرض إذا زينها بألوان النبات ، فذكر الألوان فى الكلام كإحداث ألوان النبات بالمطر ، أو مأخوذ من الدبج وهو النقش ، لأن ذكر الألوان كالنقش على البساط.

(٤) التورية : أن يكون للفظ معنيان : قريب وبعيد ، ويراد البعيد منهما .

تَرَدَّى ثِيَابَ الموتِ حُمْرًا فَمَا أَتَى   لها الليلُ إلاَّ وَهْيَ من سندسٍ خُضْرُ[١]

يريد : أنه ارتدى الثياب الملطخة بالدم . فلم ينقض يوم قتله ، ولم يدخل فى ليلته ، إلا وقد صارت الثياب خضراً من سندس الجنة .

فقد جمع الشاعر بين لونين : الحمرة والخضرة ، وقصد بالحمرة الكناية عن الاستشهاد ، وبالخضرة الكناية عن دخول الجنة ، لما هو معلوم من أن شعار أهل الجنة لباس الحرير الأخضر ، ويهدف أبو تمام إلى أن أبا نهشل تحولت حاله من قتل أليم إلى خلود فى دار النعيم وتدبيج التورية كقول الحريرى :

فمذا زور المحبوب الأصفر ، واغبر العيش الأخضر اسود يومى الأبيض ، وابيض فودى الأسود ، حتى رثى لى العدو الأزرق فيا حبذا الموت الأحمر[٢] .

ففى قوله : « وازور المحبوب الأصفر » تورية ، لأن المعنى القريب للمحبوب الأصفر : هو الإنسان ذو اللون الأصفر ، والبعيد هو الذهب وقد جعل التدبيج من أقسام الطباق ولم يجعل وجهاً مستقلاً برأسه لدخوله فى تعريف الطباق لما بين اللونين أو الألوان من التقابل .

---

(١) تردى ثياب الموت : اتخذها رداء ، والمراد بثياب الموت : ما كان يلبسها وقت الحرب ، وحمرا حال مقدره أى حمرا بعد القتال والسندسى رقيق الحرير - والطباق بين حمر وخضر .
هذا ، والفرق بين إيهام التضاد والتدبيج أن إيهام التضاد يكون عن طريق المجاز - أما التدبيج فيكون عن طريق الكناية أو التورية .

(٢) اخضرار العيش كناية عن طيبه ونعومته ، وإغبراره كناية عن ضيقه وخشونته . وازورار المحبوب تباعده وإعراضه ، وأسوداد اليوم كناية عن ضيق الحال وكثرة الهموم ، ووصفه بالبياض كناية عن سعة الحال والفرح ، والفود شعر جانب الرأس مما يلى الأذن ، وابيضاض الفود كناية عن الضعف والوهن ، من كثرة الهم والحزن ، ورثى لى أى رق وأشفق على ، والعدو الأزرق ، الخالص العداوة ، وحمرة الموت كناية عن شدته ، وقيل إنه أراد بالموت الأحمر القتل .
يقول الشيخ الدسوقى : إن الحريرى قد جمع بين ألوان من الإغبرار والإصفرار والإسوداد والإبيضاض والزرقة والحمرة ، وكل تلك الألوان فى كلامه كناية إلا الإصفرار فإن فيه التورية ، فقد علم من ذلك أن جمع الألوان لا يجب أن يكون على أنها كلها كنايات أو توريات ، بل يجوز أن تجمع على أن بعضها تورية وبعضها كناية ، وقد توهم بعضهم وجوب ذلك وهو فاسد - شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٢٩٤ ، أزور : تباعد ، المحبوب الأصفر : تورية عن الذهب .

يقول ابن يعقوب المغربى : لا شك أن هذا المسمى بالتدبيج داخل فى الطباق ، لأن الألوان أمور متقابلة ، فهى جزئية من جزئيات الطباق وخصت باسم التدبيج لتخيل وجود ألوان فيها ، كوجود الألوان بالمطر(١) .

هذا . ولعل السر فى جمال الطباق وبلاغته ، فضلاً عن تثبيته المعنى فى النفس ، لأن الضد أقرب خطوراً بالبال إذا ذكر ضده ، أنه يصف الشىء المتحدث عنه إزاء الضدين المتقابلين ، وخذ هذا المثال للفرزدق فى هجاء جرير .

لَعَنَ الإلهُ بَني كُلَيْبٍ إنهم ... لاَ يَغْدِرُونَ ولا يَفُونَ لِجَارِ(٢)
يَسْتَيْقِظُونَ إلى نَهِيقِ حمارهم ... وتنامُ أعينهم عن الأَوْتَارِ

فإنه يبين موقف بنى كليب إزاء جارهم من ناحية الوفاء والغدر فذكر أنهم عاجزون عن الوفاء والغدر به ، ثم كان ذكر الأمرين المتناقضين فى البيت الثانى لبيان موقفين متناقضين لهؤلاء القوم ، يستيقظون منزعجين إذا نهق حمارهم ، حذرا من أن يكون هناك لص يأخذ بعض متاعهم ، لأنهم يخافون عليها أشد الخوف ، ويضنون بها أشد الضن ، بينما هم لا يبالون بكرامتهم أن تنتهك ، فتنام أعينهم عن الثأر ، لا يعنيهم أن يأخذوا به ، وفى ذلك أكبر دليل على هوانهم .

إن الطباق فى البيت الثانى ، جعل الموازنة بين أفعالهم مثيرة للسخرية منهم ، والحط من شأنهم ، عند الموازنة بين ما يستيقظون له ، وما ينامون عنه ، وهكذا يكون للطباق أثره فى إثارة الإنفعالات المختلفة فى نفس القارىء أو السامع إزاء الأمور المتناقضة(٣) .

---

(١) مواهب الفتاح : ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٢٩٢ .
(٢) فى البيت الأول تكميل حسن إذ لو إقتصر على قوله « لا يغدرون » لاحتمل الكلام ضرباً من المدح ، إذ تجنب الغدر قد يكون عن عفة ، فقال : لا يفون . ليفيد أنه العجز ، كما أن ترك الوفاء للؤم ، وحصل مع ذلك إيغال حسن ، الإيضاح ، جـ ٦ / ١٠ .
والطباق بين : لا يغدرون ولا يفون ، وبين يستيقظون وتنام أعينهم .
(٣) أسس النقد الأدبى عند العرب ، ص ٤٤٧ .

المقابلة

المقابلة نوع من الطباق من حيث إنها تجمع بين متقابلين ، ومن ثم عدها بعض العلماء من الطباق .

يقول الشيخ الدسوقى : دخل هذا النوع المسمى بالمقابلة فى الطباق ، لأنه جمع بين معنيين متقابلين فى الجملة ، أى على وجه مخصوص .. وحيث كان فى المقابلة جمع بين معنيين متقابلين فى الجملة كانت طباقًا لصدق تعريفه عليها(١) .

بيد أن الشرط فى المقابلة ، أن يكون التقابل بين معنيين فأكثر ، وما يقابلهما على الترتيب ، بخلاف الطباق فإنه يكون بين معنى واحد ومقابله - كما علمت - ولذلك جعلها أبو يعقوب يوسف السكاكى قسمًا مستقلاً بذاته(٢) .

والمقابلة عند البلاغيين : أن يؤتى بمعنيين متوافقين ، أو معان متوافقة ثم يؤتى بما يقابلهما أو يقابلها على الترتيب(٣) .

وتأتى المقابلة بين معنيين كقوله تعالى : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾(٤) فقد جىء أولاً بمعنين هما الضحك والقلة ، ثم جىء بضدهما ، وهما البكاء والكثرة على الترتيب ، ومعلوم أنه لا يوجد تقابل بين الضحك والقلة ، ولا بين البكاء والكثرة .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾(٥) .

والمقابلة بين « الأبرار فى نعيم » وبين « الفجار فى جحيم » .

---

(١) حاشية الدسوقى ، جـ ٤ / ٢٩٧ .

(٢) المفتاح ، ٢٠٠ .

(٣) الإيضاح ، جـ٦ / ١٦ .

(٤) سورة التوبة : ٨٢ .

(٥) سورة الإنفطار : ١٣ ، ١٤ .

وقـــول النبى ﷺ : إن الرفق لا يكون فى شىء إلا زانه ، ولا ينزع من شىء إلا شأنه » فوجود الرفق يقابل نزعه ، والزين يقابل الشين .

وقول أبى جعفر المنصور : لا تخرجوا من عز الطاعة إلى ذل المعصية فقد قابل العز والطاعة ، بالذل والمعصية .

وقول النابغة الجعدى :

فَـتًى تَمَّ فِيـهِ مَـا يَسُـرُّ صَـدِيقَـهُ عَلَى أَنَّ فِيـهِ مَـا يَسُـوءُ الأَعَـادِيَا

فقد قابل بين سرور الصديق ، وإساءة العدو - والمراد ما يسر صديقه من نفعه له وما يسوء أعاديه من إيقاع الضرر بهم .

وقول الشاعر :

فَـوَا عَجَـبًـا كـيفَ اتَّفَـقْنَا فَنَاصِـحٌ وَفِيٌّ وَمَطْوِيٌّ عَلَى الغِلِّ غَـادِرُ(١)

فإن الغل ضد النصح ، والغدر ضد الوفاء والفاء فى قوله فناصح تعليل للتعجب من اتفاقهما .

وتأتى بين ثلاثة معان ، كقوله تعالى : ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾(٢) والمقابلة بين « يحل واللام من لهم والطيبات » وبين « يحرم وعلى من عليهم والخبائث ».

وقول أبى دلامة :

ما أحسنَ الدينَ والدنيَا إذا اجْتَمَعَا وأقبحَ الكفـرَ والإفـلاسَ بالرجلِ

---

(١) الغل : الحقد . وكل من ناصح ومطوى خبر لمبتدأ محذوف تقديره فأنا ناصح وفى وأنت مطوى على الغل غادر . والمقابلة بين النصح والوفاء وبين الغل والغدر .

(٢) سورة الأعراف : ١٥٧ .

فقد أتى الشاعر بالحسن والدين والمعنى المفهوم من الدنيا ، ثم أتى بما يقابلها من القبح والكفر والإفلاس على الترتيب .

يحكى أن أبا جعفر المنصور ، سأل أبا دلامة عن أشعر بيت قالته العرب في المقابلة ، فقال : بيت يلعب به الصبيان ، وأنشد هذا البيت .

قال ابن أبي الأصبع : لا خلاف في أنه لم يقل قبله مثله . فإنه قابل بين أحسن وأقبح ، والدين والكفر ، والدنيا والإفلاس ، وهو من مقابلة ثلاثة بثلاثة[1] .

يقول ابن يعقوب : فالحسن والدين والغنى ، وهو المعبر عنه بالدنيا متوافقة لعدم التنافي بينها ، وقد قوبلت بثلاثة ، وهي القبح والكفر والإفلاس .

الأول للأول والثاني للثاني والثالث للثالث وهي متوافقة أيضًا[2] .

وقول المتنبي :

فلا الجودُ يُفْني المالَ والجدُّ مقبلٌ ولا البخلُ يبقي المالَ والجدُّ مدبرُ[3]

يريد : أن الحظ إذا كان مقبلاً على شخص ، فإن الكرم لا يفني ماله ، وإذا كان الحظ موليًا عنه لم يفد البخل في الإبقاء على المال شيئًا .

فقد قابل بين « الجود ويفني ومقبل » وبين « البخل ويبقى ومدبر » .

وقول البحتري :

فَإذَا حَارَبُوا أَذَلُّوا عَزِيزًا وَإذَا سَالَمُوا أَعَزُّوا ذَلِيلاً

---

(١) معاهد التنصيص ، جـ ٢ / ٢٠٨ .

(٢) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ ٢٩٨ .

(٣) الجد : الحظ .

والمقابلة فى البيت بين « حاربوا وأذلوا وعزيزاً » وبين « سالموا وأعزوا وذليلاً » .

وقول أبى تمام :

يا أُمّةً كان قبحُ الجَوْرِ يُسْخِطُها دهراً فأصبحَ حسنُ العدلِ يُرْضيها[(١)]

فقد قابل القبح بالحسن والجور بالعدل ويسخطها بيرضيها .

وتأتى بين أربعة معان ، كقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾[(٢)] .

فقد جىء أولاً بالعطاء والاتقاء والتصديق واليسر ، ثم جىء بما يقابلها على الترتيب من البخل والاستغناء والتكذيب والعسر .

ووجه مقابلة « استغنى » لـ « تقى » أن معنى « استغنى » زهد فيما عند الله فلم يراقبه ولم يتقه ، أو معناه : استغنى بمتاع الدنيا عن نعيم الجنة ، فلم يتق الله فى عمله .

يقول بهاء الدين السبكى : « قابل أربعة بأربعة ، فإن أعطى يقابل بخل واتقى يقابل استغنى وصدق يقابل كذب واليسرى يقابل العسرى ، والمراد باستغنى لم يتق ، أى زهد فيما عند الله كأنه مستغن عنه فلم يتق ، أو استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الجنة »[(٣)] .

---

(١) يريد أن الأمة العربية تكره الظلم وتحب العدل .

(٢) سورة الليل : الآيات ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ .

(٣) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٢٩٩ .

وقول أبى بكر الصديق فى وصيته عند الموت : « هذا ما أوصى به أبو بكر عند آخر عهده بالدنيا خارجًا منها ، وأول عهده بالآخرة داخلاً فيها » فقابل أولاً بآخر ، والدنيا بالآخرة ، وخارجًا بداخل ، ومنها بفيها .

وقول جرير :

وَبَاسِطَ خيرٍ فيكُمُ بِيَمِينِه وقابضَ شَرٍّ عنكمُ بِشِمَالِهِ

فقابل بين باسط وقابض ، وخير وشر ، وفيكم وعنكم ، وبيمينه وبشماله وتأتى بين خمسة معان كقول المتنبى .

أَزُورُهُمْ وسوادُ الليلِ يشفعُ لِي وَأَنْثَنِي وبياضُ الصبحِ يُغْرِي بِي

فقد أتى الشاعر بالزيارة والسواد والليل والشفاعة له ، ثم أتى بما يقابلها من الانثناء والبياض والصبح والإغراء به .

هذا . وفى المقابلة بين « لى » و « بى » نظر لأنهما صلتا للفعلين «يشفع» و« يغرى » ، فهما من تمامهما ، والمقابلة إنما تكون بين الشيئين المستقلين(١) .

وعلى هذا الرأى تكون المقابلة فى البيت بين أربعة معان وما يقابلها على الترتيب .

وتأتى بين ستة معان كقول الشاعر(٢) :

عَلَى رَأْسِ عَبْدٍ تَاجُ عِزٍّ يَزِينُهُ وَفِي رِجْلِ حُرٍّ قَيْدُ ذُلٍّ يَشِينُهُ

---

(١) انظر حاشية الدسوقى ، جـ ٤ / ٣٠٠ . يشفع لى : بمعنى يعينه على اجتماعه بهم لأنه يستره عن الرقباء ، ويغرى بى : بمعنى : يحضهم عليه .

(٢) عنترة العبسى ، أو الصاحب شرف الدين الأربلى .

يريد : العبرة بسمو النفس وضعتها ، فالعبد إذا كان عزيز النفس كانت عزته تاجًا يزينه ، والحر إذا كان وضيع النفس ذليلاً ، كانت ذلته قيداً يشينه.

والمقابلة في البيت واضحة جلية ، فقد قابل بين « على رأس عبد تاج عز يزينه » وبين « في رجل حر قيد ذل يشينه » .

وبعد - فلعلنا أدركنا الآن على ضوء دراستنا لكل من المطابقة والمقابلة مدى أثرهما في بلاغة الكلام ، فكلاهما يضفى على المعنى حسنًا وبهاء ، لما لهما من أثر جليل في تثبيت المعنى وتقويته ، وكل منهما يضفى على القول رونقًا وبهجة ، ويقوى الصلة بين الألفاظ والمعانى ، ويجلو الأفكار ويوضحها ، شريطة أن تجرى المطابقة أو المقابلة مجرى الطبع ، أما إذا تكلفها الشاعر أو الكاتب فإنها تكون سببًا من أسباب اضطراب الأسلوب وتعقيده .

ومن صفات الأدب الجيد تلاحم أجزائه ، وائتلاف ألفاظه حتى كأن الكلام بأسره من حسن الجوار وشدة التلاحم كلمة واحدة ، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد ، وكما يتم هذا التلاحم عن طريق التشابه يتم كذلك عن طريق التضاد ، لأن المعانى ، يستدعى بعضها بعضًا ، فمنها ما يستدعى شبيهه ومنها ما يستدعى مقابله بل إن الضد أكثر خطوراً على البال من الشبيه ، وأوضح في الدلالة على المعنى منه .

وعلى هذا كلما ظهرت المطابقة أو المقابلة في الكلام بدعوة من المعنى لا تطفلاً عليه كانت أنجح في أداء دورها المنوط بها في تحسين المعنى[١] .

---

(١) علم البديع ، د/ عبد العزيز عتيق ، ص ٨١ .

حسن التعليل

حسن التعليل : أن يدعى لوصف علة مناسبة له باعتبار لطيف غير حقيقى[١] .

وهذا الوصف إما أن يكون ثابتًا قصد بيان علته ، كقول المتنبى يمدح هارون بن عبد العزيز يعلل لنزول المطر :

لَمْ تَحْكِ نَائِلَكَ السَّحَابُ وإنما حُمَّتْ بِهِ فَصَبِيبُهَا الرُّحَضَاءُ[٢]

يقول : إن السحابة لم تحك نائلك ، لأنها لا تقدر على ذلك ، لكثرة عطائك المتتابع ، فإنه أكثر من مائها ، وإنما هو عرق الحمى التى أصيبت بها السحاب بسبب الغيرة الشديدة ، وتخلفها عجزاً من مباراتك فى كرمك وسخائك .

فنزول المطر صفة ثابتة ، وقد علله الشاعر بما ليس علة له فى الواقع ، وهو أنه عرق الحمى التى أصيبت بها السحاب لشدة غيرتها بسبب عجزها عن إدراك الممدوح فى فيضه وعطائه وكرمه وسخائه .

يقول بهاء الدين السبكى : فالوصف الثابت المعلل هو نزول المطر ، ولا يظهر له فى العادة علة ، فأثبت له علة ، وهى أن السحاب حمت بنائله حسداً له وغيرة منه ، فصبيبها أى مطرها الرحضاء وهو العرق عقيب الحمى[٣] .

---

(١) الإيضاح ، جـ٦ / ٦٧ .

(٢) لم تحك : لم تشابه ، والنائل : العطاء ، والسحاب : فاعل يحكى : ما يحمل ماء المطر وجمع : سحب وسحائب ، وحمت به : أصابتها الحمى ، والصبيب : المصبوب والرحضاء : عرق الحمى ، والوصف « نزول المطر » حاصل وموجود .

(٣) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٣٧٥ .

وقول أبى تمام يعلل لحرمانه من مظاهر الغنى :

لَا تُنْكِرِى عَطَلَ الكريمِ مِنَ الْغِنَى ... فَالسَّيْلُ حَرْبٌ للمكانِ العالِي[١]

يريد أبو تمام أنه ليس بدعًا أن يحرم الكريم من مظاهر الغنى ، فهذا شأن ذوى الأقدار الرفيعة ، ألا ترى السيل لا يأوى إلى الأماكن المرتفعة ولا يستقر فيها ، بل سرعان ما ينحدر عنها إلى الأماكن المنخفضة .

فقد علل الشاعر حرمان الكريم النابه من الغنى بعلو القدر ورفعة الشأن قياسًا على الأماكن العالية ، فهى ليست مأوى للسيل ، ولا مستقراً له .

- وكما ترى - فحرمان الكريم النابه من نعمة الغنى ، وصف ثابت لا يظهر له فى العادة علة ، ولكن الشاعر علله بعلو قدر الممدوح ورفعة شأنه .

وقول المتنبى يمدح بدر بن عمار ويعلل لقتاله الأعداء :

مَـا بِهِ قَـتْلُ أَعَـادِيهِ وَلَكِنْ ... يَتَّقِي إِخْلَافَ مَا تَرْجُو الذِّئَابُ[٢]

يريد أنه ليس هناك ما يحمله على قتل أعاديه والفتك بهم لتمكنه منهم بقوة سلطانه ، ولكن الذى يدعوه إلى ذلك أنه يريد أن يحقق ما ترجوه جماعة الذئاب من إطعامه إياهم لحوم الأعداء ، وأنه لا يرغب أن يخيب رجاءها فيه .

فقتل أعاديه وصف ثابت ، وعلته عادة دفع مضرتهم ، وخلو البلاد من منازعتهم ، ولكن الشاعر علله على سبيل الطرافة بعلة أخرى ليست له فى الواقع ، من أنه يريد أن يحقق ما ترجوه الذئاب على يديه ، من اتساع الرزق بلحوم من يفتك بهم من الأعداء .

---

(١) العطل بمصدر عطل الرجل من المال ونحوه : خلا منه ، وقوله : حرب للمكان العالى : أى عدو له .

(٢) ما به قتل : مانافيه : أى ليس بالممدوح حنق أوجب قتل أعدائه وإخلاف ما ترجوه : عدم الوفاء به .

يقول الإمام عبد القاهر : الذى يتعارفه الناس أن الرجل إذا قتل أعاديه فلإرادة هلاكهم ، وأن يدفع مضارهم عن نفسه ، وليسلم ملكه ، ويصفو من منازعاتهم ، وقد ادعى المتنبى كما ترى أن العلة فى قتل هذا الممدوح لأعدائه غير ذلك(١) .

ويقول الشيخ الدسوقى : ما تضمنه البيت وهو اتقاؤه إخلاف ما ترجوه الذئاب مع كونه وصفًا للممدوح بكمال الجود فيه ، من حيث إنه إذا لم يتوصل إليه إلا بالقتل ارتكبه ، وصف له بكمال الشجاعة أيضًا ، حتى ظهرت للحيوانات العجم أى الغير الناطقة التى هذ الذئاب ، ووصف له أيضًا بأنه لا تستفزه العداوة على القتل لحكمه على نفسه وغلبته إياها ، فلا يتبعها فيما تشتهى ، وأنه لا يخاف الأعداء لأنه قد تمكن بسطوته منهم حيث شاء(٢) .

وكقول أبى طالب المأمونى يمدح بعض الوزراء ويعلل للذهاب إلى النوم :

مُغْرَمٌ بالثناءِ صَبٌّ بِكَسْبِ المجـ ... ـدِ يَهْتَزُّ لِلسَّمَاحِ ارْتِيَاحًا
لَا يَذُوقُ الإغفاءَ إلاَّ رَجَاءَ ... أَنْ يَرَى طَيْفَ مُسْتَمِيحٍ رَوَاحًا(٣)

يريد الشاعر أن يقول بأن الممدوح مولع بمعالى الأمور ،.وأنه يتحلى بالكرم البالغ أقصى الحدود ، حتى إنه ليسعده أن يرى عافيًا يستميحه ، ويستدر يده فيعطيه ، حتى إذا ما جن الليل طلب النوم رجاء أن يرى فى منامه طيف مستجد .

---

(١) أسرار البلاغة ، ص ٣٣٧ .

(٢) حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص ، جـ٤ / ٣٧٧ .

(٣) المغرم : اسم مفعول من أغرم بالشىء ، بمعنى أولع به ، والصب : ذو الولع الشديد ، والسماح الجود ، والإغفاء : النوم الخفيف ، والمستميح : طالب العطاء والرواح : العشى .

فابتغاء النوم وصف ثابت ، وعلته في العادة نشدان الراحة من عناء العمل وقد علله الشاعر بعلة أخرى وهي رجاؤه أن يرى طيف مستميح .

يقول صاحب الإيضاح : وكأن تقييده بالرواح ليشير إلى أن العفاة إنما يحضرونه في صدر النهار على عادة الملوك ، فإذا كان الرواح قلوا ، فهو يشتاق إليهم فنام ليأنس برؤية طيفهم(١) .

وقد علق الإمام عبد القاهر على قول أبي طالب المأموني ، بقوله « وكأنه شرط الرواح على معنى أن العفاة والراجين إنما يحضرونه في صدر النهار على عادة السلاطين فإذا كان الرواح ونحوه من الأوقات التي ليست من أوقات الإذن قلوا ، فهو يشتاق إليهم ليأنس برؤية طيفهم(٢) .

وكلام الخطيب يكاد يكون كلام الإمام عبد القاهر بمنطوقه ومفهومه .

وكقول الشاعر يعلل لظهور البدر حينًا وغيابه حينًا آخر :

أرى بدر السماء يلوح حينا ويبدو ثم يلتحف السحابا
وذاك لأنه لما تبدى وأبصر وجهك استحيا وغابا

يريد الشاعر أن يقول لممدوحه ، وقد شاهد البدر يظهر حينًا ، ويختفي حينًا آخر : ليس السبب فيما نراه من ظهور البدر ثم احتجابه ما هو معروف لنا من مرور السحاب المتقطع بيننا وبينه ، وإنما السبب أنه تبدى في السماء كعادته فرآك فوجدك أبهى طلعة وأنضر وجهًا ، فتوارى عن الأنظار خجلاً واستحياء .

فقد علل الشاعر هذا التعليل الطريف ليدخل السرور في قلب المخاطب ويؤثر في وجدانه ، ويتلطف في مدحه .

---

(١) الإيضاح ، جـ٦ / ٧٠ .
(٢) أسرار البلاغة ، ص ٣٣٨ .

وكقول المتنبى يعلل لرائحة الرياض الطيبة :

ألست ابن الألى سعدوا وسادوا ولم يلدوا امرءًا إلا نجيبًا
وما ريح الرياض لها ولكن كساها دفنهم فى الترب طيبًا

فالرائحة الطيبة في ريح الرياض لها سبب معروف ، وهو مرورها على الرياض واكتسابها طيبًا من ورودها وأزهارها ، بيد أن المتنبى يدعى أن هذا الطيب الذى تحمله إنما جاءها من مرورها على قبور آباء هذا الممدوح .

وكقول الآخر يعلل للبكاء :

أتتنى تؤنبنى بالبكاء فأهلاً بها وبتأنيبها
تقول وفى قولها حشمة أتبكى بعين ترانى بها
فقلت إذا استحسنت غيركم أمرت الدموع بتأديبها

يقول صاحب الإيضاح : إن العادة فى دمع العين أن يكون السبب فيه إعراض الحبيب ، أو اعتراض الرقيب ، ونحو ذلك من الأسباب الموجبة للاكتئاب لا ما جعله من التأديب على الإساءة باستحسان غير الحبيب(١) .

ويعلق الإمام عبد القاهر بقوله : « أعطاك بلفظة التأديب حسن اللبيب »(٢) .

وكقول ابن المعتز يعلل لحمرة العين :

قالوا اشتكت عينه فقلت لهم من كثرة القتل نالها الوصب
حمرتها من دماء من قتلت والدم فى النصل شاهد عجب(٣)

فحمرة العين وصف ثابت ، وعلته ما يقع فى العين من قذى ، أو ما يصيبها من رمد ، بيد أن الشاعر ذكر لها علة أخرى طريفة ، وهى أنها

---

(١) الإيضاح ، جـ٦ / ٧١ . (٢) أسرار البلاغة ، ص ٣٤٢ .
(٣) الوصب : المرض - النصل : السيف .

تقتل المعجبين بها ، فهذه الحمرة هي دماء قتلاها ، والدليل على ذلك أن الدم في النصل شاهد صادق على أن ذلك من أثر ما أصاب من الجراح .

وقد يكون الوصف غير ثابت ويراد إثباته ، كقول مسلم بن الوليد :

يَا وَاشِيًا حَسُنَتْ فِينَا إِسَاءَتُهُ نَجَّى حِذَارَكَ إِنسانِي من الغرقِ[١]

فإن استحسان إساءة الواشي ، وصف غير ثابت عادة ، فالناس لا يستحسنون إساءة الوشاة بيد أن حصوله ممكن ، وقد أراد الشاعر إثباته ، فعلله بعلة تقتضي وقوعه ، وهي أنه ترك البكاء خوفًا من الواشي فنجا إنسان عينه من الغرق في الدموع .. والشاعر يعلل لاستحسان إساءة الواشي .

يقول الشيخ الدسوقي : إن الشاعر يقول : إنما حسنت إساءة الواشي عندي لأنها أوجبت حذاري منه ، فلم أبك لئلا يشعر بما عندي ، ولما تركت البكاء نجا إنسان عيني من الغرق في الدموع ، فقد أوجبت إساءته نجاة إنسان عيني من الغرق في الدموع ، وغرق إنسان العين في الدموع كناية عن العمى[٢] .

وقول الشاعر يعلل لنطاق الجوزاء :

لَوْ لَمْ تَكُنْ نِيَّةُ الجوزاءِ خِدْمَتَهُ لَمَا رأيتَ عليها عِقْدَ مُنْتَطِقِ[٣]

يريد أن الجوزاء على ارتفاعها لها عزم ونية على خدمة الممدوح ، ومن أجل ذلك شدت النطاق في وسطها تهيؤًا واستعدادًا لخدمته .

---

(١) حذارك : حذاري إياك ، إنسان : أي إنسان عيني .

(٢) حاشية الدسوقي ، جـ ٤ / ٣٧٨ .

(٣) الجوزاء : برج من البروج الفلكية فيه عدة نجوم تسمى « نطاق الجوزاء » والعقد ما يلبس في العنق ومراده به هنا هذا النطاق المشبه له بترصيعه بالجواهر ، والمنتطق : لابس النطاق أو المنطقة .

فنية الجوزاء خدمة الممدوح ، صفة غير ثابتة ، وغير ممكنة ، لأن النية إنما تكون ممن له وعى وعنده إدراك ، وقد ادعى الشاعر ثبوتها بالعلة المذكورة ، وهى كونها منتطقة أى شادة النطاق فى وسطها كعادة الخدم .

يقول ابن يعقوب : فرؤية النطاق دليل على النية ، فلو لم تنو خدمته ما رأيت عليها نطاقًا شدت به وسطها ، والنطاق والمنطقة ما يشد به الوسط ، وقد يكون مرصعًا بالجواهر ، حتى يكون كعقد خالص من الدر[١] .

ويلحق بحسن التعليل ما بنى على الشك كقول أبى تمام :

رُبَى شَفَعَتْ رِيحُ الصَّبَا لِرِيَاضِهَا ... إِلَى المُزْنِ حَتَّى جَادَهَا وَهْوَ هَامِعُ
كأنَّ السحابَ الغرَّ غَيَّبْنَ تحتَها ... حَبيبًا فما تَرْقَا لهنَّ مدامعُ[٢]

يريد أن ريح الصبا تشفعت عند المزن للرياض ، فأرسلت السحب أمطارها بسبب هذه الشفاعة إلى رياض تلك الربى ، وقد نزل المطر بكثرة حتى كأن السحاب غيبت تحت الثرى حبيبًا ، فهى تبكى من أجله .

فقد علل على سبيل الشك نزول المطر من السحاب بأنها غيبت حبيبًا تحت الربا ، فهى لذلك لا تكف دموعها حزنًا عليه .

وحيث إن الشاعر أورد العلة بطريق الشك فلم تكن من حسن التعليل ولم تذهب هباء ، بل ألحقت به ، ولا يقال إن « كأن » مآلها للتشبيه فلا شك فيها ، لأن التشبيه نفسه فيه بعد ما عن الإصرار على ادعاء العلة[٣] .

---

(١) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٣٨٠ .

(٢) الربى : جمع ربوة ، وهى ما ارتفع من الأرض - الصبا : ريح تهب جهة الشرق - المزن : السحاب الأبيض - جادها : أمطارها - هامع : سائل فى كثرة - الغر : جمع الأغر ، والمراد السحاب الماطرة الغزيرة الماء - ترقا : الأصل ترقأ بالهمزة - فخففت : أى تسكن .

(٣) البديع ، للدكتور على العمارى ، ص ٤١ .

يقول الشيخ الدسوقى : إن الشاعر يقول أظن أو أشك أن السحاب غيبت حبيبًا تحت الربا ، فمن أجل ذلك لا تنقطع دموعها ، فبكاؤها صفة عللت بدفن حبيب تحت الربا ، ولما أتى بكأن أفاد أنه لم يجزم بأن بكاءها لذلك التغييب فقد ظهر أنه علل بكاءها على سبيل الشك بتغييبها حبيبًا تحت الربا(١) .

هذا . ووجه حسن هذا اللون أنه يظهر ما ليس بواقع متخيلاً كالصحيح الواقع .

---

(١) حاشية الدسوقى ، جـ ٤ / ٣٨٠ .

تأكيد المدح بما يشبه الذم

تأكيد المدح بما يشبه الذم لون طريف من ألوان البديع له حسنه وبهاؤه وجماله ورواؤه ، ويأتي على ثلاثة أضرب :

الأول : أن يستثنى من صفة ذم منفية على الشيء صفة مدح بتقدير دخولها فيها(١) كقول النابغة الذبياني :

وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ غيرَ أن سيوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ من قِرَاعِ الكتائبِ(٢)

فالعيب صفة ذم منفية ، قد استثنى منها صفة مدح ، هي أن سيوفهم ذات فلول من مضاربة السيوف ، حين تلاقيها في ساحة القتال ، أي أنه لا عيب فيهم أصلاً إلا الشجاعة ، إن كانت عيبًا ، وكون الشجاعة عيبًا محال ، فيكون ثبوت العيب لهم محالاً .

يقول الشيخ الدسوقي : أي تعليق على محال في المعنى ، والمعلق على المحال محال(٣) .

والتأكيد في هذا الضرب من وجهين :

١ - أنه كدعوى الشيء بينة ، لأنه علق ثبوت العيب على كون الصفة المستثناة عيبًا ، وكونها عيبًا محال ، فيلزم ثبوت نقيضه وهو المدح .

٢ - الأصل فيما بعد أداة الاستثناء مخالفته لما قبلها ، فإذا نطق المتكلم بأداة الاستثناء ، توهم السامع قبل أن ينطق بما بعدها ، أن ما يأتي بعدها مخرج لما قبلها ، فيكون شيء من صفة الذم ثابتًا ، فإذا أتت بعدها صفة

---

(١) الإيضاح ، جـ٦ / ٧٤ .

(٢) الفلول : جمع « فل » بفتح الفاء ، وهو الكسر في حد السيف ، والقراع بكسر القاف : المقارعة والمضاربة بالسيوف ، والكتائب : جمع كتيبة وهي الجيش أو القطعة منه .

(٣) حاشية الدسوقي ، جـ٤ / ٣٨٧ .

مدح تأكد المدح لكونه مدحًا على مدح ، ولكونه مشعراً بأنه لم يجد صفة ذم يستثنيها فاضطر إلى استثناء صفة المدح ومن ثم سمى هذا الأسلوب « تأكيد المدح بما يشبه الذم » .

ومن هذا النوع قول ابن الرومي :

لَيْسَ بِهِ عَيْبٌ سِوَى أَنَّهُ ... لَا تَقَعُ العَيْنُ عَلَى شِبْهِهِ

فقد نفى ابن الرومي العيب عامة عن ممدوحه ، ثم أتى بعد ذلك بأداة استثناء هي « سوى » فسبق إلى وهم السامع أن ممدوحه فيه عيب . بيد أن السامع لم يلبث أن وجد بعد أداة الاستثناء صفة مدح ، فراعه هذا الأسلوب ووجد أن ابن الرومي لم يذكر عيبًا ، بل أكد المدح في صورة توهم الذم .

وقول ابن نباته :

وَلَا عَيْبَ فِيهِ غَيْرَ أَنِّيَ قَصَدْتُهُ ... فَأَنْسَتْنِيَ الأَيامَ أَهْلاً وَمَوْطِنًا

فقد صدر الشاعر كلامه بنفي العيب عامة عن الممدوح ، ثم أتى بعد ذلك بأداة استثناء هي « غير » فأوهم أنه سيأتي بعدها بصفة ذم ، ولكنه لم يفعل بل جاء بصفة مدح ، وهي أنه عظيم الجود ، وافر العطاء ، للقاصدين إليه - وكما ترى - فصدر البيت يفيد المدح ، وعجزه يؤكد هذا المدح ، ولكن بأسلوب يوهم الذم .

وقول الشاعر :

وَلَا عَيْبَ فِيكُمْ غَيْرَ أَنَّ ضُيُوفَكُمْ ... تُعَابُ بِنِسْيَانِ الأَحِبَّةِ وَالْوَطَنِ

فصدر البيت ينفي العيب عامة عن المخاطبين ، وهو بهذا مفيد للمدح وعجز البيت يدل على المدح أيضًا ، بيد أنه جاء في أسلوب ألف الناس سماعه في الذم .

ومن هذا النوع أيضًا قول ابن نباته :

وَلاَ عَيْبَ فِيهَا غيرَ سِحْرِ جُفُونِهَا وَأَحْبِبْ بِهَا سَحَّارَةً حِينَ تَسْحَرُ

وقول الشاعر :

تُعَدُّ ذُنُوبِي عِنْدَ قَومٍ كثيرةً ولا ذنبَ لي إلا العُلا والفضائلُ

وقول أبي هلال العسكري :

ولا عيبَ فيهِ غيرَ أن ذَوِي النّدَى خِسَاسٌ إذَا قِيسُوا بِهِ ولئامُ

وقول صفي الدين الحلي :

لا عيبَ فيهِمْ سِوَى أن النزيلَ بِهِمْ يسلُو عن الأهلِ والأوطانِ والحَشَمِ

والضرب الثاني : أن يثبت لشيء صفة مدح ، ويعقب بأداة استثناء تليها صفة مدح أخرى له[1] كقوله ﷺ : « أنا أفصح العرب بيد أني من قريش » فإن إثبات الأفصحية على جميع العرب يشعر بكمالها والإتيان بأداة الاستثناء بعدها يشعر بأنه أريد إثبات مخالف لما قبلها فلما جاء بعد أداة الاستثناء كونه من قريش ، وقريش أفصح العرب تأكد المدح[2] .

ومن هذا النوع قول النابغة الجعدي :

فَتًى كَمُلَتْ أخلاقُه غَيْرَ أَنَّهُ جوادٌ فما يُبْقِي من المالِ باقيا

فقد وصف الشاعر الفتى بكمال الخلق ، وهذه صفة مدح ، ومجيئه بأداة الاستثناء بعدها مشعر بأنه أراد إثبات صفة بعدها مخالفة لما قبلها فلما أثبت أنه جواد وهذه صفة مدح ، كان ذلك تأكيدًا للمدح بأسلوب ألف الناس سماعه في الذم .

---

(١) الإيضاح ، جـ٦ / ٧٥ .

(٢) انظر شروح التلخيص ، جـ٤ / ٣٩٠ .

وقول بديع الزمان الهمذاني :

هو البـدرُ إلا أنهُ البـحـرُ زاخـراً   سِوَى أنه الضِّرْغَامُ لكنه الْوَبْلُ[١]

فقد شبه الشاعر الممدوح بالبحر ، وهذه صفة مدح ، ثم أكدت هذه الصفة بصفات مدح أخرى هى : أنه البحر زاخراً ، وأنه الضرغام شجاعة ، وأنه الوبل ، أى المطر غزارة .

يقول صاحب المطول : فالأولان استثناء ان مثل قوله : « بيد أنى من قريش » .

وقوله لكنه الوبل ، استدراك يفيد من التأكيد ما يفيده هذا الضرب من الاستثناء ، لأنه استثناء منقطع وإلا فيه بمعنى لكن[٢] .

وقول الشاعر :

أطلبُ المجـدَ دائبـًا غـيـرَ أنـِّي   فِي طِلاَبِي لا تعرفُ اليأسَ نَفْسِي

وهذا الضرب لا يفيد التأكيد إلا من جهة واحدة ، وهى أن ذكر أداة الاستثناء قبل ذكر المستثنى يوهم إخراج شيء مما قبلها ، فإذا ذكر بعد الأداة صفة مدح أخرى جاء التأكيد ، ولا يفيد من جهة أنه كدعوى الشيء ببينة لأنه مبنى على التعليق بالمحال .

يقول الشيخ الدسوقى : « حاصله أن الإخراج فى هذا الضرب من صفة المدح المثبتة ، فيتوهم قبل ذكر المستثنى أنه صفة مدح أريد إخراجها من المستثنى منه ونفيها عن الموصوف ، لأن الاستثناء من الإثبات نفى فإذا تبين

(١) الزاخر : المرتفع من تلاطم الأمواج ، الضرغام : الأسد الشديد ، الوبل : بسكون الباء المطر الغزير .
(٢) المطول : ص ٤٤١ .

بعد ذكره أنه أريد إثباته له أيضًا أشعر ذلك بأنه لم يمكنه نفى شىء من صفات المدح عنه فيجىء التأكيد(١) .

والضرب الثالث : أن يؤتى بمستثنى فيه معنى المدح معمولاً لفعل فيه معنى الذم ، فيكون الاستثناء مفرغًا ، وسمى بذلك لأن العامل الذى فيه معنى الذم والمتقدم على أداة الاستثناء قد تفرغ للعمل فيما بعد أداة الاستثناء وهو المستثنى الذى فيه معنى المدح ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا ﴾(٢) ، أى ما تعيب منا يا فرعون شيئًا إلا أصل المناقب والمفاخر ، وهو الإيمان بآيات الله .

وهذا الضرب مساو للضرب الأول من حيث الأفضلية لأنه يفيد التأكيد من الجهتين السابقتين إذ المعنى لا عيب فينا إلا الإيمان بآيات الله إن كان هذا عيبًا وإنما كان ضربًا ثالثًا من حيث الصورة التركيبية ، وهى كونه استثناء مفرغًا .

يقول ابن يعقوب : يفيد هذا الضرب ما يفيده الأول من التأكيد من الوجهتين وهما أن فيه من التعليق ما هو كإثبات الشىء ببينة وأن فيه الإشعار بطلب ذم فلم يجده فاستثنى المدح(٣) .

هذا وتأكيد المدح بما يشبه الذم ، نوع من المباغتة والمفاجأة تكسب الكلام طرافة وتثير حوله انتباهًا ، كما أنه نوع من الخلابة وسحر البيان ، إلى جانب تأكيد المعنى وتقويته .

---

(١) حاشية الدسوقى ، جـ ٤ / ٣٩٢ .
(٢) سورة الأعراف : ١٢٦ .
(٣) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٣٩٤ .

تأكيد الذم بما يشبه المدح

ويأتى هذا اللون - أيضًا - على ثلاثة أضرب :

الضــرب الأول : أن يستثنى من صفة مدح منفية عن الشىء صفة ذم بتقدير دخولها فيها(١) كقول الشاعر :

فإنَّ مَنْ لَامَنِى لا خيرَ فيهِ سوَى   وَصْـفِى لَهُ بِأَخَسِّ الناسِ كُلِّهِمُ

يريد الشاعر : أنه لا خير فيه سوى أنه أخس الناس إن كانت خيراً وكون « الأخسية » خيراً محال ، فيكون ثبوت الخير له محالاً ، فهو من باب التعليق على المحال - كما رأيت فى تأكيد المدح بما يشبه الذم - ويجرى فى هذا النوع ما جرى فى النوع الأول من تأكيد المدح بما يشبه الذم ، من جهة أن التأكيد فيه من وجهين :

١ - أنه كدعوى الشىء بالبينة والبرهان لتعليق ثبوت الخيرية له على المحال ، وهو كون الأخسية خيراً .

٢ - أن الأصل فيما بعد أداة الاستثناء مخالفته لما قبلها ، ونفى صفة المدح ذم ، فإذا ثبت صفة ذم بعد أداة الاستثناء جاء التأكيد .

ومن هذا النوع - أيضًا - قول الشاعر :

خَلَا مِنَ الْفَضْلِ غيرَ أَنِّى   أرَاهُ فى الحمقِ لا يُجَارَى

وقولك : « فلان لا خير فيه إلا أنه يسىء إلى من أحسن إليه » .

يقول الشيخ الدسوقى : أى أنه انتفت عنه صفات الخير إلا هذه الصفة وهى الإساءة للمحسن إليه إن كانت خيراً ، لكنها ليست خيراً . وحينئذ لا

---

(١) الإيضاح ، جـ٦ / ٧٧ .

خير فيه أصلاً ، ويجرى فى هذا ما جرى فى الضرب الأول فى تأكيد المدح ، من كون التأكيد فيه من وجهين ، وذلك لأنه كدعوى الشىء ببينة ، وهو هنا نفى الخيرية عنه بالمرة ، وذلك لتعليق وجود الخيرية فى فلان على المحال ، وهو كون الإساءة للمحسن إليه خيرًا[١] .

والضرب الثانى : أن يثبت للشىء صفة ذم ، ويعقب بأداة استثناء تليها صفة ذم أخرى له[٢] .

كقول الشاعر :

لئـيمُ الطبـاعِ سِـوَى أنَّهُ ... جَبَـانٌ يَهُـونُ عليـهِ الهـوانُ

فقد أثبت له صفة ذم ، وهى لؤم الطباع ، ثم جاء بأداة استثناء فأوهم أنه سيمدحه ، ولكنه جاء بعدها بصفة ذم أيضًا ، وهى الجبن مع ذلة النفس ، ومن ثم جاء تأكيد الذم بما يشبه المدح .

وقول الآخر :

يَا رَسُـولًا أعـداؤُهُ أرذلُ النـا ... سِ جـميـعًا لكنهُمْ فى الجحـيمِ

وكقولك : فلان فاسق إلا أنه جاهل .

والتأكيد فى هذا النوع من وجه واحد - كما علمت - لأن الأصل فى أداة الاستثناء مخالفة ما بعدها لما قبلها ، فإن كان ما قبلها ذمًا فالأصل أن يكون ما بعدها مدحًا ، وما جاء هنا ليس كذلك .

والضرب الثالث : أن يؤتى بالإستثناء المفرغ ، كقولك لا يحمد من فلان إلا كذبه .

---

(١) حاشية الدسوقى ، جـ ٤ / ٣٩٦ .
(٢) الإيضاح ، جـ ٦ / ٧٧ .

يقول صاحب المطول : ويأتى منه الضرب الآخر أعنى الاستثناء المفرغ نحو : لا يستحسن منه إلا جهله والاستدراك فيه بمنزلة الاستثناء[١] .

وهذا الضرب على نسق الضرب الثالث فى تأكيد المدح بما يشبه الذم ، مع الفارق فى الغرض .

- وكما ترى - فهذا اللون - أيضًا - نوع من الخلابة إلى جانب تقوية المعنى وتأكيده .

---

(١) المطول ، ص ٤٤٢ .

المبالغة

المبالغة : « هى أن يدعى لوصف بلوغه فى الشدة أو الضعف حداً مستحيلاً أو مستبعداً »[١] .

وللعلماء والنقاد فيها مذاهب وآراء :

١ - الرفض جملة وتفصيلاً ، لأن خير الكلام ما خرج مخرج الحق ، وكان على نهج الصدق ، كما قال حسان بن ثابت :

وَإِنَّ أَشْعَرَ بيتٍ أنتَ قَائِلُهُ   بَيْتٌ يقالُ إِذَا أَنْشَدْتَهُ صَدَقَا

ومنهج هذا الرأى هو ترك المبالغة بجميع ألوانها إلى التحقيق ، واعتماد ما يجرى من العقل على أصل صحيح ، لأن ذلك أحب إليه ، وآثر عنده لأنه يرى أن ثمره أحلى ، وأثره أبقى ، وفائدته أظهر ، وحاصله أكثر .

٢ - القبول جملة وتفصيلاً ، وعماد هذا المذهب قول البحترى :

كَلَّفْتُمُونَا حُدُودَ مَنْطِقِكُمْ   فِي الشعرِ يكفِي عَنْ صِدْقِهِ كَذِبُهُ

يريد البحترى : كلفتمونا أن تجرى مقاييس الشعر على حدود المنطق وتأخذ نفوسنا فيه بالقول المحقق ، حتى لا ندعى إلا ما يقوم عليه من العقل برهان يقطع به ، مع أن الشعر يكفى فيه التخيل ، والذهاب بالنفس إلى ما ترتاح إليه من التعليل ، لأن الصنعة إنما يتسع ميدانها ، حيث يذهب بالقول مذهب المبالغة والإغراق فى المدح والذم والوصف والفخر وسائر أغراض الكلام ؛ فهناك يجد الشاعر سبيلاً إلى أن يبدع ويجيد ، ويكون كالمغترف من نهر لا ينقطع والمستخرج من معدن لا ينتهى ، وذلك هو المراد

---

(١) الإيضاح ، جـ٦ / ٦٠ .

من قول البحترى « يكفى عن صدقه كذبه » ولا يدخل فى ذلك الكذب المحض الذى قصد ترويج ظاهره مع فساده ، للاتفاق على قبحه .

يقول الإمام عبد القاهر : إن الشعر يكفى فيه التخييل ، والذهاب بالنفس إلى ما ترتاح إليه من التعليل ، ولا شك أنه إلى هذا النحو قصد ، وإياه عمد ، إذ يبعد أن يريد بالكذب إعطاء الممدوح حظًا من الفضل والسؤدد ليس له وتبليغه بالصفة حظًا من التعظيم يجاوز به من الإكثار محله ، لأن هذا الكذب لا يبين بالحجج المنطقية ، أو القوانين العقلية ، وإنما يكذب فيه القائل بالرجوع إلى حال المذكور ، واختباره فيما وصف به ، والكشف عن قدره وخسته ، ورفعته أو ضعته ومعرفة محله ومرتبته ، وكذلك قول من قال « خير الشعر أكذبه »[١] .

فهذا مراده ، لأن الشعر لا يكتسب من حيث هو شعر فضلاً ونقصًا وانحطاطًا وارتفاعًا ، بأن ينحل الوضيع من الرفعة ما هو منها عار ، أو يصف الشريف بنقص وعار .. وأما من قال فى معارضة هذا القول « خير الشعر أصدقه » كما قال :

وَإِنَّ أَحْسَنَ بيتٍ أنتَ قائلهُ ... بيتٌ يُقَالُ إذَا أنشدتهُ صَدَقَا

فقد يجوز أن يراد به أن خير الشعر ما دل على حكمة يقبلها العقل ، وأدب يجب به الفضل ، وموعظ تروض جماح الهوى ، وتبعث على التقوى وتبين موضع القبح والحسن من الأفعال وتفصل بين المحمود والمذموم من الخصال وقد ينحى به نحو الصدق فى مدح الرجال ، كما قيل : كان زهير لا يمدح الرجل إلا بما فيه[٢] .

---

(١) فى رواية أعذب الشعر .

(٢) أسرار البلاغة ، ص ٣٠٧ .

ومن ثم يتبين أن الكذب الذى أبيح للشعراء ليس معناه قلب حقائق التاريخ ، فذلك خطأ معيب ، ولا قلب حقائق الوجود ، ولا تصوير العواطف تصويراً غير إنسانى ، فذلك مردود على صاحبه[١] .

٣ - *التوسط بين المذهبين* : وذلك بقبول المبالغة إذا كان طابعها الاعتدال ، ورفضها إذا جاوزت هذا الحد ، وهذا هو المذهب الذى اكتسب الأشياع والأنصار ، حتى وسم بأنه مذهب الجمهور[٢] .

---

(١) انظر أسس النقد الأدبى عند العرب ، ص ٤٢٨ .
(٢) البلاغة التطبيقية ، ص ٢٨٩ .

أقسام المبالغة

المبالغة تأتي على ثلاثة أضرب هي : التبليغ والإغراق والغلو .

التبليغ : هو ما يكون الوصف المدعى فيه ممكنًا عقلاً وعادة .

كقول امرىء القيس :

فعادى عداء بين ثور ونعجة ... دراكًا فلم ينضح بماء فيغسل[١]

فقد وصف الشاعر هذا الفرس بأنه أدرك ثورًا وبقرة وحشيين في مضمار واحد ، ولم يعرق جسمه ، وهذا غير ممتنع عقلاً وعادة .

يقول ابن يعقوب : مضمون هذا الكلام أن فرسه أدرك ثورًا ونعجة أو أثوارًا أو نعاجًا على الاحتمالين في مضمار واحد ، وهذه الدعوى أعني ادعاء بلوغ الفرس في القوة والسبق إلى هذه الحالة ممكنة عادة وعقلاً وإن كان وجودها في الفرس في غاية الندور ، ومن ثم كانت مبالغة وتسمى أو دعواها تبليغًا[٢] .

وكقول المتنبي :

وأصرع أي الوحش قفيته به ... وأنزل عنه مثله حين أركب[٣]

يريد الشاعر : إذا جريت بهذا الفرس وراء الوحش لحقته فصرعته وإذا نزلت عنه بعد الصيد والطرد ، كان في حال تشبه حاله حين ركبته فلم يلحقه تعب ، شأنه شأن الجواد الأصيل ، وهذا وصف ممكن عقلاً وعادة .

---

(١) عادى : والى بينهما بأن صرع الثاني إثر الأول في شوط واحد - والثور : ذكر بقر الوحش والنعجة : أنثاه - دراكًا : متتابعًا - لم ينضح : لم يرشح بعرق فيغسل جسمه ، أو يغسل منه جسمه لما يصحبه من الوسخ .

(٢) مواهب الفتاح ، جـ ٤ / ٣٦٠ .

(٣) أصرع : أطرح على الأرض ، قفيته : اتبعته والضمير المفعول للوحش وفي به للفرس .

والإغراق : وهو ما يكون الوصف المدعى فيه ممكنًا عقلاً لا عادة .

كقول عمرو بن الأيهم التغلبي :

ونكرم جارنا مادام فينا ونتبعه الكرامة حيث مالا(١)

فقد ادعى أن جاره لا يميل ولا يرحل عنه إلى مكان آخر ، إلا وهو يرسل الكرامة والعطاء إليه أينما ذهب ، وهذا سائغ وممكن من وجهة نظر العقل وممتنع عادة .

يقول قدامة بن جعفر : فإكرامهم للجار ما كان فيهم من الأخلاق الجميلة الموصوفة ، وإتباعهم الكرامة حيث كان من المبالغة في الجميل(٢) .

كما يقول صاحب المطول : ادعى أن جاره لا يميل عنه إلى جانب إلا وهو يرسل الكرامة والعطاء على أثره وهذا ممكن عقلاً ممتنع عادة(٣) .

وكقول المتنبي :

كفى بجسمي نحولا أنني رجل لولا مخاطبتي إياك لم ترني

يريد الشاعر : قد بلغت في التحول والهزال الغاية ، وكفى أنني رجل لولا كلامي لم يقع نظر الزائر على ، بل يستدل على بصوتي وقد قرب الدعوى من المعقول لفظ « لولا » .

هذا . والتبليغ والإغراق مقبولان .

والغلو : ما يكون الوصف فيه غير ممكن عقلاً ولا عادة .

وهو نوعان :

---

(١) مالا : أي رحل .
(٢) نقد الشعر ، ص ١٤٦ .
(٣) المطول ، ص ٤٣٥ .

مقبول كقول ابن حمديس الصقلى :

وَيَكَادُ يَخْـرُجُ سُرْعَـةً مِنْ ظِلِّهِ لَوْ كَـانَ يَرْغَبُ فِى فِرَاقِ رَفِـيقِ[١]

يريد الشاعر : أن هذا الفرس سريع الجرى ، حتى إنه يكاد يسبق ظله ويفترق عنه ، مع أن ظل الشىء لا ينفك عنه ، فهذا المعنى غير ممكن عقلاً وعادة ، بيد أنه قربه بما يقربه من الإمكان ، وذلك بذكر لفظ « يكاد » .

وكقول البحترى :

وَلَوْ أَنَّ مُشْتَاقًا تَكَلَّفَ فَوْقَ مَا فِي وُسْعِهِ لَسَعَى إليكَ المِنْبَرُ

فإن العقل لا يتصور ، ولا العادة تقر سعى المنبر إلى الممدوح بيد أنه قربه من الصحة والإمكان بذكر « لو » .

ومن المقبول - أيضًا - ما تضمن نوعًا حسنًا من التخييل .

كقول المتنبى :

عَقَدَتْ سَنَابِكُهَا عَلَيْهَا عِثْيَرًا لَوْ تَبْتَغِى عَنَقًا عليهِ لأَمْكَنَا[٢]

يريد : عقدت سنابك الخيل فوقها غبارًا كثيفًا بحيث لو طلب منها أن تسير عليه لأمكن لكثافته وكونه كالأرض ، وهذا غير ممكن عقلاً ولا عادة .

بيد أنه خيل إلى وهم السامع كثرته وكونه كالجبال ، فقربه ذلك إلى الصحة والإمكان .

يقول الشيخ الدسوقى : ادعى أن الغبار المرتفع من سنابك الخيل قد اجتمع فوق رؤوسها متراكمًا متكاثفًا ، بحيث صار أرضًا يمكن أن تسير

---

(١) سرعة : مفعول لأجله - جعل ظله رفيقًا له لأنه يلازمه ملازمة الرفيق .

(٢) السنابك : حوافر الخيل - العثير : الغبار - العنق : نوع من السير شديد .

عليه الجياد وهذا ممتنع عقلاً وعادة ولكنه يخيل للوهم تخيلاً حسنًا من ادعاء كثرته وكونه كالأرض التى فى الهواء صحته(١) .

وقد اجتمع النوعان فى قول القاضى الأرجانى يصف الليل بالطول :

يُخَيَّلُ لِي أَنْ سُمِّرَ الشُّهْبُ فِي الدُّجَى وَشُدَّتْ بِأَهْدَابِي إِلَيْهِنَّ أَجْفَانِي(٢)

يريد أن الشهب محكمة بالمسامير لا تزول عن مكانها ، وأن أجفان عينى قد شدت بأهدابها إلى الشهب فلا تنطبق لطول هذا الليل ، وهذا غير ممكن لا فى العقل ولا فى العادة ، بيد أن الذى جعل الغلو مقبولاً هو اجتماع لفظ « يخيل » مع ذلك التخييل الحسن الناشىء عن ادعاء أن هناك مسامير وحبالاً كانت سببًا فى وقوف الشهب وشد الأجفان إليها .

يقول الشيخ الدسوقى : ادعى الشاعر أن طول الليل وصل لحالة هى أن الشهب أحكمت بالمسامير فى دياجيه ، وأن كثرة سهره فيه وصلت لحالة هى أن أجفانه صارت مشدودة بأهدابه فى الشهب ، ومن المعلوم أن إحكام الشهب بالمسامير فى الدجى ، وشد أجفانه بأهداب عينه محال لكن قد تضمن ذلك الغلو تخييلاً حسنًا(٣) .

وكذلك من الغلو المقبول ما أخرج مخرج الهزل كقول الشاعر :

لَكَ أَنْفٌ يَابْنَ حَرْبٍ أَنِفَتْ مِنْهُ الأُنُوفُ
أَنْتَ فِي الْقُدْسِ تُصَلِّي وَهْوَ فِي الْبَيْتِ يَطُوفُ

---

(١) حاشية الدسوقى ، جـ ٤ / ٣٦٣ .

(٢) سمر : أحكمت بالمسامير - الدجى : جمع دجية وهى الظلمة - الأهداب : جمع هدب بضم الهاء وسكون الدال ، وهو ما نبت من الشعر على أشفار الأجفان .

(٣) حاشية الدسوقى ، جـ ٤ / ٣٦٥ .

وقول الآخر :

أُنبِئْتُ أن فتاةً كنتُ أخطُبُها ... عُرقُوبُها مثلُ شهرِ الصَّوْمِ في الطُّولِ

والمردود كقول أبى نواس يمدح هارون الرشيد :

وأخفْتَ أهلَ الشِّرْكِ حتى إنَّهُ ... لتخافُكَ النُّطَفُ التى لَمْ تُخلَقِ[1]

فقد ادعى أن النطف غير المخلوقة تخاف من سطوته ، وهذا ممتنع عقلاً وعادة ولم يصحبه لفظ مقرب أو تخييل حسن .

يقول الشيخ الدسوقى : فقد بالغ فى إخافته أهل الشرك حيث صيره تخافه النطف التى لم توجد ، ومعلوم أن خوف النطف محال ، لأن شرط الخوف عقلا الحياة فيستحيل الخوف من الموجود الموصوف بعدمها ، فضلاً عن خوف المعدوم ، فهذه المبالغة غلو مردود ، لعدم اشتماله على شيء من موجبات القبول[2] .

كما يقول الأستاذ الشايب تعليقًا على بيت أبى نواس : من الذى يتأثر بهذه المبالغة المحيلة التى يتخذها أبو نواس فى قوله ، أو التى يهذر بها ابن هانىء فى قوله :

مَا شِئْتَ لَا مَا شَاءَتِ الأقدارُ ... فاحكمْ فأنتَ الواحدُ القهارُ

وأى حق فى هذا الكلام ، وما أثمر سوى الاستباق فى الصنعة التى تؤدى إلى السخرية[3] .

ويرى بعض النقاد أن مبالغة أبى نواس مقبولة على معنى أنه أخاف أهل الشرك حتى سرى الخوف إلى أصلابهم فانقطع ولدهم ، أو أن الخوف أصبح

---

(١) النطف : جمع نطفة - لم تخلق : بمعنى لم يخلق منها الإنسان ، أو بمعنى لم توجد .

(٢) حاشية الدسوقى ، جـ ٤ / ٣٦٦ .

(٣) أصول النقد الأدبى ، ص ١٩٢ .

غريزة في أعدائه تنتقل من الآباء إلى الأحفاد فهم خائفون وذريتهم من بعدهم سيصابون بالخوف بالوراثة .

ومن الغلو المردود - أيضًا - قول المتنبي في مدح سيف الدولة .

تَجَاوَزْتَ مِقْدَارَ الشَّجَاعَةِ والنُّهَى إلى قولِ قومٍ أنتَ بالغيبِ عَالِمُ

فعلم الغيب مما استأثر الله به ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾(١) .

فالزعم بأن إنسانًا كائنًا من كان يعلم الغيب إفراط في الغلو يصل إلى حد الكفر هذا . والمبالغة هدف من أهداف البيان ، وثمرة من ثماره ، فيها روعة التصوير وجمال التعبير ، مما يؤثر في النفوس ، ويهز القلوب ، كما أنها تفي بحاجة المتكلم ، وتصور ما يجول بخاطره .

---

(١) سورة الأنعام : ٥٩ .

مراعاة النظير

مراعاة النظير أن يجمع فى الكلام بين أمرين ، أو أمور متناسبة ، لا بالتضاد[١] وبهذا القيد الأخير ، يخرج الطباق ، لأن التناسب فيه بالتضاد .

كقوله تعالى : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾[٢] .

يقول الشيخ الدسوقى : أى يجريان فى بروجهما بحسبان معلوم المقدار ، لا يزيدان عليه ولا ينقصان عنه ، فالشمس تقطع الفلك فى سنة ، والقمر يقطعه فى شهر ، فهو أسرع منها سيرًا ذلك تقدير العزيز العليم .. والشمس والقمر لا يخفى تناسبهما من حيث تقارنهما فى الخيال ، لكون كل منهما جسمًا نورانيًا سماويًا[٣] .

وقول بعض الأدباء للمهلبى الوزير :

أنت أيها الوزير ، إسماعيل الوعد ، شعيبى التوفيق ، يوسفى العفو محمدى الخلق ، فالتناسب بين : إسماعيل وشعيب ويوسف ومحمد لأنهم جميعًا أنبياء والتناسب بين الوعد والتوفيق والعفو والخلق لأنها أخلاق .

قال تعالى فى شأن سيدنا إسماعيل : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾[٤] .

وقال سبحانه فى شأن سيدنا شعيب : ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[٥] .

---

(١) الإيضاح ، جـ٦/١٦ .
(٢) سورة الرحمن : ٤ .
(٣) حاشية الدسوقى ، جـ٤/٣٠٢ .
(٤) سورة مريم : ٥٤ ، ٥٥ .
(٥) سورة هود : ٨٨ .

وقال جل شأنه فى شأن سيدنا يوسف : ﴿ قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾(١) .

وقال عز وجل فى شأن سيدنا محمد : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾(٢) صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ومن مراعاة النظير قول أسيد بن عنقاء الفزارى :

كَأَنَّ الثُّرَيَّا عُلِّقَتْ فِي جَبِينِهِ ... وَفِي خَدِّهِ الشِّعْرَى وَفِي وَجْهِهِ البَدْرُ(٣)

فقد جمع الثريا والشعرى والبدر فى أنها كواكب سماوية ، وجمع الجبين والخد والوجه .

وقول البحترى يصف إبلاً بالهزال :

كَالقِسِيِّ المعَطَّفَاتِ بَلِ الأَسْـ ... ـهُمِ مَبْرِيَّةً بَلِ الأَوْتَارِ(٤)

يريد بيان ما أصاب الإبل من الهزال والرقة ، فشبهها أولاً بالقسى ، ثم أضرب إلى تشبيهها بما هو أدق وهو السهام المبرية ، ثم أضرب إلى ما هو أدق وهو الوتر .

وكما ترى : فقد جمع الشاعر ثلاثة أمور متناسبة لتقارنها غالبًا فى الخيال فهى آلات للقتال .

وقول ابن رشيق :

أَصَحُّ وَأَقْوَى مَا سَمِعْنَاهُ فِي النَّدَى ... مِنَ الخَبَرِ المأثورِ مُنْذُ قَدِيمِ

---

(١) سورة يوسف : ٩٢ . (٢) سورة القلم : ٤ .

(٣) الثريا : سبعة كواكب فى عنق الثور ، والشعرى كوكب نير فى الجوزاء والجبين : ما فوق الصدغ عن يمين الجبهة أو شمالها وهما جبينان .

(٤) القسى : جمع قوس – المعطفات : المحنيات – الأسهم : جمع سهم : مبرية منحوتة – الأوتار : جمع وتر : بفتح الواو والتاء ، وهو الخيط الجامع بين طرفى القوس .

أَحاديثٌ ترويهَا السيولُ عن الحيَا ... عن البحرِ عن كَفِّ الأميرِ تَمِيمِ[١]

فالشاعر قد ناسب هنا بين الصحة والقوة والسماع والخبر المأثور ، والأحاديث والرواية ، ثم بين السيل والحيا والبحر وكف تميم ، مع ما فى البيت الثانى من صحة الترتيب فى العنعنة إذ جعل الرواية لصاغر عن كابر ، كما يقع فى سند الأحاديث ، فإن السيول أصلها المطر ، والمطر أصله البحر ، ولهذا جعل كف الممدوح أصلاً للبحر مبالغة[٢] .

تشابه الأطراف :

من مراعاة النظير ما يسمى تشابه الأطراف : وهو أن يختم الكلام بما يناسب أوله فى المعنى[٣] .

وهذا التناسب إما ظاهر ، كقوله تعالى : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[٤] فإن اللطف يناسب ما لا يدرك بالبصر[٥] والخبرة تناسب من يدرك شيئًا ، فإن من يدرك شيئًا يكون خبيراً به .

يقول ابن يعقوب : فإن عدم إدراك الأبصار له وهو مدلول الجملة الأولى يناسب قوله اللطيف ، وكونه مدركًا للأبصار وهو مدلول الجملة الثانية يناسبه قوله الخبير .. لأن الخبير من له علم بالخفيات ، ومن جملة الخفيات ، بل الظواهر الأبصار فيدركها[٦] .

---

(١) الندى : الكرم – المأثور : المروى – الحيا : المطر – الأمير تميم : هو أبو على بن المعز بن باديس .
(٢) الإيضاح ، جـ٦ / ٢١ ، والمطول ، ص ٤٢ .
(٣) الإيضاح ، جـ٦ / ٢١ .
(٤) سورة الأنعام : ١٠٣ .
(٥) اللطف فى الأصل : دقة الشيء – والمراد باللطف هنا ما لا تدركه الأبصار مطلقًا ، لاستحالة الأول على الله تعالى . ويجوز أن يكون من اللطف بمعنى الرأفة فيكون من إيهام التناسب .
(٦) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ، جـ٤ / ٣٠٤ .

وكقوله تعالى : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾(١) .

فقد ختمت الآية بما يناسب أولها ، فقوله تعالى « الغنى الحميد » للتنبيه على أن ما له ليس لحاجة ، بل هو غنى عنه جواد به ، فإذا جاد به حمده المنعم عليه .

يقول بهاء الدين السبكى : نبه بالغنى على أن ماله ليس لحاجة وبالحميد على أنه يجود فيحمد(٢) .

والخفى كقوله تعالى : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(٣) .

يقول الخطيب : « فإن قوله وإن تغفر لهم ، يوهم أن الفاصلة الغفور الرحيم ولكن إذا أنعم النظر علم أنه يجب أن تكون ما عليه التلاوة ، لأنه لا يغفر لمن يستحق العذاب إلا من ليس فوقه أحد يرد عليه حكمه ، فهو العزيز ، لأن العزيز فى صفات الله هو الغالب .. ووجب أن يوصف بالحكيم أيضاً ، لأن الحكيم من يضع الشىء فى محله(٤) .

كما يقول ابن يعقوب : ومن لطيف الختم بالمناسبة وخفيها قوله تعالى : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ فإن المناسب فى بادىء الرأى هو أن يقال ، فإنك أنت الغفور الرحيم ، مكان

---

(١) سورة الحج : ٦٤ .
(٢) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٣٠٤ .
(٣) سورة المائدة : ١١٨ .
(٤) الإيضاح ، جـ ٦ / ٢٢ .

أنت العزيز الحكيم وعند التفطن والتأمل الصائب يفهم أن المناسب هو ما ذكر ، وهو إنك أنت العزيز الحكيم ، وذلك أن المحدث عنهم عصاة يستحقون العقوبة والغفران لمن يستحق العقوبة إنما يكون من العزيز أى القاهر الغالب ، الذى لا يعترض على أمره ، إذ العزيز مأخوذ من عز إذا غلب ، ثم لما ذكر أن المغفرة للمذنب إنما تكون من العزيز الغالب الذى لا اعتراض على أمره ناسب زيادة الحكيم دفعًا لما يتوهم من أن العفو عن المستحق خال من الحكمة ، فذكر الحكيم إشارة إلى أن فعله ذلك لحكمة وسر يراعى قهراً وعدلاً ، فكأنه يقال إن تعف لهؤلاء المذنبين فأنت أهل لذلك إذ لا اعتراض عليك لعزتك ، ومع ذلك ففعلك لا يخلو عن حكمة ، ولو أخفيت عن الخلق[1] .

إيهام التناسب :

ويلحق بمراعاة النظر ما يسمى « إيهام التناسب » وهو أن يجمع بين معنيين غير متناسبين بلفظين يكون لهما معنيان متناسبان وإن لم يكونا مقصودين ، كقوله تعالى : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾[2] .

يقول ابن يعقوب : أما تناسب الشمس والقمر فظاهر وقد تقدم ، ولم يقصد التمثيل باعتبارهما فقط ، ولكن قصد التمثيل باعتبارهما مع النجم ، فى أصل معناه المتبادر يناسب الشمس والقمر ، لأنه يقترن معهما فى الخيال إذ النجم لكونه جسمًا نورانيًا سماويًا ، ففيه باعتبار معناه الأصلى المتبادر مناسبة ، وأما باعتبار المراد منه فى هذا الاستعمال فلا يناسبهما ، إذ

---

(١) مواهب الفتاح ، جـ٤ / ٣٠٤ .

(٢) سورة الرحمن : ٥ ، ٦ .

هو النبات الذى لا ساق له ، والشجر ماله ساق مما ينبت فى الأرض . والمراد بسجودهما لما يراد منهما ، فكأنهما خاضعان مستسلمان بالقول والفعل لما يراد منهما[١] .

كما يقول بهاء الدين السبكى : وسمى إيهام التناسب ، لأنه لما ذكر لفظ الشمس والقمر ذكر النجم ، والمراد به على أحد القولين النبات ، فذكر النجم بعد ذكر الشمس والقمر يوهم التناسب ، لأن النجم أكثر ما يطلق على نجم السماء المناسب للشمس والقمر بكونه فى السماء[٢] .

هذا . وأسلوب مراعاة النظير يجعل الكلام سلسًا عذبًا ، خاليًا من الشغرات كل لفظ يسكن إلى جاره ويطمئن إليه ، فيكون كعقد اللؤلؤ المتناسق الحبات .

---

(١) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٣٠٥ .
(٢) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٣٠٥ .

المشاكلة

المشــاكلة : ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقًا أو تقديراً[١] .

فالأول : كقوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾[٢] ففي الآية الكريمة مشاكلة حيث أطلق لفظ سيئة الثاني على جزاء السيئة[٣] .

هذا . وتسمية جزاء السيئة سيئة ، لأن العمل في نفسه سوء ، وهو يوحي بأن مقابلة الشر بالشر ، وإن كانت مباحة سيئة يجدر بالإنسان الكامل أن يترفع عنها ، وكأنه بذلك يشير إلى أن العفو أفضل وأولى .

وقول أحمد محمد الأنطاكي :

قَالُوا اقترحْ شيئًا نُجِدْ لكَ طَبْخَهُ　　قلتُ اطبخُوا لِي جُبَّةً وقَمِيصًا[٤]

فقد وضع « اطبخوا لي » مكان « خيطوا لي » لأجل المشاكلة .

يروى أنه قال : كان لي إخوان أربعة ، وكنت أنادمهم أيام الأستاذ كافور الإخشيدي ، جاءني رسولهم في يوم بارد ، وليست لي كسوة تحصنني من البرد ، فقال : إخوانك يقرأون عليك السلام ويقولون لك : قد أصبحنا اليوم وذبحنا شاة سمينة فاشته علينا ما نطبخ لك منها قال : فكتبت إليهم :

إِخْوانُنا قَصَدُوا الصبوحَ بِسُحْرَةٍ　　فَأَتَى رسولُهُمْ إِلَيَّ خُصُوصًا
قَالُوا اقترحْ شيئًا نُجِدْ لك طَبْخَهُ　　قلتُ اطبخُوا لى جُبَّةً وَقَمِيصًا

---

(١) الإيضاح ، جـ٦ / ٢٦ .
(٢) سورة الشورى : ٤٠ .
(٣) بغية الإيضاح ، جـ٤ / ٢٣ .
(٤) نجد : نحسن .

قال : فذهب الرسول بالرقعة ، فما شعرت حتى عاد ومعه أربع خلع وأربع صرر فى كل صرة عشرة دنانير ، فلبست إحدى الخلع وصرت إليهم(١) .

وكما ترى - فقد ذكر خياطة الجبة والقميص بلفظ الطبخ لوقوعها فى صحبة طبخ الطعام . والأصل أن يقول : خيطوا لى .

وقول عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلن أحد علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا

يريد الشاعر : فنجازيه على جهله وسفهه ، فوضع لفظ نجهل موضع « نجازيه » لأجل المشاكلة .

وقول ابن جابر الأندلسى :

قالوا اتخذ دهنًا لقلبك يشفه ... قلت ادهنوه بخدها المتورد(٢)

فقد وضع « ادهنوه » موضع « متعوه » لأجل المشاكلة(٣) .

والثانى : وهو الوقوع فى الصحبة تقديراً كقوله تعالى :

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ

---

(١) معاهدة التنصيص ، جـ ٢ / ٢٥٢ - السحرة : آخر الليل قبيل الفجر - الصبوح : شراب الصباح .

(٢) المرجع السابق ، جـ ٢ / ٢٥٢ .

(٣) الفرق بين الجناس والمشاكلة : الجناس . كل كلمة مستعملة فى المعنى الحقيقى مع اختلاف أصل الكلمة - أما المشاكلة فالكلمة الأولى مستعملة فى المعنى الحقيقى والثانية فى المعنى المجازى لورودها فى صحبة الكلمة الأولى .

أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾(١) .

فلفظ « صبغة الله » قد وضع موضع تطهير الله ، لوقوعه في صحبة صبغة النصارى تقديراً لا تحقيقًا « لأن الصبغ ليس مذكوراً في كلام النصارى ، لكن لما كان غمسهم أولادهم في الماء الأصفر يستحق أن يسمى صبغًا وإن لم يتكلموا بذلك حين الغمس ، وكانت الآية نازلة في سياق ذلك الفعل صار كأن لفظ الصبغ مذكور »(٢) .

هذا . والمشاكلة تضفي على الكلام حسنًا وبهاء ، فهي تنقل المعنى إلى لباس جديد غير مألوف ، فيحدث في النفس عجبًا وطربًا ، إلى جانب ما في بعض صورها من مجاز يزيد أثره في بلاغة العبارة وجمال الأسلوب .

---

(١) سورة البقرة : ١٣٦ - ١٣٨ .
(٢) انظر حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٣١٤ .
الماء الأصفر : يسمى المعمودية ويقولون هو تطهير لهم .

المذهب الكلامى

المذهب الكلامى : هو أن يورد المتكلم حجة لما يدعيه على طريق أهل الكلام(١).

كقوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾(٢) .

فالمراد بالفساد : خروجهما عن النظام الذى هما عليه ، وتمام الدليل لكنهما لم تفسدا فليس فيهما آلهة غير الله .

يقول صاحب المطول : واللازم وهو فساد السموات والأرض باطل لأن المراد به خروجهما عن النظام الذى هما عليه ، فكذا الملزوم وهو تعدد الآلهة(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴾(٤) .

فكأن إبراهيم عليه السلام يقول : إن القمر آفل ، وربى ليس بآفل ، فالقمر ليس بربى(٥) .

وقوله ﷺ : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيراً » .

فكأنه يقول : لكنكم ضحكتم كثيراً . وبكيتم قليلاً فلم تعلموا ما أعلم .

---

(١) الإيضاح ، جـ٧ / ٦٥ ، المراد بأهل الكلام : علماء المنطق .
(٢) سورة الأنبياء : ٢٢ .
(٣) المطول ، ص ٤٣٥ .
(٤) سورة الأنعام : ٧٦ ، جن عليه الليل : ستره بظلمته - الأفول : غيبوبة الشىء بعد ظهوره .
(٥) الإيضاح ، جـ٦ / ٦٥ .

وقول النابغة الذبيانى يعتذر إلى النعمان بن المنذر :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة	وليس وراء الله للمرء مطلب
لئن كنت قد بلغت عنى خيانة	لمبلغك الواشى أغش وأكذب
ولكننى كنت امرءًا لى جانب	من الأرض فيه مستراد ومذهب
ملوك وإخوان إذا ما مدحتهم	أحكم فى أموالهم وأقرب
كفعلك فى قوم أراك اصطفيتهم	فلم ترهم فى مدحهم لك أذنبوا(١)

يريد النابغة : أنت أحسنت إلى قوم فمدحوك ، وأنا أحسن إلى قوم فمدحتهم ، فكما أن مدح أولئك لك لا يعد ذنبًا ، فكذلك مدحى لمن أحسن إلى لا يعد ذنبًا(٢) .

يقول صاحب المطول : يعنى : لا تلمنى ولا تعاتبنى على مدح آل جفنة وقد أحسنوا إلى كما لا تلوم قوما مدحوك وقد أحسنت إليهم ، فكما أن مدح أولئك لك لا يعد ذنبًا كذلك مدحى لمن أحسن إلى ، وهذه الحجة على صورة التمثيل لذلك يسميه الفقهاء قياسًا ، ويمكن رده إلى قياس استثنائى بأن يقال : لو كان مدحى لآل جفنة ذنبًا لكان مدح ذلك القوم لك أيضًا ، لكن اللازم باطل فكذا الملزوم(٣) .

وسمى هذا اللون بالمذهب الكلامى ، لأنه على طريقة أهل الكلام والتوحيد وهوعبارة عن إثبات أصول الدين بالبراهين الساطعة والدلائل القاطعة والحجج الدامغة ومن جمال هذا الأسلوب الإقناع العقلى والإمتاع النفسى ، فهو يثبت القضية بحجة عقلية .

(١) الريبة : التهمة والشك - المستراد : موضع يتردد فيه لطلب الرزق - أحكم وأقرب : أى يجعلوننى حكمًا فى أموالهم مقربًا منهم - والمراد بهم الملوك من آل جفنة من الغساسنة الذين حكموا الشام .

(٢) الإيضاح ، جـ ٦ / ٦٦ .   (٣) المطول ، ص ٣٣٦ .

تجاهل العارف

تجاهل العارف : هو - كما سماه السكاكي - سوق المعلوم مساق غيره لنكتة التوبيخ(١) ، وذلك كقول ليلى بنت طريف الشيباني في رثاء أخيها الوليد حين قتله يزيد بن مزيد الشيباني في عهد هارون الرشيد :

أَيا شَجَرَ الخابورِ مَالَكَ مُورِقًا ... كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى ابنِ طَرِيفِ(٢)

فإن ليلى تعلم أن الشجر لا يجزع ، ولكنها تجاهلت ذلك ، وشكت فيه ووبخته عليه وإذا كان الشجر يوبخ على عدم الجزع فغيره من العقلاء أولى وأحرى .

يقول الشيخ الدسوقي : هي تعلم أن الشجر لا يجزع ، لأن الجزع لا يكون إلا من العاقل ، فتجاهلت فأظهرت أنه من ذوى العقل ، وأنه يجزع عليه جزعًا يوجب ذبوله، ولا يخرج ورقه فلما أورق وبخته على إخراج الورق وأظهرت أنها حينئذ تشك في جزعه .

وإذا كان الشجر يوبخ على عدم الجزع فأحرى غيره(٣) .

كما يقول بهاء الدين السبكي فالاستفهام في قولها مالك للتوبيخ وهو تجاهل مع معرفتها أن الشجر لا يتأثر بموت من مات(٤) .

أو المبالغة في المدح كقول البحتري :

أَلَمْعُ بَرْقٍ سَرَى أم ضوءُ مصباحِ ... أم ابتسامَتُهَا بالمنظرِ الضَّاحي(٥)

---

(١) المفتاح ، ص ٢٢٦ .

(٢) المورق : ما كان ذو ورق ناضر والخابور : نهر بديار بكر .

(٣) حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٤٠٤ .

(٤) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٤٠٤ .

(٥) سرى : ظهر ليلاً ، والمراد بالمنظر : الوجه أو الفم ، والضاحي الظاهر .

فالشاعر يعلم يقينًا أن الذى ظهر إنما هو ابتسامتها بمنظرها الضاحى ، وذلك يعنى المبالغة فى مدحها ، وبيان أنها بلغت فى الحسن مبلغًا يحصل معه ذلك اللبس .

يقول صاحب المطول : أى الظاهر بالغ فى مدح ابتسامتها حيث لم يفرق بينهما وبين لمع البرق وضوء المصباح[١] .

أو المبالغة فى الذم : كقول زهير بن أبى سلمى :

وما أدرى وسوف إخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء[٢]

فالشاعر يعلم يقينًا أنهم رجال ، بيد أنه تجاهل ذلك ، وادعى بأن الأمر قد التبس عليه ، فلم يدر أرجال هؤلاء أم نساء وذلك للمبالغة فى ذمهم ، وبيان أنهم لضعفهم قد التبسوا عليه بالنساء .

يقول ابن يعقوب : فكان فى التجاهل إظهار لنهاية الذم وأنهم فى منزلة النساء[٣] .

أو التدله فى الحب كقول الشاعر[٤] :

بالله يا ظبيات القاع قلن لنا ليلاى منكن أم ليلى من البشر

فالشاعر يعلم أن ليلى من البشر ، لكنه تجاهل ذلك وتظاهر بأنه لا يدرى ، ولكى يؤكد ذلك التجاهل اتجه بسؤاله إلى الظبيات وهو يرمى من وراء ذلك إلى الترجمة عن ذهوله ، ومدى سيطرة حبها عليه .

يقول ابن يعقوب : فإنه يعلم أن ليلى من البشر فتجاهل وأظهر أنه أدهشه الحب حتى لا يدرى هل هى من الظبيات الوحشية أم من البشر ،

---

(١) المطول ، ص ٤٤٣ .

(٢) المراد يقوم هنا : الرجال فقط بدليل قوله أم نساء ، إخال بمعنى أظن .

(٣) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٤٠٥ .

(٤) قيل إنه للعرجى أو مجنون ليلى والتدله التحير - القاع : الأماكن المنخفضة من الأرض المستوية .

فلذلك سأل الظبيات عن حالها ، ويجوز أن يكون هذا المثال لنكتة المبالغة في مدحها بالحسن حيث صارت إلى حال الالتباس بالظبيات(١) .

أو الاستهزاء كقوله تعالى في حق النبى ﷺ حكاية عن الكفار :﴿ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾(٢) .

يقول صاحب المطول : يعنون : محمداً عليه أفضل التسليمات والصلوات ، كأنهم لم يكونوا يعرفون منه إلا أنه عندهم رجل ما وهو عندهم أظهر من الشمس(٣) .

أو التعريض كقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾(٤) .

فالله ورسوله أعلم بالذى على الهدى ، ولكنه ساق الكلام على هذا النحو للتعريض بعدم هداهم .

يقول صاحب الإيضاح : وفى مجئ هذا اللفظ على الإبهام فائدة أخرى، وهى أنه يبعث المشركين على الفكر فى حالة أنفسهم وحال النبى ﷺ والمؤمنين وإذا فكروا فيما هم عليه من إغارات بعضهم على بعض ، وسبى ذراريهم ، واستباحة أموالهم ، وقطع الأرحام وإتيان الفروج الحرام ، وقتل النفس التى حرم الله قتلها وشرب الخمر التى تذهب العقول ، وتحسن ارتكاب الفواحش ، وفكروا فيما النبى عليه السلام والمؤمنون عليه من صلة الأرحام ، واجتناب الآثام ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإطعام

---

(١) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٤٠٦ .
(٢) سورة سبأ : ٧ .
(٣) المطول ، ص ٤٤٤ .
(٤) سورة سبأ : ٢٤ .

المساكين وبر الوالدين والمواظبة على عبادة الله تعالى علموا أن النبى عليه السلام والمسلمين على هدى ، وأنهم على الضلالة ، فبعثهم ذلك على الإسلام ، وهذه فائدة عظيمة[١] .

أو الإيناس كقوله تعالى : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴾[٢] .

فالله سبحانه يعلم السر وأخفى ولما كان المقام مقام هيبة ورهبة سأل الله تعالى موسى عليه السلام ليؤنسه ويزيل رهبته وخوفه ويملأ قلبه طمانينة وسكينة .

هذا . وأسلوب تجاهل العارف يحقق المبالغة فى المعانى ، وتصويرها بصورة أفخم وأبهى .

---

(١) الإيضاح ، جـ٦ / ٨٥ .
(٢) سورة طه : ١٧ .

الهزل الذى يراد به الجد

الهزل الذى يراد به الجد : أن يذكر الشىء على سبيل اللعب والمباسطة ويقصد به أمر صحيح فى الحقيقة(١) .

كقول الإمام مالك لبعض تلاميذه حين سأله أتعرف بيت قدامه وقد كان ذلك البيت يلعب فيه بالحمام(٢) .

كأنه يقول له إن مكانك فى دار اللهو واللعب ، لا فى مجلس العلم والأدب وكقول أبى نواس :

إِذَا مَا تَمِيمِيٌّ أتاكَ مُفَاخِرًا ... فَقُلْ عَدِّ عَنْ ذَا كَيْفَ أَكْلُكَ للضبِّ(٣)

فهذا القول للتميمى عند افتخاره ظاهره هزل ، ولكنه يراد به الجد ، وهو ذمه بأكل الضب ، لأن أشراف الناس يعافون أكله .

يقول الشيخ الدسوقى : فقولك للتميمى وقت مفاخرته بحضورك ، لا تفخر وقل لى : كيف أكلك للضب هزل ظاهر ، لكنك تريد به الجد ، وهو ذم التميمى بأكله الضب وأنه لا مفاخرة مع ارتكابه أكل الضب الذى يعافه أشراف الناس ، وعلم من هذا أن الهزلية باعتبار استعمال الكلام والجدية باعتبار ما قصد منه فى الحالة الراهنة(٤) .

وقول امرئ القيس :

أَيَقْتُلُنِى والمشرفيُّ مُضَاجِعِى ... وَمَسْنُونَةٌ زرقٌ كأنيابِ أَغْوالِ

وَقَدْ عَلِمَتْ سلمَى وإن كانَ بَعْلُهَا ... بأن الفتَى يَهْذِى وليس بِفَعَّالِ(٥)

---

(١) حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص ، جـ٤ / ٤٠٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٠٢ .

(٣) عد عن ذا بمعنى تجاوز عن هذا الافتخار ، والضب حيوان صغير ذنبه كثير العقد لا يأكله أشراف الناس .

(٤) حاشية الدسوقى ، جـ٤ / ٤٠٢ .

(٥) البعل : الزوج واسم كان ضمير مستتر يعود على المهجو ، يهذى : يقول كلامًا غير معقول .

فقول امرئ القيس « إن الفتى يهذى وليس بفعال » ظاهره هزل ولكنه يراد به الجد وهو هجو زوجها .

هذا وأسلوب « الهزل الذى يراد به الجد » أكثر إيلامًا وأبلغ فى الإساءة .

القول بالموجب

القول بالموجب يأتى على ضربين :

أحدهما : أن تقع صفة فى كلام الغير كناية عن شئ أثبت له حكم ، فتثبت فى كلامك تلك الصفة لغيرذلك الشئ .من غير تعرض لثبوت ذلك الحكم له أو انتفائة عنه[١] .

كقوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾[٢] .

يقول صاحب المطول : فالأعز صفة وقعت فى كلام المنافقين ،كناية عن فريقهم والأذل كناية عن المؤمنين ، وقد أثبتوا لفريقهم المكنى عنهم بالأعز الإخراج ، فأثبت الله تعالى فى الرد عليهم صفة العزة لغير فريقهم وهو الله تعالى ورسوله والمؤمنون ولم يتعرض لثبوت ذلك الحكم الذى هو الإخراج للموصوفين بالعزة أعنى الله ورسوله والمؤمنين ، ولا لنفيه عنهم[٣] .

وقد روى أن عبد الله بن عبد الله بن أبى سلول قال لأبيه ، والذى لا إله إلا هو ، لا تدخل المدينة حتى تقول إن رسول الله ﷺ هو الأعز وأنا الأذل فقاله ، توهموا أن العزة بكثرة الأموال والأتباع ، فبين الله أن العزة والمنعة والقوة لله[٤] .

---

(١) الإيضاح ، جـ٦/ ٨٦ .
(٢) سورة المنافقون : ٨ .
(٣) المطول ، ص ٤٤٤ .
(٤) تفسير القرطبى ، ص ٦٦٠٨ .

يقول بهاء الدين السبكي : لا شك أن عدم ذكر الحكم أبلغ ، لأنه إذا ثبت للمؤمنين أنهم الأعز كان الإخبار بإخراجهم للكفار مستغنى عنه باعتراف الكفار به ، واعترافهم بأن من هذه صفته يخرج وهو معنى بديع(١) .

والثانى : حمل لفظ وقع فى كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله بذكر متعلقه(٢) أو إجابة السائل بغير ما يطلبه ، تنبيهًا له على أن هذا هو الأولى بأن يراد أو يسأل ، كالذى جرى بين ابن القبعثرى والحجاج(٣) إذ قال الحجاج متوعداً : لأحملنك على الأدهم ، يريد القيد الحديدى ، فقال ابن القبعثرى : مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب عليه ، فقال الحجاج : « ويلك إنه لحديد » ، فقال ابن القبعثرى : لأن يكون حديداً خير من أن يكون بليداً ، فقد أبرز ابن القبعثرى وعيد الحجاج فى الموضعين فى معرض الوعد ، حاملاً كلامه على معنى لا يترقبه وبين له بألطف وجه أن من كان على مثاله فى قوة السلطان وبسطة اليد ، جدير به أن يعدلا أن يتوعد .

يقول الشيخ الدسوقى : إن القبعثرى : كان جالسًا فى بستان مع جماعة من إخوانه فى زمن الحصرم ، أى العنب الأخضر ، فذكر بعضهم الحجاج فقال ابن القبعثرى : اللهم سود وجهه واقطع عنقه واسقنى من دمه ، فبلغ ذلك الحجاج ، فقال له : أنت قلت ذلك ؟ ، فقال : نعم .. ولكن أردت العنب الحصرم ولم أردك ، فقال له : لأحملنك على الأدهم .

---

(١) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٤٠٨ .

(٢) المراد بالمتعلق ما يناسب المعنى الذى يحمل اللفظ عليه ، وهذا الضرب يسمى « الأسلوب الحكيم » وسماه الشيخ عبد القاهر مغالطة . انظر عروس الأفراح ، جـ ١ / ٤٧٩ ودلائل الإعجاز ، ص ٩٢ .

(٣) ابن القبعثرى : هو الغضبان بن القبعثرى الشيبانى وكان ممن خرج على الحجاج بن يوسف .

فقال ابن القبعثرى : مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب . فقال له الحجاج ويلك إنه لحديد ، فقال إن يكن حديداً خير من أن يكون بليداً ، فحمل الحديد أيضًا على خلاف مراده ، فإن الحجاج أراد بالحديد المعدن المعروف ، فحمله ابن القبعثرى على ذى الحدة ، فقال الحجاج لأعوانه : احملوه فلما حملوه قال : سبحان الذى سخر لنا هذا ، فقال : اطرحوه على الأرض ، فلما طرحوه قال : منها خلقناكم وفيها نعيدكم ، فصفح عنه الحجاج ، فقد سحر الحجاج بهذا الأسلوب حتى تجاوز عن جريمته وأحسن إليه[١] .

وكقول ابن الحجاج :

قُلْتُ ثَقَّلْتُ إِذْ أَتَيْتُ مِرَارًا ... قَالَ ثَقَّلْتَ كَاهِلِي بِالأَيَادِى

قُلْتُ طَوَّلْتُ قَالَ لاَ بَلْ تَطَوَّلْـ ... ـتَ وَأَبْرَمْتُ قَالَ حَبْلَ وِدَادِى[٢]

فإن صاحب ابن الحجاج يقول له : قد ثقلت عليك وحملتك المشقة بكثرة زياراتى ، فيصرفه الشاعر عن رأيه فى أدب وظرف ، وينقل كلمته من معناها إلى معنى آخر ، ويقول له : إنك ثقلت كاهلى بما أغرقت على من نعم سابغة .

ويقول صاحبه : قد طولت إقامتى عندك وأبرمتك ، أى جعلتك برما ملولا ، فيرد الشاعر عليه مرة أخرى فى أدب ولطف ، وينقل كلامه من معناه إلى معنى آخر ، ويقول له : إنك تطولت وأنعمت على ، وأحكمت وقويت حبل ودادى .

هذا ، والاستشهاد بقوله : « ثقلت وأبرمت » دون قوله : « طولت » فليس من القول بالموجب ، لأنه رد عليه بقوله : « لا » وأثبت شيئًا آخر هو

---

(١) حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص ، جـ ١ / ٤٧٩ .

(٢) الكاهل ما بين الكتفين - والأيادى : النعم - وتطولت بمعنى تفضلت ، وأبرمت بمعنى أسأمت .

التطول . وهو غير التطويل[١] .

ومن إجابة السائل بغير ما يطلبه قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾[٢] .

فالسؤال عن سبب اختلاف القمر ، وكيف أنه يبدو دقيقًا ، ثم يتزايد حتى يكتمل ، ثم يتناقص كذلك ، حتى يعود كما بدأ ، وكان مقتضى الظاهر أن يجاب السائل ببيان هذا السبب ، ولكنه أجيب ببيان الحكمة والغرض من هذا الاختلاف في قوله : « هى مواقيت للناس والحج يريد أن الأهلة معالم للناس بها تتوقت شعائرهم الدينية من حج وصيام وغيرهما تنبيهًا للسائل على أن هذا هو الأجدر والأحرى أن يسأل عنه .

يقول ابن يعقوب : روى أن معاذ بن جبل وربيعة بن غانم الأنصارى قالا يا رسول الله ما بال الهلال يبدو دقيقًا مثل الخيط ، ثم يزيد حتى يمتلىء ويستوى ، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ ، وهذا بظاهره سؤال عن السبب ، وقد أجيبوا ببيان الغرض المآلية فى ذلك فى قوله : قل هى مواقيت للناس والحج ، وهو أن ذلك الاختلاف يتحقق به نهاية كل شهر ، فيتميز كل شهر عما سواه ، ويجتمع من ذلك اثنا عشر شهراً هى مجموع العام ، ويتميز كل عن الاخر باسمه وخاصته ، فيتعين به الوقت للحج والصيام ... وإنما لم يجابوا بذلك لعدم تعلق الغرض به[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾[٤] .

---

(١) انظر الإيضاح ، جـ٦ / ٨٧ وعروس الأفراح ، جـ٤ / ٤٠٩ . (٢) سورة البقرة : ١٨٩ .

(٣) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٤٨٣ . يرى صاحب الإشارات والتنبيهات أنهم لما سألوا عن سبب اختلاف القمر - والسبب كما يكون فاعليًا كذا يكون غائيًا فسببه الفاعلى : اختلاف أوضاعه بحسب قربه أو بعده من الشمس لكون نوره مستفاد منها وسببه الغائى أن يكون مواقيت للناس إذ لو ثبت على شكل واحد فى المرأى لا يصلح لأن يكون مواقيت كباقى الكواكب - وإنما أجابهم بالسبب الغائى إما لعلمه تعالى بمرادهم أو لعلمه بأنهم لم يعلموا السبب الفاعلى فلا تكون الآية من هذا الباب .

(٤) سورة البقرة : ٢١٥ .

فقد سألوا عن بيان جنس ما ينفقون ، أو عن بيان مقداره ، أو عن كليهما فكان مقتضى الظاهر أن يجابوا ببيان المصارف ، تنبيهًا على أن هذا هو الأحق بالسؤال عنه لأن النفقة لا تجزىء ولا يعتد بها إلا أن تقع موقعها ، وتصرف في وجوهها .

يقول صاحب المطول : سألوا عن بيان ما ينفقون ، فأجيبوا ببيان المصارف تنبيهًا على أن المهم هو السؤال عنها ، لأن النفقة لا يعتد بها إلا أن تقع موقعها وكل ما فيه خير صالح للإنفاق(٢) .

وقول الشاعر :

جاءني ابني يومًا وكنت أراه   لي ريحانة ومصدر أنس
قال ما الروح ؟ قلت إنك روحي   قال ما النفس قلت إنك نفسي

فقد سأل الابن عن الروح والنفس ، وهما من الأمور التي حار في تعريفهما علماء النفس ، فصرفه الوالد عن ذلك ببيان منزلته منه ، إشعارًا بأنه ما كان ينبغي له أن يتكلم في ذلك لقصوره عن إدراك ما دق من الأمور .

ومن ذلك أيضًا أنه قيل لتاجر : كم رأس مالك ؟ فقال : إني أمين وثقة الناس بي عظيمة ، وقيل لشيخ هرم : كم سنك ؟ فقال : إني أنعم بالعافية ، ففي السؤال الأول : صرف التاجر سائله عن رأس ماله ببيان ما هو عليه من الأمانة ، وعظم ثقة الناس فيه ، إشعارًا بأن هاتين الصفتين أجلب للربح وأضمن لنجاح التجارة .

وفي السؤال الثاني ترك الشيخ الهرم الإجابة عن السؤال ، وصرف سائله في لين ورفق عن ذلك ، وأخبره أن صحته قوية وموفورة إشعارًا للسائلين بأن السؤال عن الصحة أولى وأجدر .

---

(١) المطول ، ص ١٢٦ . يرى صاحب الإشارات والتنبيهات أن سؤالهم لم يكن عن مطلق الإنفاق بل عن إنفاق المال النافع في الآخرة فالنافع هو فضل المسئول عنه ، فأجاب الله تعالى بملزوم الفضل وهو أن يكون الإنفاق على المذكورين وأراد بالخير المال لقوله تعالى : « وإنه لحب الخير الشديد » (العاديات : الآية ٨) وهذا الرأى أولى بالقبول

الاستطراد

الاستطراد : هو الانتقال من معنى إلى آخر متصل به ، لم يقصد بذكر الأول التوصل إلى ذكر الثانى[١] :

كقول السموءل :

وَإِنَّا لقومٌ لا نَرَى القتلَ سُبَّةً ... إذَا مَا رَأَتْهُ عَامِرٌ وَسَلُولُ

يُقَرِّبُ حُبُّ الموتِ آجالَنا لَنَا ... وتكرهُهُ آجالُهُمْ فَتَطُولُ

فإن سياق القصيدة هو الفخر بقومه ، بيد أن الشاعر انتقل منه إلى هجاء قبيلتى عامر وسلول ، ثم عاد إلى غرضه الأول ، وهو الفخر بقومه .

يقول بهاء الدين السبكى : أراد مدح نفسه فاستطرد لذم قبيلتين[٢] .

وقول زياد الأعجم :

إذَا مَا اتَّقَى اللهَ الفتَى وَأَطَاعَهُ ... فَلَيْسَ بِهِ بَأْسٌ وإنْ كَانَ من جَرْمِ

فالشاعر يريد الوعظ ، فاستطرد إلى ذم قبيلة جرم .

وقوله تعالى : ﴿ يَا بَنِى آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾[٣] . فاستطرد إلى تقوى الله .

قال الزمخشرى : وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب ذكر بدو السوآت ، وخصف الورق عليها إظهار اللمنة فيم خلق من اللباس ، ولما فى العرى وكشف العورة من المهانة والفضيحة ، وإشعاراً بأن التستر باب عظيم من أبواب التقوى[٤] .

---

(١) الإيضاح ، جـ٦ / ٣٠ .

(٢) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص ، جـ٤ / ٣١٥ .

(٣) سورة الأعراف : ٢٦ .　　(٤) الكشاف ، جـ٢ / ٧٤ .

هذا ، ومن الاستطراد - أيضًا - قول جرير يهجو الفرزدق .

لما وضعت على الفرزدق ميسمى   وضغا البعيث جدعت أنف الأخطل[١]

يقول ابن رشيق : هجا واحدًا ، واستطرد باثنين[٢] .

قال الحاتمى : وقد يقع من هذا الاستطراد ما يخرج به من ذم إلى مدح كقول زهير :

إن البخيل ملوم حيث كان ولـ   ـكن الجواد على علاته هرم[٣]

وأنشد فى الخروج بالاستطراد من مدح إلى ذم قول بكر بن النطاح يمدح مالك بن طوق من تغلب .

عرضت عليها ما أرادت من المنى   لترضى فقالت قم فجئنى بكوكب
فقلت لها هذا التعنت كله   كمن يتشهى لحم عنقاء مغرب
سلى كل أمر يستقيم طلابه   ولا تسألى يادر فى كل مذهب
فأقسم لو أصبحت فى عز مالك   وقدرته أعيا بما رمت مطلبى
فتى شقيت أمواله بنواله   كما شقيت قيس بأرماح تغلب

يقول ابن رشيق : فهذا مليح أوله خروج[٤] وآخره استطراد ، وملاحته أن مالكًا من بنى تغلب ، فصار الاستطراد زيادة فى مدحه ، وزعم قوم أنه يمدح مالك بن على الخزاعى[٥] .

وهذا الأسلوب - كما ترى - يدل على براعة الأديب وفطنته ، فى كونه يصيبب هدفين فى شوط واحد .

---

(١) الميسم : المكواه - ضغا استخذى - البعيث : شاعر - جدعت : قطعت .

(٢) العمدة ، جـ ٢ / ٣٢ .   (٣) على علاته : أى على كل حال .

(٤) خروج من غزل إلى مدح ثم استطراد من مدح إلى ذم .

(٥) العمدة ، جـ ٢ / ٢٣ .

العكس والتبديل

العكس والتبديل **: أن يقدم فى الكلام جزء ، ثم يؤخر(١) .**

ويأتى على أنواع :

منها : أن يقع بين أحد طرفى جملة وما أضيف إليه .

كقول بعضهم : عادات السادات سادات العادات ، يريد أن الأمور المعتادة لعلية القوم الذين يتجملون بالأخلاق الرفيعة والمثل العليا أفضل وأشرف من الأمور المعتادة لغيرهم من الناس .

فالعادات أحد طرفى الكلام ، والسادات مضاف إليه ذلك الطرف ، وقد وقع العكس بينهما بأن قدم أولاً العادات على السادات ، ثم السادات على العادات .

يقول ابن يعقوب : قد وقع العكس بينهما ، بأن قدم منهما ما كان أولاً مؤخراً ، وآخر ما كان مقدمًا(٢) .

ومن ذلك أيضًا قولك عادات الصالحات صالحات العادات ، وقولك كلام الإمام إمام الكلام .

ومنها : أن يقع العكس بين متعلقى فعلين فى جملتين .

كقوله تعالى : ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾(٣) .

فالحى والميت متعلقان بيخرج ، وقد قدم أولاً الحى على الميت وثانيًا الميت على الحى .

---

(١) الإيضاح ، جـ٦ / ٣٤ .

(٢) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ، جـ٤ / ٣١٩ .

(٣) سورة الأنعام : ٩٥ .

وقوله تعالى : ﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾(١) .

فالليل والنهار متعلقان بتولج ، وقدم أولاً الليل على النهار ، وثانيًا النهار على الليل .

يقول ابن يعقوب فى قوله تعالى : « وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى » فالفعل الذى هو يخرج هو هو فى الجملتين ، وقد تعلق فى الأولى بالحى الخارج من الميت ، مثل الدجاج الخارج من البيضة ، أو الإنسان الخارج من النطفة وتعلق فى الثانية بالميت الخارج من الحى مثل البيضة الخارجة من الدجاجة وقد تقدم فى أحد المتعلقين ما تأخر فى الآخر ، والعكس إذ قدم الحى على الميت فى المتعلق الأول ، وقدم ثانيًا الميت على الحى فى المتعلق الثانى (٢) .

وكقول الحماسى :

فَرَدَّ شُعُورَهُنَّ السُودَ بِيضًا وَرَدَّ وُجُوهَهُنَّ البِيضَ سُودَا(٣)

فقد قدم الشاعر السود على البيض أولاً ثم قدم البيض على السود ثانيًا ومنها أن يقع بين لفظين فى طرفى جملتين ، كقوله تعالى : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾(٥) .

---

(١) سورة آل عمران : ٢٧ .
(٢) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ، جـ٤ / ٣٢٠ .
(٣) الضمير فى شعورهن ووجوهن لنسوة آل حرب .
(٤) سورة البقرة : ١٨٧ .
(٥) سورة الممتحنة : ١٠ ، لا هن حل لهم حالاً - ولا أزواجهم الكفار يحلون لهم فى المستقبل بأى شكل ماداموا مشركين وهن مؤمنات .

فقد قدم أولاً « هن » على « هم » وثانياً « هم » على « هن » وهما لفظان وقع أحدهما في جانب المسند إليه والآخر في جانب المسند .

يقول الشيخ الدسوقي : هاتان جملتان في كل منهما ضميران أحدهما ضمير الذكور ، والآخر ضمير الإناث ، ففي الجملة الأولى وجد ما للإناث منهما في الطرف الأول الذي هو المسند إليه ، ووجد ما للذكور في الطرف الثاني الذي هو المسند من تلك الجملة ، وعكس ذلك في الجملة الثانية ، فوجد ما للذكور في الطرف الأول منها ، وما للإناث في الطرف الثاني منها ، فصدق أن العكس وقع بين لفظين كائنين في طرفي جملتين(١) .

وقوله تعالى : ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ ﴾(٢) . ففي الجملة الأولى قدم « ما عليك » على « من حسابهم من شيء » وفي الجملة الثانية قدم « من حسابك وأخر عليهم من شيء » .

وقول الحسن البصري « إن من خوفك حتى تلقى الأمن ، خير ممن أمنك حتى تلقى الخوف » فقد قدم الخوف على الأمن في الجملة الأولى ، وفي الجملة الثانية قدم الأمن على الخوف .

وقول المتنبي :

لَا مَجْدَ في الدنيا لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ ... ولا مَالَ في الدنيا لمن قَلَّ مَجْدُهُ

يريد : أن صاحب المجد بلا مال متوجه عليه زوال مجده لعدم المال ، وأن صاحب المال إذا لم يطلب المجد بماله فكأنه لا مال له لمساواته الفقير ، وهذا من قول الحكيم : أعظم محنة من قل ماله وعظم مجده ، ولا مال لمن كثر ماله وقل مجده(٣) .

---

(١) حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٣٢٠ .
(٢) سورة الأنعام : ٥٢ .
(٣) ديوان المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري ، جـ ٢ / ٢٣ .

- وكما ترى - فقد قدم الشاعر « المجد » على « المال » في الشطر الأول وفي الشطر الثاني قدم « المال » على « المجد » .

وقول الشاعر[١] :

إنّ الليالي للأنام مناهلٌ ... تُطْوَى وتُنْشَرُ دونها الأعمارُ
فَقِصارُهُنّ مع الهمومِ طويلةٌ ... وطوالُهُنّ مع السُّرُورِ قِصارُ[٢]

ففي البيت الثاني قدم الشاعر : « فقصارهن » على « طويلة » في الشطر الأول وفي الشطر الثاني قدم « طوالهن » على « قصار » .

وهذا الأسلوب يجذب الانتباه حين تتكرر العبارة وتفيد معنى جديداً إلى جانب أنه يجعل المعنى تارة مستحقًا لتقديم لفظه وتارة مستحقًا لتأخيره[٣] .

اللف والنشر

اللف والنشر : أن يذكر متعدد على جهة التفصيل أو الإجمال ، ثم يذكر ما لكل واحد من أفراده من غير تعيين ، اعتماداً على تصرف السامع في تمييز ما لكل واحد منهما ورده إلى ما هو له .

فالأول : ذكر متعدد على جهة التفصيل ، ثم ما لكل واحد من أفراده .

وهو إما أن يكون على ترتيب اللف ، كقوله تعالى : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾[٤] .

---

(١) عتاب بن ورقاء ، يريد أن الليالي تستمد منها الأعمار فتطول وتقصر حسب الأفراح والأتراح.
(٢) الأنام : الخلق ، والمناهل : الموارد - تطوى وتنشر : بمعنى تقصر وتطول : تكون طويلة مع الهموم والأحزان ، وتكون قصيرة مع السرور والأفراح .
(٣) انظر حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٣١٨ .
(٤) سورة القصص : ٧٣ ، اللف : مأخوذ من لف الثوب إذا جمعه ، ونشر الثياب إذا فرقها .

فقد جمع بين الليل والنهار على التفصيل ، ثم ذكر ما لليل وهو السكون فيه وما للنهار وهو الابتغاء من فضله على الترتيب .

يقول سعد الدين الفتازانى : فإن قيل عدم التعيين فى الآية ممنوع ، فإن المجرور من « فيه » عائد إلى الليل لا محالة ، قلنا نعم ، ولكن باعتبار احتمال أن يعود إلى كل من الليل والنهار يتحقق عدم التعيين[١] .

ويقول أبو هلال العسكرى مشيداً بجمال النظم القرآنى « فجعل السكون لليل وابتغاء الفضل للنهار ، فهو فى غاية الحسن »[٢] .

كما يقول المبرد : والعرب تلف الخبرين المختلفين ، ثم ترمى بتفسيرهما جملة ثقة بأن السامع يرد إلى كل خبره ، وقال الله عز وجل : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾ .. علماً بأن المخاطبين يعلمون وقت السكون ووقت الاكتساب[٣] .

وكقول ابن الرومى :

آراؤكُمْ وَوُجُوهكُمْ وَسُيُوفُكُمْ ... فِي الحادثاتِ إِذَا دَجَوْنَ نُجُومُ

فِيها معالمُ للهدَى ، ومصابحٌ ... تجلُو الدُّجَى والأخرياتُ رجومُ[٤]

فالمعالم ترجع إلى الآراء والمصابح إلى الوجوه ، والرجوم إلى السيوف .

وقيل إن هذا ليس من اللف والنشر ، لأنه قال - والأخريات - أى السيوف بالتعيين - وقد يجاب بأن التعيين هنا فى بعضها دون بعض[٥] .

---

(١) مختصر السعد ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٣٣٠ .
(٢) الصناعتين ، ص ٣٥٥ .
(٣) الكامل ، للمبرد ، جـ ١ / ١٢٧ ، جـ ٣ / ٣٢ .
(٤) دجون : بمعنى أظلمن ، وضمير دجون للحادثات ، والمعالم ، وهو ما يستدل به على الطريق ، والمصابح : جمع مصباح ، والدجى : جمع دجية وهى الظلمة والرجوم : الشهب ، تجلو : تكشف .
(٥) انظر مواهب الفتاح ، جـ ٤ / ٣٣٠ ، وبغية الإيضاح ، جـ ٤ / ٣٥ .

وإما أن يكون النشر على خلاف ترتيب اللف كقول الفرزدق :

لقدْ خنتَ قومًا لو لجأتَ إليهمُ ... طريدَ دمٍ أو حاملاً ثِقْلَ مَغْرَمِ
لألفيتَ فيهم مُعطِيًا أو مُطاعِنًا ... وراءكَ شَزْرًا بالوشيجِ المُقَوَّمِ(١)

فإن « معطيا » يرجع إلى كونه حاملاً ثقل مغرم ، و « مطاعنا » يرجع إلى كونه طريد دم على غير ترتيب اللف .

يقول أبو هلال : ففسر قوله : « حاملاً ثقل مغرم » بقوله : « تلفى فيهم من يعطيك » وقوله : « طريد دم » بقوله : « تلفى فيهم من يطاعن دونك »(٢) .

كما يعلق عليه ابن رشيق بأنه جيد فى معناه(٣) .

والثانى : ذكر متعدد على جهة الإجمال ، ثم ما لكل واحد من أفراده .

كقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ﴾(٤) .

فإن الضمير فى قالوا لأهل الكتاب من اليهود والنصارى ، والمعنى : وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا ، وقالت النصارى : لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى . وكما ترى فاللف فى واو الجماعة ، والنشر فى قوله : إلا من كان هودًا أو نصارى .

يقول صاحب الإيضاح : فقد لف بين القولين « وقالت اليهود ، وقالت

---

(١) الخطاب فى قوله : لقد خنت : لهبيرة بن ضمضم وهو يهجوه لقتله القعقاع بن عوف بن زراه - وقوله طريد دم - كناية عن كونه قاتلاً - والثقل : الحمل الثقيل - المغرم : ما يحمل فوق الطاقة - ألفيت : وجدت - الشزر : بمعنى الطعن - الوشيج : شجر الرماح - المقوم : المثقف .

(٢) الصناعتين ، ص ٣٥٦ .

(٣) العمدة ، جـ ٢ / ٢٩ .

(٤) سورة البقرة : ١١١ .

النصارى » ثقة بأن السامع يرد إلى كل فريق قوله ، وأمنا من الإلباس لما علم من التعادى بين الفريقين ، وتضليل كل واحد لصاحبه[١] .

هذا . وأسلوب اللف والنشر من شأنه أنه يهىء النفوس ، ويثير الانتباه لتلقى الفائدة ، فإذا ذكرت ، تم الغرض واستقام المراد .

الاستتباع

الاستتباع : هو المدح بشىء على وجه يستتبع المدح بشىء آخر .

كقول المتنبى يمدح سيف الدولة :

نَهَبْتَ من الأعمارِ مَا لو حويتهُ ... لَهُنِّئَتِ الدنيا بأنكَ خَالِدُ

يريد : أنك أخذت على وجه القهر من أعمار الأعداء ما لو ضممتها إلى عمرك لكنت خالداً لآخر الدنيا ، وفى ذلك صلاح لها ، وسعادة لأهلها .

يقول الشيخ الدسوقى : إن الشاعر لما مدحه بنهاية الشجاعة ، وجعل خلوده تهنأ به الدنيا ، كان مدحه بنهاية الشجاعة على الوجه المذكور .. مستتبعًا ومستلزمًا لمدحه بكونه سببًا لصلاح الدنيا وحسن نظامها ، لأن المراد بتهنئة الدنيا تهنئة أهلها ، فلو لم يكن لهذا الممدوح فائدة لأهل الدنيا ما هنئوا ببقائه إذ لا تهنئة لأحد بشىء لا فائدة له فيه[٢] .

وقد أشاد بهذا الأسلوب كثير من العلماء والنقاد .

يقول على بن عيسى الربعى : المدح فى هذا من وجوه : ***أحدها*** : أنه وصفه بنهب الأعمار لا الأموال ، ***والثانى*** : أنه كثر قتلاه بحيث لو ورث

---

(١) الإيضاح ، جـ٦/ ٤٥ .

(٢) حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٣٩٧ .

أعمارهم لخلد في الدنيا ، ***والثالث:*** أنه جعل خلوده صلاحًا لأهل الدنيا بقوله : « لهنئت الدنيا » ، ***والرابع:*** أن قتلاه لم يكن ظالمًا فى قتلهم ، لأنه لم يقصد بذلك إلا صلاح الدنيا وأهلها فهم مسرورون ببقائه ، فلذلك قال : لهنئت الدنيا ، أى أهل الدنيا .

كما يقول الواحدى : هذا من أحسن ما مدح به ملك .

وأثنى عليه أبو الفتح بقوله : لو لم يمدحه إلا بهذا البيت لكان قد أبقى له ما لا يمحوه الزمان[١] . ففيه إبداع وإتقان فى مدحه بصفة تستلزم المدح بصفة أخرى .

---

(١) ديوان المتنبى بشرح أبى القاء العكبرى ، جـ ١ / ٢٧٧ .

الإرصـــاد

الإرصـــاد : هو أن يجعل قبل العجز من الفقرة أو البيت ما يدل على العجز إذا عرف الروى[١] .

كقوله تعالى : ﴿ وما كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ولَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[٢] .

والإرصاد فى الآية الكريمة فى قوله « ليظلمهم » لأنه يدل على أن مادة العجز من مادة الظلم .

يقول الشيخ الدسوقى : أى فيظلمهم إرصاد ، لأنه يدل على أن مادة العجز من مادة الظلم ، إذ لا معنى لقولنا مثلاً ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم ينفعون ، أو يمنعون من الهلاك ، أو نحو ذلك ، ويعين كون المادة من الظلم مختومة بنون بعد واو معرفة الروى الكائن فيما قبل الآية وهو قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[٤] .

والإرصاد فى قوله « فاختلفوا » .

يقول أبو هلال العسكرى : فإذا وقفت على قوله تعالى : « فيما فيه » عرف السامع أن بعده « يختلفون » لما تقدم من الدلالة عليه[٥] .

---

(١) الإيضاح ، جـ٦ / ٢٤ .
(٢) سورة العنكبوت : ٤٠ .
(٣) سورة النحل : ٣٢ .
(٤) سورة يونس : ١٩ .
(٥) الصناعتين ، ص ٣٩٧ ، والمثل السائر ، ص ٣٠٧ .

وقول زهير بن أبى سلمى :

سئمتُ تكاليفَ الحياةِ وَمَنْ يَعِشْ ثمانين حَوْلاً لاَ أبالكَ يَسْأَمِ[١]

والإرصاد فى قوله سئمت .

يقول ابن سنان الخفاجى : لأنه لما قال فى أول البيت « سئمت » وقال ومن يعش ثمانين حولاً - اقتضى أن يكون فى آخره - يسأم[٢] .

وقول عمرو بن معد يكرب :

إذا لم تَسْتَطِعْ شيئًا فدعْهُ وَجَاوِزْهُ إلى ما تَسْتَطِيعُ

والإرصاد فى قوله : « إذا لم تستطع » .

ويقول ابن يعقوب المغربى : « فإن قوله » « إذا لم تستطع شيئًا فدعه وجاوزه إلى ما » يدل على أن مادة القافية من معنى الاستطاعة المثبتة ، إذ لا يصح أن يقال إذا لم تستطع شيئًا فدعه وجاوزه إلى ما لا تستطيع ، أو جاوزه إلى كل ما تشتهى أو إلى فعل ما تعرض لك إرادته ، ولو كنت لا تستطيعه ، أو نحو ذلك ، والذوق شاهد صدق فى ذلك ، والروى يدل على أن تلك المادة تختم بالعين قبلها ياء وليس ذلك إلا لفظ تستطيع ، فلا يصح وجاوزه إلى ما تطيق لعدم وجود الروى فيه ، وتعين خصوص الصيغة هنا من كل وجه لعدم وجدان غيرها ، وعدم صلاحية سواها[٣] .

وقول البحترى :

أبكيكما دمعًا ولو أنّى علَى قدرِ الجوَى أبكِى بكيتكما دمَا[٤]

---

(١) التكاليف : جمع تكليف وهو الأمر الشاق - لا أبالك - جملة دعائية معترضة بين الشرط والجواب.

(٢) سر الفصاحة ، ص ١٥١ .

(٣) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٣٠٨ .

(٤) الجوى : الحرقة من عشق أو حزن .

والإرصاد في قوله « أبكيكما دما » لأنه لا يبقى بعد بكاء الدمع عندهم إلا بكاء الدم .

وقول البحتري أيضًا :

أَحَلَّتْ دَمِي مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ وَحَرَّمَتْ ... بِلَا سَبَبٍ يَوْمَ اللقَاءِ كَلَامِي
فَلَيْسَ الذِي حَلَّلْتِهِ بِمُحَلَّلٍ ... وَلَيسَ الذِي حرمتِهِ بِحَرَامِ

والإرصاد في قوله « حرمته » .

ويعلق أبو هلال العسكري على قول البحتري بأنه من عجيب هذا الباب وذلك أن من سمع النصف الأول عرف الأخير بكماله(١) .

ويقول ابن الأثير معقبًا أيضًا : فليس يذهب على السامع وقد عرف البيت الأول وصدر البيت الثاني أن عجزه هو ما قاله البحتري :

وأثنى ابن الأثير على هذا اللون من البديع بقوله : « وذلك من محمود الصفة فإن خير الكلام ما دل بعضه على بعض ، وفي الافتخار بذلك .

يقول ابن نباته السعدي :

خُذْهَا إذَا أُنْشِدَتْ في القومِ من طَرَبٍ ... صُدُورُهَا عُرِفَتْ مِنْهَا قَوَافِيهَا
يَنْسَى لَهَا الراكبُ العجلانُ حَاجَتَهُ ... وَيُصْبِحُ الحاسدُ الغضبانُ يَطْوِيهَا(١)

كما يشيد به أبو هلال العسكري إذ يقول : أن يكون مبدأ الكلام ينبيء عن مقطعه ، وأوله يخبر بآخره ، وصدره يشهد بعجزه ، حتى لو سمعت شعراً ، وعرفت رويه ، ثم سمعت صدر بيت منه ، وقفت على عجزه ، قبل بلوغ السماع إليه ، وخير الشعر ما تسابق صدور إعجازه ،

---

(١) الصناعتين ، ص ٣٩٨ .
(٢) المثل السائر ، ص ٣٠٦ .

ومعانيه ألفاظه مسابقة ، فتراه سلسًا في النظام ، جاريًا على اللسان ، لا يتنافى ولا يتنافر ، كأنه سبيكة مفرغة ، أو وشي منمنم . أو عقد منظم من جوهر متشاكل ، متمكن القوافي غير قلقة ، وثابتة غير مرجة[١] ، ألفاظه متطابقة ، وقوافيه متوافقة ومعانيه متعادلة ، كل شيء منه موضوع في موضعه ، وواقع في موقعه فإذا نقص بناؤه ، وحل نظامه ، وجعل نثرًا لم يذهب حسنه ، ولم تبطل جودته في معناه ولفظه ، فيصلح نقصه لبناء مستأنف وجوهره لنظام مستقبل[٢] .

التجريد

هو أن ينتزع من أمر ذي صفة أمر آخر مثله في تلك الصفة مبالغة في كمالها فيه[٣] .

ويأتي على أنواع :

١ - أن يكون بدخول « من » على المنتزع منه كقولك : لي من محمد صديق حميم أي بلغ من الصداقة حدًا ، يصح معه أن ينتزع منه شخص آخر مثله في الصفة .

يقول ابن يعقوب : أي صديق قريب لي كأنه نفسي ، بحيث يهتم بأمري كما أهتم أنا به وإنما يقال هكذا إذا قصد إظهار المبالغة في صداقته ، حتى صار بحيث يفيض عنه صديق آخر[٤] .

---

(١) مرجة : مضطربة .
(٢) الصناعتين ، ص ٣٩٧ .
(٣) الإيضاح ، جـ٦ / ٥٤ .
(٤) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ، جـ٤ / ٣٤٨ .

٢ - أن يكون بدخول الباء على المنتزع منه مثل : لئن سألت محمداً لتسألن به البحر فقد بالغ فى اتصافه بالسماحة والجود حتى كأنه انتزع منه بحراً .

يقول ابن يعقوب المغربى : فقائل هذا القول بالغ فى اتصاف فلان بالسماحة ، حتى صار بحيث ينتزع منه كريم آخر يسمى بحراً مثله فى الكرم (١).

والباء يجوز أن تكون للمصاحبة أو للسببية .

يقول الشيخ الدسوقى : يصح أن تكون الباء للمصاحبة ، أى لتسألن البحر معه ، أى شخصًا كريمًا كالبحر مصاحبًا له ، ويصح جعلها للسببية ، أى لتسألن بسببه البحر ، أى شخصًا آخر كالبحر ، بمعنى أنه سبب لوجود بحر آخر مجرد امنه مماثلاً له فى كونه يسأل(٢) .

٣ - أن يكون بدخول « باء المصاحبة » على المنتزع كقول الشاعر :

وَشَوْهَاءَ تَعْدُو بِى إِلَى صَارِخِ الْوَغَى ... بِمُسْتَلْئِمٍ مِثْلِ الفنيقِ المرحَّلِ(٣)

يريد : ورب فرس هذه صفتها تعدو بى لنجدة المستغيث فى الحرب ، ومعى من نفسى شخص آخر مستعد للحرب .

فقد بالغ الشاعر فى اتصافه بالاستعداد للحرب حتى انتزع وجرد من نفسه مستعداً آخر لابسًا درعًا .

(١) المرجع السابق ، ص ٣٥٠ .

(٢) حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٣٥٠ .

(٣) شوهاء : فرس قبيح المنظر لسعة أشداقها ، أو لما أصابها من شدائد الحرب - تعدو : تسرع صارخ الوغى : أى مستغيث فى الحرب - مستلئم لابس لأمه وهى الدرع ، والفنيق الفحل المكرم من الإبل الذى لا يؤذى ولا يركب لكرامته على أهله - والمرحل : المرسل غير المربوط .

يقول ابن يعقوب : فقد ظهر أنه انتزع من نفسه مستلئما آخر أى مستعداً للحرب مبالغة فى استعداده للحرب ولزومه لبس اللامة له ، حتى صار بحيث يخرج منه مستعد آخر يصاحبه ، وقد أدخل الباء على المنتزع دون المنتزع منه(١) .

٤ - أن يكون بدخول « فى » على المنتزع منه . كقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾(٢) .

فجهنم هى دار الخلد ، انتزعت منها دار أخرى مثلها ، وجعلت معدة فى جهنم لأجل الكفار تهويلا لأمرها ، ومبالغة فى شدتها .

يقول ابن يعقوب : بولغ فى اتصافها بكونها داراً ذات عذاب مخلد ، حتى صارت بحيث تفيض وتصدر عنها داراً أخرى ، هى مثلها فى الاتصاف بكونها داراً ذات عذاب مخلد ، وفى هنا للظرفية ، فكأنه قيل إن ثم دارا أخرى ، كانت فى هذه الدار التى هى دارهم الملازمة لهم ، التى لا ينفك عنهم عذابها ، ولا يضعف مع طول الخلود ، ولا تفنى بتصرم الأحقاب . وكل ذلك للمبالغة فى اتصافها بالشدة ، وللتهويل بأمرها فى العذاب ، وعدم انقطاعه بطول المدة ، فكأنه قيل ما أعظم تلك الدار فى لزومها وكونها لا تضعف بالخلود حتى إنها تفيض بدار أخرى مثلها فى اللزوم وقوة العذاب بلا ضعف مع التخليد ، وقانا الله برحمته من هولها وعذابها(٣) .

٥ - أن يكون بدون توسط حرف كقول قتادة بن مسلمة الحنفى :

---

(١) مواهب الفتاح : ضمن شروح اللخيص ، جـ ٤ / ٣٥١

(٢) فصلت ، ص ٢٨ .

(٣) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٣٥٢ .

فَلَئِنْ بَقِيتُ لأرحلنّ بغزوةٍ تحوى الغنائمَ أو يموتَ كريمُ(١)

فقد أراد الشاعر بالكريم نفسه ، وقد انتزع من نفسه كريما للمبالغة في كرمه .

يقول ابن يعقوب : فقد انتزع من نفسه بقرينة المدح بالكرم كريمًا مبالغة في وصفها بالكرم ، لدلالة الانتزاع ، على أنه بلغ في الكرم إلى حيث يفيض ، ويخرج عنه كريم آخر مثله في الكرم(٢) .

٦ - أن يكون بطريق الكناية كقول الأعشى :

يَا خَيْرَ مَنْ يَرْكَبُ المطِيّ ولاَ يشربُ كأسًا بِكَفّ مَنْ بَخِلا(٣)

فقد انتزع الأعشى من المخاطب وهو الممدوح ، جوادًا يشرب بكفه على سبيل الكناية لأنه إذا نفى عنه الشرب بكف البخيل ، فقد أثبت له الشرب بكف الكريم ، ومعلوم أنه يشرب بكف نفسه ، فيكون المراد بالكريم نفسه .

يقول الشيخ الدسوقي : الشأن أن الإنسان يشرب بكف نفسه ، فانتزع الشاعر من ذلك الممدوح شخصًا كريمًا يشرب من كفه الممدوح مبالغة في كرمه ، فصار الأصل ويشرب بكف كريم ، ثم عبر عن ذلك المعنى بالكناية(٤) .

٧ - أن يكون بمخاطبة الإنسان نفسه ، فينتزع الإنسان من نفسه شخصًا آخر مثله في نفس الصفة ويخاطبه ، كقول الأعشى - أيضًا - :

---

(١) تحوى : تجمع ، ويعنى بالكريم نفسه ، و « أو » بمعنى إلا .
(٢) مواهب الفتاح ، ضمن شروح التلخيص ، جـ٤ / ٣٥٢ .
(٣) المطى : جمع مطية وهى المركوب من الإبل .
(٤) حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص ، جـ٤ / ٣٥٤ .

وَدِّعْ هريرةَ إن الركبَ مرتحلُ   وهل تُطيقُ وداعًا أيها الرجلُ(١)

فقد جرد الشاعر من نفسه شخصًا آخر وخاطبه في قوله : ودع ، وتطيق وأيها الرجل .

وقول المتنبى :

لا خَيْلَ عندَكَ تُهْديها ولاَ مالُ   فَلْيُسْعِدِ النطقُ إن لمْ يُسعدِ الحالُ(٢)

يخاطب نفسه بقوله : ليس عندك من الخيل والمال ما تهديه إلى الممدوح ، تجازيه به على إحسانه إليك ، فإذا لم يكن عندك ما تجزى به ، فامدحه وجازه بالثناء عليه .

وكما ترى - فقد انتزع الشاعر من نفسه شخصًا آخر مثله في فقد الخيل والمال وخاطبه في قوله « عندك » .

يقول ابن يعقوب : هذا الكلام إنما سيق لبيان فقره ، وإنه عديم الخيل والمال أى لاغناء عنده يهدى منه ليكافئ بذلك إحسان الممدوح ، فجرد من نفسه في هذه الصفة التى هى كونه لا خيل عنده ، ولا غنى يهدى منه مخاطبه .

فإن قيل أين المبالغة في التجريد بخطاب الإنسان لنفسه قلت : كأنه يجعل نفسه، لكمال الإدراك كأن فيها نفسًا أخرى(٣) .

وهذا اللون يفيد المبالغة ، ويمكن القائل من التفنن في أنواع العبارة ، إلى جانب تمكين المتكلم من وصف نفسه بما يريد دون حرج ، لأنه يكون مخاطبًا غيره في الظاهر .

---

(١) الركب : الراكبون ، العشرة فما فوق والجمع أركب وركوب ، والمرتحل : المسافر .

(٢) البيت من قصيدة يمدح بها فاتكاحين أهداه ألف دينار بمصر ، والمراد بالنطق : نطقه بالشعر في مدحه ، وبالحال : حاله من فقد الخيل والمال .

(٣) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٣٥٦ .

التوجيـــه

التوجيه : إيراد الكلام محتملاً لوجهين مختلفين كقول بشار بن برد لأعور يسمى عمرا :

خَـــاطَ لي عَـمْـرٌ وقِـبَـــاءْ ليتَ عــينيــه سَــوَاءْ[1]
فـــاسألِ الناسَ جـمـيـعًـــا أمـــــديحٌ أم هِـجَـــاءْ

فقد أورد الشاعر كلامًا يحتمل أن يكون دعاء بصحة العوراء فيكون مدحًا ، أو بتعوير الصحيحة فيكون هجاء .

يقول الشيخ الدسوقى : روى أن بشارًا أعطى لخياط أعور اسمه عمرو ثوبًا ليخيطه له ، فقال له الخياط : لأخيطنه بحيث لا يعلم أقباء هو أم غيره ، فقال له بشار لئن فعلت ذلك لأقولن فيك شعرًا لا يدرى أهجاء أم غيره .

فلما خاط الخياط ذلك الثوب ، قال بشار ما ذكر من البيتين[2] .

وكقوله تعالى : ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ﴾[3] .

يقول الزمخشرى : « غير مسمع » حال من المخاطب ، أى اسمع وأنت غير مسمع ،وهو قول ذو وجهين :

يحتمل الذم : أى اسمع منا مدعوا عليك بلا سمعت – لأنه لو أجيبت دعوتهم عليه لم يسمع فكان أصم غير مسمع – قالوا ذلك اتكالا على أن قولهم « لا سمعت » دعوة مستجابة .

أو اسمع غير مجاب ما تدعو إليه ، ومعناه غير مسمع جوابًا يوافقك ، فكأنك لم تسمع شيئًا .

أو اسمع غير مسمع كلامًا ترضاه فسمعك عنه ناب ويجوز على هذا أن يكون « غير مسمع » مفعول « اسمع » أى اسمع كلامًا غير مسمع إياك لأن أذنك لا تعيه نبوا عنه .

---

(١) القباء : ثوب يلبس فوق الثياب .

(٢) حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٤٠١ .

(٣) سورة النساء : ٤٦ .

ويحتمل المدح : أى اسمع غير مسمع مكروهًا ، من قولك : اسمع فلان فلانًا إذا سبه .

وكذلك قولهم « راعنا » يحتمل وجهين :

يحتمل راعنا نكلمك : أى ارقبنا وانتظرنا .

ويحتمل شبه كلمة عبرانية أو سريانية ، كانوا يتسابون بها ، وهى - راعنا - فكانوا سخرية بالدين ، وهزؤا برسول الله - ﷺ - يكلمونه بكلام محتمل ، ينوون به الشتيمة والإهانة ، ويظهرون به التوقير والإكرام[١] .

كما رأيت - فإن « غير مسمع » و « راعنا » تحتمل الذم والمدح .

ومن التوجيه - أيضًا - ما حكى أن بعض الشعراء[٢] هنأ الحسن ابن سهل بصهره المأمون حين بنى بابنته « بوران » فيمن هنأه ، فأثاب الناس كلهم وحرمه ، فلقيه يومًا وقال : والله لئن دمت على حرمانى ، لأعملن فيك شعرًا ، لا يعلم أحد ، مدحتك فيه أم هجوتك ، فضحك الحسن وقال : والله لا أعطيك شيئًا حتى تعمل ذلك ، فقال :

بارك الله للحسن ولبوران فى الختن[٣]

يا إمام الهدى ظفرت ولكن ببنت من

فلم يدرك أحد قوله « ببنت من » فى العظمة والجلالة ، أم فى السفالة والدناءة فاستحسن الحسن ذلك منه[٤] .

وهذا اللون يظهر براعة الأديب فى اختيار الأساليب ، وأسلوب التوجيه وما فيه من ابهام يجهل صاحبه فى مأمن من العقاب .

---

(١) الكشاف ، جـ١ / ٥٣٠ - ليا بالسنتهم : أى فتلا بها وتحريفًا ، فيفتلون بالسنتهم ما يضمرونه من الشتم إلى ما يظهرونه من التوقير نفاقًا ، أو يلوون لسانهم بـ« راعنا » حتى تشبه « راعنا » العربية .

(٢) هو محمد بن حازم الباهلى من شعراء الدولة العباسية .

(٣) الختن : كل من كان من جهة المرأة كأبيها وكذلك زوج البنت أو زوج الأخت ، وفى الحديث «على ختن رسول الله ﷺ» ، المعجم الوسيط مادة « ختن » .

(٤) بديع القرآن ، لابن الأصبع ، ص ٣٠٨ .

الإطــــراد

الإطراد : أن يأتى بأسماء الممدوح أو غيره ، وآبائه على ترتيب الولادة من غير تكلف فى السبك ، حتى تكون الأسماء فى تحدرها كالماء الجارى فى اطراده وسهولة انسجامه كقول ربيعة يرثى ذؤابًا ابنه :

إنْ يَقْتلُوكَ فَقَدْ ثَللْتَ عُرُوشَهُمْ ... بِعُتَيْبَةَ بنِ الحارثِ بنِ شِهَابِ[١]

يريد : إن تبجحوا بقتلك ، وصاروا يفخرون به ، فقد أثرت فى عزهم وهدمت أساس مجدهم بقتلك رئيسهم عتيبة بن الحارث .

وكقول دريد بن الصمة :

قَتَلْنَا بِعَبْدِ اللهِ خَيْرَ لِدَاتِهِ ... ذُؤَابَ بنَ أسماءَ بنِ زيدِ بنِ قاربِ[٢]

يقول ابن رشيق : لولا القافية لبلغ به آدم[٣] .

ومنه قول المصطفى * : الكريم بن الكريم بن الكريم - يوسف بن يعقوب بن إسحق بن ابراهيم ، وكما ترى فإنه قد تتابعت فيه الإضافات وسلم من الثقل والاستكراه ، وجاء فى غاية الحسن والسلاسة[٤] .

وهذا اللون من حسن الصنعة ، فالأسماء إذا اطردت دلت على قوة طبع الشاعر ، وتتابع الإضافات إذا سلم من الاستكراه ملح ولطف .

---

(١) الثل : الهدم ، يقال : ثل الله عروشهم ، أى هدم ملكهم ، والعرش يطلق على العز .

(٢) عبد الله أخو دريد : ولداته : أترابه الذين ولدوا معه جمع لدة ، والمقتول : ذؤاب وتعرضه لشرفه بقوله : خير لداته .

(٣) العمدة ، جـ ٢ / ٦٧ - يريد إن البيت لابد أن ينتهى بقافيته ولولا هذا لوصل بنسبه إلى هذا الحد لسهولة سبكه .

(٤) انظر حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٤١١ .

التـــورية

التورية :[١] وتسمى الإيهام[٢] هي أن يطلق لفظ له معنيان :

قريب وبعيد ، ويُراد البعيد منهما[٣] .

والتورية قسمان : مجردة ، ومرشحة .

فالمجردة : هي التى لم تقترن بشىء يلائم المعنى القريب .

كقوله ﷺ فى خروجه إلى بدر ، وقد قيل له : ممن أنتم ؟ فلم يرد أن يعلم السائل فقال « من ماء » ، وأراد « إنا مخلوقون من ماء » فورى عنه بقبيلة من العرب يقال لها : ماء .

وقول أبى بكر الصديق رضى الله عنه وقد سئل عن النبى ﷺ حين الهجرة ، فقيل له : من هذا ؟ فقال « هاد يهدينى » أراد الصديق هاديًا يهدينى إلى الإسلام ، لكنه ورى عنه بهادى الطريق ، وهو الدليل فى السفر .

وقول الشاعر :

قد استوى بشرٌ على العراقِ ... من غير سيفٍ ودمٍ مهْرَاقِ

يريد أنه استولى على العراق بدون قتال وإسالة دماء .

---

(١) منقولة من مصدر ورى الخبر أى ستره وأظهر غيره ، لأن فيها ستر المعنى البعيد بالقريب .

(٢) لأن المتبادر إلى الذهن عند إطلاق اللفظ ، معناه القريب ، فيتوهم السامع لأول وهلة أن المتكلم يريده ، وهو ليس المراد .

(٣) المراد بالمعنى القريب ما كانت دلالة اللفظ عليه ظاهرة ، لكثرة استعماله فيه ، والبعيد ما كانت دلالة اللفظ عليه خفية لقلة استعمالها فيه ، فكأن المعنى القريب ساتر للبعيد ، والبعيد خلفه .

والتورية في لفظ « استوى » والمعنى القريب له : الاستقرار في مكان ولم يذكر ما يلائمه ، فهي تورية مجردة ، والمعنى البعيد هو : استولى على العراق واحتله وهو المراد .

وسميت « مجردة » لتجردها عما يرشح خفاءها ، وهو ذكر ما يلائم المعنى القريب .

والمرشحة : هي التي ذكر فيها شيء يلائم المعنى القريب الموري به عن البعيد المراد ، سواء ذكر الملائم قبلها أو بعدها .

كقول سراج الدين الوراق :

أصون أديم وجهي عن أناس لقاء الموت عندهم الأديب
ورب الشعر عندهم بغيض ولو وافى به لهم حبيب[1]

فلفظ « حبيب » له معنيان ، قريب بمعنى المحبوب وهو غير مراد ، وبعيد وهو اسم أبي تمام حبيب بن أوس الطائي ، وهذا المعنى هو المراد . والتورية مرشحة لوجود كلمة « بغيض » التي تلائم كلمة « حبيب » بمعنى محبوب .

وقوله أيضًا :

وقفت بأطلال الأحبة سائلاً ودمعي يسقي ثم عهدًا ومعهدًا
ومن عجب أني أروى ديارهم وحظي منها حين أسألها الصدى[2]

والتورية في كلمة « الصدى » فإن معنا ها القريب : العطش ومعناها البعيد .

---

(١) الأديم : الجلد ، وأديم كل شيء ظاهره .
(٢) من معاني الصدى : الظمأ ، وما يجيبك بمثل صوتك .

رجع الصوت ، وقد جاء قبل هذه التورية ما يناسب المعنى القريب «يسقى - أروى» .

وقول الحماسي :

فلمّا نأتْ عنّا العشيرةُ كلُّها ... أنخْنا فحالفْنا السيوفَ على الدهرِ
فما أسلمتْنا عندَ يومِ كريهةٍ ... ولا نحنُ أغضينا الجفونَ على وِتْرِ[1]

يريد : لما خذلتنا عشيرتنا وتخلت عنا ، اتخذنا السيوف حلفاء لنا على الدهر ، فما خذلتنا سيوفنا فى يوم روع وفزع ، ولا أغضينا جفوننا على ثأر ، بل أدركناه وانتقمنا لشرفنا وكرامتنا .

والتورية فى لفظ « الجفون » فإن جفن العين هو المعنى القريب المتبادر إلى الذهن عند إطلاق لفظ « الجفن » ولكنه ليس بمقصود ، بل المراد هو المعنى البعيد ، وهو قراب السيف أى غمده الذى يبيت فيه ، وقد رشح لهذه التورية بذكر ما يلائم المعنى القريب وهو قوله « أغضينا » لأن الإغضاء إنما يكون للعين .

وكقول القاضى الإمام أبى الفضل عياض فى صيفية باردة :

كأنّ كانونَ أهدى منْ ملابسه ... لشهرِ تمّوزَ أنواعًا من الحُلَلِ
أو الغزالةَ من طولِ المدى خرفتْ ... فما تفرّقُ بينَ الجديِ والحملِ[2]

فالغزالة تطلق على ولد الظبية ، وهو المعنى القريب ، وتطلق على الشمس وهو المعنى البعيد المراد ، وقد ذكر قبله ما يلائم المعنى القريب بذكر الخرافة وكذا ذكر الجدى والحمل - وفى الجدى والحمل أيضًا تورية فيراد بهما المعنى البعيد وهما برجان فى السماء .

---

(١) نات بمعنى بعدت - أنخنا : كناية عن إقامتهم بدارهم واكتفائهم بأنفسهم - الكريهة : الحرب والوتر : الثار - أغضينا - أغمضنا - والمراد بإغضاء الجفون : إغماد السيوف فى قرابها .

(٢) كانون : أحد الشهور الباردة ، وتموز : من أشهر الدفء ، والحمل أول بروج الربيع ، والجدى برج ملاصق للدلو .

والمعنى القريب للجدى ولد الماعز ، والحمل ولد الضأن بيد أن هذه التورية مجردة وقيل كل من التوريتين ترشيح للأخرى ، فالأولى ترشيحها واقع بعدها والثانية ترشيحها بعدها .

يقول صاحب المطول : كأن الشمس من كبرها وطول مدتها صارت خرفة قليلة العقل فنزلت فى برج الجدى فى أوان الحلول ببرج الحمل ، أراد الغزالة بمعناها البعيد أعنى الشمس وقد قرن بها ما يلائم المعنى القريب الذى ليس بمراد ، حيث ذكر الخرافة ، وكذا ذكر الجدى والحمل ، وقد يكون كل من التوريتين ترشيحًا للأخرى(١) .

وينبغى أن يعلم بأن الفرق بين التورية والمجاز والكناية ، أن التورية ليس منها انتقال ولا لزوم بين المعنى القريب والمعنى البعيد ، أما المجاز والكناية ففيهما الانتقال ، وذلك التلازم ، وأن قرينة التورية تكون خفية ، بخلاف المجاز والكناية .

والفرق بينها وبين الجناس ، أن الجناس لابد فيه من تكرار الكلمة مرتين ، فتذكر أولاً بمعنى ، ثم يعاد ذكرها بمعنى آخر ، أما التورية فلا تكرار فيها ، فهى كلمة مفردة .

وأيضًا فالمعنيان فى الجناس فى درجة واحدة من حيث القرب والبعد أما فى التورية فالمعنيان مختلفان ، فأحدهما قريب بين ، والآخر بعيد خفى .

كذلك فالمعنيان فى الجناس مرادان معًا ، وأما فى التورية ، فأحد المعنيين فقط هو المراد ، والآخر غير مراد ، وإنما جيء به ليستر المعنى المراد فتتطلع النفس إلى ما وراء هذا الستر وما ذلك الحجاب .

---

(١) المطول ، ص ٤٢٥ .

وهذا اللون - كما ترى - يحتاج إلى أعمال فكر ، وإنعام نظر ، والشيء إذا جاء بعد كد وطلب ، أعز مما يجيء بلا تعب ، وجمالها أيضًا فى أنها تجعل المعنى المراد كالوجه الجميل يظهر وراء حجاب .

ومن ثم كانت عند ابن رشيق من غرائب الشعر وملحه ، وبلاغة عجيبة تدل على بعد المرمى ، وفرط المقدرة ، وليس يأتي بها إلا الشاعر المبرز والحاذق الماهر(١) .

---

(١) العمدة ، جـ١ / ٢٠٦ .

الاستخدام

الاستخدام : أن يراد بلفظ له معنيان : *أحدهما* ، ثم بضميره معناه الآخر أو يراد بأحد ضميريه أحد المعنيين ، ثم يراد بالضمير الآخر معناه الآخر .

كقوله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾(١) .

فقد ذكر لفظ « الشهر » وله معنيان أحدهما الهلال وهو المراد بلفظ الشهر ، والثانى أيام رمضان ، وهو المراد به باعتبار عود الضمير فى يصمه عليه .

وكقول معاوية بن مالك بن جعفر :

إذا نَزَلَ السماءُ بأرضِ قَوْمٍ رعيناهُ وإن كانُوا غِضَابَا

يصف معاوية قومه بالرياسة والغلبة وسعة السلطان وقوة البأس فأينما نزل المطر بأرض غيرهم ، فإنهم يرعون الكلأ الناتج عن المطر على الرغم منهم ومن غير رضاهم .

فالمراد من « السماء » الغيث مجازاً مرسلاً ، علاقته المجاورة ، والقرينة «نزل» ثم أعاد الضمير فى « رعيناه » على لفظ السماء مراداً منه معنى آخر هو النبات « مجازاً مرسلاً » علاقته السببية والقرينة : رعينا ، فقد أريد بلفظ - السماء معنى ، ثم أريد بضميره معنى آخر .

---

(١) سورة البقرة : ١٨٥ .

يقول صاحب المطول : أراد بالسماء الغيث ، وبالضمير الراجع إليه من رعيناه النبت[١] .

ومثل الضمير التمييز ، كقول الشاعر :

حَكَى الغـزالَ طلعـةً ولفـتـةً ... من ذارآهُ مـقـبـلاً ولا افـتـتنْ

أعـذبُ خلقِ الله ريقًـا وفـمًـا ... إن لم يكن أحقَّ بالحسـنِ فَـمَنْ

فإن قوله « طلعة » يفيد أن المراد بالغزال الشمس ، وقوله « لفتة » يفيد أن المراد به الظبى .

والثانى : وهو ما فيه ضميران يعود كل منهما إلى اللفظ بمعنى من معنييه .

قول البحترى :

فَسَقَى الغضَا والساكنيهِ وإن هُمُ ... شَـبُّـوهُ بَيْنَ جَـوَانِحٍ وَقُلُوبِ[٢]

يدعو الله أن يسقى الغضا وساكنيه ، وإن عذبوه ، وأوقدوا فى قلبه النار .

فقد أطلق « الغضا » على معنى هو الشجر ، ثم أعاد عليه الضمير فى «الساكنية» بمعنى المكان ، لأن من معانى « الغضا » أنه أرض لبنى كلاب وواد بنجد ، ثم أعاد عليه الضمير فى « شبوه » بمعنى النار .

يقول الشيخ العباسى : أى أوقدوا فى جوانحى نار الغضا ، يعنى نار الهوى التى تشبه نار الغضا ، وخص الغضا دون غيره ، لأن جمره بطىء الانطفاء[٣] .

---

(١) المطول ، ص ٤٢٦ .

(٢) الغضا : نوع من شجر البادية جمره بطىء الإنطفاء واحدته غضاه - شبوه أو قدوه - يقال شب النار أو قدها - الجوانح : الأضلاع التى تحت الترائب وهى مما يلى الصدر ، كالضلوع مما يلى الظهر ، واحدته جانحة .

(٣) معاهد التنصيص ، جـ ٢ / ٢٦٩ .

هذا وسمى هذا النوع بذلك الاسم ، لأن الضمير منقطع عما يستحق أن يعود له من المعنى ، وجعل لغيره .

هذا . والفرق بين التورية والاستخدام ، أن التورية يراد منها أحد المعنيين دون الآخر ، أما في الاستخدام فالمعنيان مرادان .

كذلك ، فالمعنيان في التورية مستفادان من اللفظ من نفسه مباشرة بدون رجوع ضمائر ، أما في الاستخدام ، فاللفظ يراد به معنى ، وضميره يراد به معنى آخر ، أو اللفظ يراد به معنى ، وضميره الأول يراد به معنى ، وضميره الثاني يراد به معنى آخر ، فالمعنيان مستفادان من اللفظ بمساعدة الضميرين - كما رأيت .

وهذا اللون يحتاج إلى أعمال الفكر ، وفيه تكثير لمعانى اللغة العربية ، إلى جانب ما يفيده من الإيجاز .

(١) حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص ، جـ٤ / ٣٢٦ .

المزاوجة

المزاوجة : هى أن يزاوج بين معنيين فى الشرط والجزاء[١] .

كقول البحترى :

إذَا مَـا نَهَى النَّاهِى فَلَجَّ بِىَ الْهَـوَى   أَصَاخَتْ إلى الواشِى فَلَجَّ بِهَا الْهَجْرُ[٢]

يريد : إذا نهانى الناهى عن حبها صار الهوى لا زمالى ، ومتمكنًا منى على عكس حالها ، فسرعان ما يصرفها الوشاة عن حبها ، فتسرف فى القطيعة وتمعن فى الهجر .

فقد جمع البحترى بين الشرط « نهى الناهى » والجزاء « إصاختها إلى الواشى » ورتب عليهما لزوم شىء ، وهو لجاج الهوى ، ولجاج الهجر .

يقول ابن يعقوب : فنهى الناهى شرط ترتب عليه لزوم الهوى ، وإصاخة الواش جوابه ، رتب عليه لزوم الهجر لها ، فقد صدق أن هذا الشرط الذى هو نهى الناهى وجوابه ، الذى هو إصاختها إلى الواشى معنيان ، وقع أحدهما فى مكان الشرط أى بعد أداة الشرط فصار شرطًا ، ووقع أحدهما فى مكان الجواب بربطه بالشرط ، فصار جوابًا وقد زاوج ، أى جمع بينهما فى معنى مرتب عليهما معًا ، وهو لزوم شىء لهما معا ، لأنهما اشتركا فى هذا المعنى ، وهو كاف فى الاجتماع والازدواج ، وإن كان اللازم للشرط هو الهوى ، واللازم للجواب هو الهجر ... ولا يخفى ما فى ترتب لجاج الهوى على النهى من المبالغة فى الحب ، لاقتضائها أن ذكرها ولو على وجه العتب يزيد حبها ويثيره .. وما فى ترتب لزوم الهجر على وشى الواشى من المبالغة

---

(١) الإيضاح ، جـ٦ / ٣٣ - المراد بالمعنيين هما : معنى الشرط ، ومعنى الجزاء ، والمزاوجة بينهما هى أن يرتب على كل منهما معنى مرتب على الآخر ، بأن يساوى بينهما .

(٢) لج : بمعنى ألح عليه وأشتد - أصاخت : استمعت - الواشى : النمام .

فى ادعاء كون حبها على شفا إذ يزيله مطلق الوشىء فكيف يكون الأمر لو سمعت أو رأت عيبًا .. والمبالغات مما يستحسن فى باب كل منهما(١) .

وكقول البحترى أيضًا يمدح المتوكل على الله :

إذا احْتَرَبَتْ يومًا فـفاضَتْ دِمَاؤُها   تذكرتِ القُرْبَى ففاضتْ دُمُوعُهَا(٢)

يريد : إذا تحاربت هذه الفرسان وتقاتلوا ، فاضت دماؤها التى سكبوها فى القتال والحروب ، ثم إذا تذكرت القرابة التى تربطهم وتجمعهم فاضت دموعها على من قتل إشفاقًا على قطيعة الرحم .

فقد زاوج البحترى بين الاحتراب وتذكر القربى الواقعين فى الشرط والجزاء فى ترتب فيضان شىء عليهما ، فالمرتب على الشرط فيضان الدماء ، والمرتب على الجزاء فيضان الدموع .

وقوله أيضًا :

إذَا مَا بَدَت فـازدادَ منهـا جَـمَـالُهَـا   نظرتُ إليـهـا فـازدادَ مِنِّى غَـرَامُـهَـا

فقد زاوج البحترى بين الشرط وهو « ظهورها » والجزاء وهو « نظره » ورتب عليهما لزوم شىء ، وهو ازدياد الجمال وازدياد الغرام .

هذا ، وقد أشاد الإمام عبد القاهر بهذا اللون ، وجعله من النظم الذى يتحد فى الوضع ويدق فيه الصنع .

يقول الإمام : واعلم أن مما هو أصل فى أن يدق النظر ، ويغمض المسلك فى توخى المعانى التى عرفت أن تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها فى بعض ، ويشتد ارتباط ثان منها بأول ، وأن يحتاج فى الجملة إلى أن تضعها فى

---

(١) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٣١٨ .

(٢) احتربت بمعنى : حاربت ، فاضت بمعنى : سالت .

النفس وضعًا واحدًا وأن يكون حالك فيها حال البانى ، يضع بيمينه ههنا فى حال ما يضع بيساره هناك نعم وفى حال ما يبصر مكان ثالث ورابع يضعهما بعد الأولين ، وليس لما شأنه أن يجىء على هذا الوصف حد يحصره وقانون يحيط به ، فإنه يجىء على وجوه شتى وأنحاء مختلفة ، فمن ذلك أن تزاوج بين معنيين فى الشرط والجزاء[١] .

وهذا اللون - كما رأيت - فيه من ترابط الأسلوب ما يملك الأفئدة .

الرجوع

الرجوع : هو العود على الكلام السابق بالنقض لنكتة[٢] .

كقول زهير بن أبى سلمى :

قِفْ بالديارِ التى لَمْ يَعْفُهَا القِدَمُ   بَلَى وَغَيَّرَهَا الأرواحُ والدِّيَمُ[٣]

فقد دل صدر البيت على أن تطاول الزمان ، وتقادم العهد ، لم يعف الديار ثم عاد إليه ونقضه فى عجز البيت ، بأنه قد غيرتها الرياح والأمطار.

والسر فى هذا الرجوع إظهار الكآبة والحزن والحيرة والدهشة ، كأنه أخبر أو لا بما لم يتحقق ، ثم رجع إليه عقله ، وأفاق بعض الإفاقة فنقض كلامه السابق[٤] . يقول القاضى الجرجانى : فنقض بالمصراع الثانى الأول[٥] .

---

(١) دلائل الإعجاز ، ص ٧٠ .

(٢) الإيضاح ، جـ ٧ / ٣٧ .

(٣) لم يعفها : لم يبلها ويمح آثارها تقادم عهدها - الأرواح : الرياح : جمع ريح - الديم : جمع ديمة وهى المطر الدائم فى سكون .

(٤) معاهد التنصيص ، جـ ٢ / ٢٥٨ ، والمطول ، ص ٤٢٤ .

(٥) الوساطة ، ص ٤٤٢ .

وكقول يزيد بن الطثرية :

أَلَيْسَ قَلِيــلاً نظرةٌ إنْ نظرتُهَــا ... إليكِ وكَــلَّا ليس منكِ قليلُ(١)

والنكتة فى هذا الرجوع : إظهار التدله والتحير .

ومن الرجوع أيضًا قول السراوندى :

كَالْبَدْرِ بل كالشمسِ بل كَكِلَيْهِمَا ... كالليثِ بل كالغيثِ هَطَّالُ الدِّيَمْ

الجمع

الجمع : أن يجمع بين شيئين أو أشياء فى حكم واحد(٢) .

كقوله تعالى : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾(٣) .

فقد جمع بين المال والبنين فى كونهما زينة الحياة الدنيا وكقول أبى العتاهية :

إن الشبــابَ والفــراغَ والجِـدةْ ... مفسـدةٌ للمرءِ أَيُّ مَفْسَـدَة(٤)

فقد جمع بين الشباب والفراغ والجدة فى حكم واحد وهى كونها مفسدة للمرء وكقول محمد بن وهيب يمدح أبا أسحق المعتصم بالله :

ثلاثةٌ تَشْـرِقُ الدنيَـا بِبَهْجَتِهَـا ... شمسُ الضُّحَى وَأَبُو أسحقَ والقمرُ(٥)

فقد جمع الشاعر الضحى ، وأبا أسحق والقمر ، فى كونها تشرق الدنيا ببهجتها .

---

(١) كلا : حرف ردع لنفسه عن عد نظرتها قليلاً .

(٢) الإيضاح ، جـ٦/ ٤٥ .

(٣) سورة الكهف : ٤٦ .

(٤) الجدة : الاستغناء - أى مفسدة : كامل الفساد .

(٥) المراد بأبى إسحق المعتصم بالله .

ومن الجمع أيضًا قول صفى الدين الحلى :

آراؤه وعطاياه ونعمته ... وعفوه رحمة للناس كلهم

وقول ابن حجة مع تسمية النوع :

آدابه وعطاياه ورأفته ... ضمن جمع فيه ملتئم

وقوله ﷺ : « من أصبح آمنًا فى سربه ، معا فى بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها »(١) .

فجمع الأمن ، ومعافاة البدن ، وقوت اليوم فى حكم واحد ، وهو حيازة الدنيا وامتلاكها ، من جميع نواحيها .

التفريق

التفريق : إيقاع تباين بين أمريين من نوع واحد فى المدح أو غيره كقول رشيد الدين الوطواط :

ما نوال الغمام وقت ربيع ... كنوال الأمير يوم سخاء
فنوال الأمير بدرة عين ... ونوال الغمام قطرة ماء(٢)

فقد أوقع الشاعر التباين بين النوالين ، الغمام ونوال الأمير مع أنهما من نوع واحد ، وهو مطلق نوال .

وكقول الوأواء الدمشقى :

من قاس جدواك بالغمام فما ... أنصف الحكم بين شكلين
أنت إذا جدت ضاحك أبدا ... وهو إذا جاد دامع العين(٣)

---

(١) السرب : بكسر السين وسكون الراء : النفس وهو المراد هنا ، والحذافير : النواحى .
(٢) النوال العطاء ، والبدرة كيس فيه ألف دينار ، أو عشرة آلاف درهم والعين هنا : المال .
(٣) الجدوى : العطية ، والشكلان : تثنية شكل بمعنى : مثل ، وجدت بمعنى : أعطيت .

فقد أوقع الشاعر التباين بين جدوى الممدوح ، وجدوى الغمام .

وكقول الشاعر :

حَسِبْتَ جَمَالَهُ بدراً مُنِيراً وأين البدرُ من ذاكَ الجمالِ

يقول الشيخ الدسوقى : فقد أوقع التباين بين جمال ذلك المحبوب ، وجمال البدر مع أنهما من نوع واحد وهو مطلق جمال(١) .

صحة التقسيم

المراد بصحة التقسيم : أن يقسم الكلام قسمة مستوية ، تحتوى على جميع أنواعه ، ولا يخرج منها جنس من أجناسه(٢) .

كقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾(٣) .

فليس فى رؤية البرق إلا الخوف من الصواعق ، والطمع فى الأمطار ، ولما كان الخوف من الصواعق ، يقع فى أول برقة ، ولا يأتى الطمع إلا بعد تتابع البرقات جاء ذكر الخوف أولاً ، وهناك سر آخر لتقديم الخوف على الطمع فى هذه الآية هو أن يأتى الفرح بعد الشدة ، فيكون وقعه أجمل .

يقول أبو هلال العسكرى : وهذا أحسن تقسيم ، لأن الناس عند رؤية البرق بين خائف وطامع ليس فيهم ثالث(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾(٥) .

---

(١) حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٣٣٦ .

(٢) الصناعتين ، ص ٣٥٠ . (٣) سورة الرعد : ١٢ .

(٤) الصناعتين ، ص ٣٥٠ . (٥) سورة الشورى : ٤٩ ، ٥٠ .

فالله سبحانه ، إما أن يفرد العبد بهبة الإناث ، أو بهبة الذكور أو يجمعهما له ، أو لا يهبه شيئًا .

يقول الشيخ الدسوقي : « كأنه قيل : الإنسان إما ألا يكون له ولد أصلاً وإما أن يكون له جنس الذكور فقط » وإما أن يكون له جنس الإناث فقط وإما أن يكون له الجنسان معا ، فهذا تقسيم مستوف لأقسام الإنسان باعتبار الولادة وعدمها[١] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾[٢] .

فلم يترك سبحانه قسمًا من أقسام الهيئات إلا أتى به .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ﴾[٣] وقد وقعت بين ترتيب الآيتين مغايرة اقتضتها البلاغة ، فتضمن الكلام بها الائتلاف ، وذلك أن الذكر يجب فيه تقديم القيام ، لأن المراد به الصلاة - والله أعلم[٤] والقيام واجب فيها للمستطيع ، والقعود بعده عند العجز عن القيام ، والاضطجاع عند العجز عن القعود ، والضر يجب فيه تقديم الاضطجاع ، وإذا زال بعض الضر قعد المضطجع ، وإذا زال كل الضر ، قام القاعد ، فدعا ، لتتم الصحة وتكتمل القوة ، فحصل حسن الترتيب ، وائتلاف الألفاظ بمعانيها .

يقول القرطبي : ومثله قوله تعالى : « دعانا لجنبه أو قاعدًا أو قائمًا » على العكس أى دعانا مضطجعًا على جنبه ، وذهب جماعة من المفسرين

---

(١) حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٣٤٧ .

(٢) سورة آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١ .

(٣) سورة يونس : ١٢ .

(٤) انظر تفسير القرطبي ، ص ١٥٥٣ ، مطبعة دار الشعب .

منهم الحسن وغيره إلى أن قوله « يذكرون الله » إلى آخره ، إنما هو عبارة عن الصلاة ، أى لا تضيعوها ففى حال العذر ، يصلونها قعوداً وعلى جنوبهم وإذا كانت الآية فى الصلاة ، فقهها أن الإنسان يصلى قائماً ، فإن لم يستطع فقاعداً ، فإن لم يستطع فعلى جنبه[١] .

وقوله ﷺ : « ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأبقيت » ولا رابع لهذه الأقسام .

وكما ترى ، فقد قدم النبى الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم الأكل لأن به قوام الحياة ، وثنى بالملبس ، لأن به كمال الحياة ، ثم قابلهما بالصدقة لأن بها بقاء الآخرة وكمالها ، والأكل أول ما يفكر فيه الإنسان وهو لا يزال فى المهد ، ثم يفكر فى الملبس ، فإذا اشتد عوده ، وتم عقله ، فكر فى أمر الآخرة .

وقول على بن أبى طالب كرم الله وجهه : أنعم على من شئت تكن أميره واستغن عمن شئت تكن نظيره ، واحتج إلى من شئت تكن أسيره .

وقول أعرابى وقف على مجلس الحسن البصرى فى المسجد : رحم الله عبداً أعطى من سعة ، أو آسى من كفاف ، أو آثر من قلة .

فقال الحسن : ما ترك لأحد عذراً ، فانصرف الأعرابى بخير كثير .

وقول زهير بن أبى سلمى :

فَــإِنَّ الحقَّ مَــقْطَعُــهُ ثَلاثٌ ... يَمِينٌ أَوْ نِفَــارٌ أَوْ جِــلَاءُ[٢]

---

(١) تفسير القرطبى ، ص ١٥٥٣ .

(٢) النفار : بكسر النون أن يرفعوا أمرهم إلى حاكم يحكم بينهم ، والجلاء بالكسر كشف الأمر بالبينة .

يريد زهير : ثلاث خصال ينفذ بكل منها الحق ، فمنها نفار ، أى تنافر إلى رجل يتبين حجج الخصوم ويحكم بينهم ، ومنها يمين ومنها جلاء ، وهو أن ينكشف الأمر وينجلى ، وتعلم حقيقته ببينة ودليل فيقضى به لصاحبه ، دون خصام ولا يمين .

وكان عمر رضى الله عنه يعجب بهذا البيت ويقول : لو أدركت زهيراً لوليته القضاء لمعرفته به(١) .

وقول أبى زبيد الطائى :

يا أَسْمَ صبراً على ما كانَ مِن حَدَثٍ ‏ ‏ إن الحــوادث مَلْقِىٌّ ومُنْتَظَرُ(٢)

يقول قدامة بن جعفر : فليس فى الحوادث إلا أن تكون قد لقيت ، أو ينتظر لقيها(٣) .

ومن صحة التقسيم ذكر متعدد ، ثم إضافة ما نكل إليه على التعيين(٤) .

كقول جرير بن عبد المسيح الضبعى المعروف بالمتلمس :

وَلاَ يُقِيمُ عَلَى ضَيْمٍ يُرَادُ بِهِ ‏ ‏ إلاَّ الأذلانِ عَيْرُ الحىِّ والوَتَدُ

هذا على الخسفِ مربوطٌ بِرُمَّتِهِ ‏ ‏ وَذَا يُشَجُّ فَلاَ يَرْثِى لَهُ أَحَدُ(٥)

فقد ذكر الشاعر العير والوتد ، وأضاف إلى كل ما يناسبه ، فهذا على الخسف مربوط برمته يعود على العير ، وذا يشج فلا يرثى له أحد يعود على الوتد .

---

(١) الصناعتين ، ص ٣٥١ .

(٢) يا اسم : منادى ترخيم أسماء - الحدث : ما يحدث للإنسان من أحوال الدهر وأحداثه وأبو زيد شاعر مخضرم ، توفى عام ٤١ هـ .

(٣) نقد الشعر ، ص ١٤١ .

(٤) الإيضاح ، جـ ٦ / ٤٧ .

(٥) الضمير فى « به » يعود إلى المستثنى منه المقدر وهو أحد مثلاً والضيم : الذل ، العير : الحمار ، الخسف : الذل ، الرمة : قطعة حبل بالية - يشج : يدق - يرثى : يرق .

ومن صحة التقسيم - أيضًا - ذكر أحوال الشيء مضافًا إلى كل حال ما يليق بها(١) .

كقول المتنبي :

سأطلبُ حقّي بالقنا ومشايخ كأنّهمُ من طولِ ما التثموا مُرْدُ
ثِقالٌ إذا لاقَوْا خِفافٌ إذا دُعوا كثيرٌ إذا شدّوا قليلٌ إذا عُدّوا(٢)

فقد ذكر الشاعر أحوال المشايخ من كونهم « ثقال خفاف » « كثير قليل » وفي كل حالة ، ذكر لها ما يناسبها ، فهم ثقال وقت لقائهم للعدو ، وهم خفاف إذا دعاهم ، وهم كثير إذا حملوا على عدوهم وهم قليل إذا عدوا .

يقول ابن يعقوب : ذكر المشايخ أولاً ، ثم ذكر أحوالهم من الثقل والخفة والكثرة والقلة ، وأضاف لكل حال ما يليق بها ... ولا يخفى ما اشتمل عليه هذا التقسيم من الطباق بذكر القلة والكثرة ، والخفة والثقل إذا بين كل منها تضاد(٣) .

وقول المتنبي أيضًا :

بدتْ قمراً ومالتْ خُوطَ بانٍ وفاحَتْ عنبراً وَرَنَتْ غزالاً

يريد : أنها بدت بوجه كقمر ، ومالت بقوام كخوط بان ، وفاحت برائحة كعنبر ، ونظرت بعين غزال - وكما رأيت - ذكر لكل حالة ما يناسبها .

هذا . وفي صحة التقسيم الراحة النفسية التي يجدها القارىء والمستمع حينما يجد الكلام قد أحاط بجميع الأقسام ، فيحدث في النفس السرور والإعجاب .

---

(١) الإيضاح ، جـ٦ / ٥٢ .

(٢) القنا : واحده قناة وهي الرمح ، والتثموا بمعنى لبسوا ثياب الحرب على عادتهم فيها ، والمرد جمع أمرد ، وهو الشاب الذي لم تنبت لحيته ، والثقال الذين تشتد وطأتهم على الأعداء في الحرب وشدوا بمعنى : حملوا على عدوهم .

(٣) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ، جـ٤ / ٣٤٦ .

الجمع مع التفريق

***الجمع مع التفريق*:** أن يدخل شيئان فى معنى واحد ، ويفرق بين جهتى الإدخال(١) .

كقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾(٢) .

فقد جمع الله سبحانه بين الليل والنهار فى حكم واحد ، وهو أنهما آيتان من آيات الله ، ثم فرق بينهما بأن جعل الليل مظلمًا والنهار مضيئًا .

وقول رشيد الدين الوطواط :

فَوَجْهُكَ كالنارِ فى ضوئِها   وقلبِىَ كالنارِ فى حَرِّهَا

فقد جمع الشاعر بين وجه الحبيب وقلبه هو فى حكم واحد ، هو تشبيههما بالنار ، ثم فرق بينهما فى ذلك الحكم من جهة وجه الشبه فى كليهما فوجه الحبيب كالنار فى ضوئها ولمعانها ، وقلب الشاعر كالنار فى حرارتها ولهبها .

وقول الشاعر :

أسود كالمسكِ صُدْغًا   قد طابَ كالمسكِ خلقا(٣)

فقد جمع الشاعر بين الصدغ والخلق فى التشبيه بالمسك ، ثم فرق بينهما . فالصدغ يشبه المسك فى سواده والخلق يشبه المسك فى طيبه .

---

(١) الإيضاح ، جـ ٦ / ٤٨ .

(٢) سورة الإسراء : ١٢ .

(٣) الصدغ ما بين الأذن والعين ، ويطلق على الشعر المتدلى عن الرأس على هذا الموضع وهو المراد هنا .

وقول البحترى من قصيدة يمدح فيها أبا الصقر إسماعيل بن بلبل[١] :

ولما التقينا والنقا موعدٌ لنا … تعجّب رائي الدرّ منا ولاقطهْ
فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها … ومن لؤلؤ عند الحديث تُساقطهْ[٢]

فقد جمع الشاعر بين رائى الدر ولاقطه فى حكم واحد هو التعجب ثم فرق بينهما فى ذلك الحكم ، فرائى الدر يتعجب من اللؤلؤ الذى يبدو عند ابتسامها ، ولاقط الدر يتعجب من اللؤلؤ الذى يتساقط منها عند الحديث .

الجمع مع التقسيم

الجمع مع التقسيم : هو جمع متعدد تحت حكم ثم تقسيمه ، أو تقسيمه ثم جمعه[٣] .

فالأول : كقول المتنبى :

حتّى أقام على أرباض خرشنةٍ … تشقى به الرومُ والصُّلبانُ والبِيَعُ
للسّبي ما نكحوا ، والقتل ما ولدوا … والنهبِ ما جمعوا والنارِ ما زرعوا[٤]

يريد أن سيف الدولة ما زال يسرع بخيله حتى نزل وسط بلاد الروم ، وقد نالها من الشقاء ما نالها .

فقد جمع المتنبى الروم ممثلين فى نسائهم وأولادهم وأموالهم وزروعهم

---

(١) انظر الديوان ، ص ١٢٣٠ .

(٢) النقا : القطعة من الرمل المحدودبة ، وقد يريد به هنا موضعاً .

(٣) الإيضاح ، جـ٦ / ٤٩ .

(٤) أرباض : جمع ربض بفتح الباء ، وهو ما حول المدينة ، وخرشنة : بلدة من بلاد الروم ، والبيع جمع بيعة بكسر الباء وهى معبد النصارى ، ولم يقل من نكحوا ، أو من ولدوا ، ليوافق قوله «والنهب ما جمعوا» «والنار مازرعوا» وللدلالة على إهانتهم ، وقلة المبالاة بهم حتى كأنهم ليسوا من جنس من يعقل .

تحت حكم واحد هو الشقاء ، ثم قسم ذلك الحكم ، إلى سبى وقتل ونهب وإحراق ، وأرجع إلى كل قسم من هذه الأقسام ما يلائمه .

يقول الشيخ الدسوقي : رجع لكل واحد من هذه الأقسام ما يناسبه ، فرجع للسبى ما نكحوا من النساء ، وللقتل ما ولدوا ، وللنهب ما جمعوا ، أى من الأموال وللنار ما زرعوا ، فأشجارهم للإحراق تحت القدور ، ومزروعاتهم للطبخ والخبز بالنار(١) .

والثاني : كقول حسان بن ثابت :

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم   أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا
سجية تلك منهم غير محدثة   إن الخلائق فاعلم شرها البدع(٢)

فقد قسم الشاعر فى البيت الأول صفة الممدوحين إلى الضر بالأعداء والنفع للأشياع ، ثم جمع فى الثانى بأن كلا منهما سجية لهم ، وليست بدعة محدثة فيهم .

يقول ابن يعقوب : فقد ظهر أنه قسم ما وصف به الممدوحين إلى كونه ضرر الأعداء ، وكونه نفع الأحياء ، ثم جمعه فى كونه سجية(٣) .

وقول ابراهيم بن العباس الصولى :

لو أن ما أنتم فيه يدوم لكم   ظننت ما أنا فيه دائمًا أبدًا
لكن رأيت الليالى غير تاركة   ما سر من حادث أو ساء مطردًا(٤)
فقد سكنت إلى أني وأنكم   سنستجد خلاف الحالتين غدا

(١) حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٣٤٠ .

(٢) الأشياع : الأتباع ، الخلائق : جمع خليقة وهى الطبيعة والخلق ، وسجية : طبيعية ، والبدع : جمع بدعة وهى الأمر المستحدث .

(١) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٣٤١ .

(٤) يريد بما هم فيه حسن حالهم ، وبما هو فيه سوء حاله ، والمطرد : المستمر .

وكما ترى ، فقوله « خلاف الحالتين » جمع لما قسم لطيف .

يقول الإمام عبد القاهر مشيداً بهذا اللون من البديع : وقد ازداد لطفًا بحسن ما بناه عليه ، ولطف ما توصل به إليه ، من قوله : فقد سكنت إلى أنى وأنكم » وإذ قد عرفت هذا النمط من الكلام ، وهو ما تتحد أجزاؤه حتى يوضع وضعًا واحداً ، فاعلم أنه النمط العالى ، والباب الأعظم ، والذى لا ترى سلطان المزية يعظم فى شىء كعظمه فيه(١) .

(٣) دلائل الإعجاز ، ص ٧٢ .

الجمع مع التفريق والتقسيم

وهو الجمع بين شيئين أو أشياء فى حكم واحد ، ثم التفريق بينها فى ذلك الحكم ، ثم التقسيم بين الشيئين ، أو الأشياء المفرقة بأن يضاف إلى كل ما يلائمه .

كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ * فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾(١) .

فقد جمع النفوس فى قوله سبحانه « لا تكلم نفس » فإن قوله « نفس » متعدد معنى ، لأن النكرة فى سياق النفى تعم ، ثم فرق بينهم بأن بعضهم شقى وبعضهم سعيد ، ثم قسم بأن أضاف إلى الأشقياء ما لهم من عذاب النار ، وإلى السعداء ما لهم من نعيم الجنة .

وقول ابن شرف القيروانى :

مُخْتَلِفِي الحاجاتِ جمعٌ ببابِهِ ... فهذا لَهُ فَنٌّ وهذا لَهُ فَنُّ

فللخامِلِ العَلْيَا وللمعدم الغنى ... وللمذنب العُتْبَى وللخائفِ الأمنُ(٢)

وكما ترى ، فقد جمع فى قوله « مختلفى الحاجات » وفرق فى قوله : « فهذا له فن ، وهذا له فن » وقسم فى قوله « فللخامل العليا وللمعدوم الغنى ، وللمذنب العتبى ، وللخائف الأمن » .

---

(١) سورة هود : ١٠٥ - ١٨٠ .

(٢) الفن : النوع والحال ، والمعدم : الفقير ، والعتبى : الإرضاء والخامل : ساقط النباهة الذى لاحظ له ، مأخوذ من خمل المنزل خمولاً إذا عفا ودرس .

التفريع

التفريع : أن يثبت لمتعلق أمر حكم بعد إثباته لمتعلق له آخر(١) كقول الكميت :

أحلامُكُم لِسَقَامِ الجهلِ شافيةٌ   كما دِمَاؤُكُمْ تشفِى من الكَلَبِ(٢)

فقد فرع على وصفهم بشفاء أحلامهم من داء الجهل ، وصفهم بشفاء دمائهم من داء الكلب ، يريد بذلك أنهم ملوك وأشراف ، وأرباب العقول الراجحة .

يقول ابن يعقوب : فمدلول الكاف الذى هو الممدوحون ، وهم أهل البيت أمر واحد له متعلقان ، وهما الأحلام ، أى العقول المنسوبة لهم . والدماء المنسوبة لهم ، أثبت لأحد متعلقيه وهو الدماء الشفاء من الكلب ، بعد إثبات ذلك الحكم وهو الشفاء لمتعلق آخر هو العقول ، ولا يضر فى اتحاد الحكم كون الشفاء فى أحدهما منسوبًا للكلب ، وفى الآخر للجهل لاتحاد جنس الحكم(٢) .

ومن التفريع قول ابن المعتز :

كَلامُهُ أخدعُ من لحظِهِ   ووعدُهُ أكذبُ من طيفِهِ

يصف كذب وعده فرع كذب طيفه(٣) .

---

(١) الإيضاح . جـ٦ / ٧٣ .

(٢) الأحلام : جمع حلم بالكسر ، وهو الأناة والعقل الكلب : بفتح اللام : شبه جنون يحدث للإنسان من عض الكلب المصاب به ولم يكن له دواء فى زعمهم أشفى من شرب دماء الملوك ، يريد أنهم ملوك وعلماء .

(٣) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٣٨٤ .

الإدماج

الإدماج : أن يضمن كلام سيق لمعنى معنى آخر[١] .

كقول المتنبى :

أقلب فيـه أجفـانى كـأنى أعـد بهـا على الدهر الذنوبا[٢]

فقد ضمن وصف الليل بالطول الشكاية من الدهر .

يقول صاحب المطول : يعنى لكثرة تقليبى لأجفانى فى ذلك الليل كأنى أعد على الدهر ذنوبه[٣] .

وقول ابن نباته السعدى :

ولابد لى من جـهلة فى وصـاله فـمن لى بخل أودع الحلم عنده[٤]

فقد أدمج فى الغزل الفخر بكونه حليمًا ، حيث كنى على ذلك بالاستفهام عن وجود خليل صالح يودعه حلمة ، وضمن الفخر بالحلم الشكوى من الزمان لتغير الإخوان حيث أخرج الإستفهام مخرج الإنكار .

يقول صاحب المطول : وقد نبه بذلك على أنه لم يعزم على مفارقة حلمه أبداً لكنه لما كان مريداً لوصل هذا المحبوب الموقوف على الجهل المنافى

---

(١) الإيضاح ، جـ ٦ / ٧٩ .

(٢) الضمير فى « فيه » يعود على الليل فى البيت قبله .
وقوله : أقلب فيه أجفانى كناية عن طوله ، وقوله : كأنى أعد بها على الدهر الذنوبا ، كناية عن الشكاية منه .

(٣) المطول ، ص ٤٤٢ .

(٤) الخل : الصديق والحلم : الصبر والأناة .

للحلم ، عزم على أنه إن وجد من يصلح لأن يودعه حلمه أودعه إياه فإن الودائع تستعاد آخر الأمر(١) .

وقول ابن المعتز فى الخيرى(٢) :

قَدْ نَفَضَ العاشقونَ ما صنعَ   الهجْرُ بِألوانِهم على وَرَقِهْ(٣)

فإن الغرض وصف الخير بالصفرة ، فأدمج الغزل فى الوصف .

* * *

---

(١) المطول ، ص ٤٤٣ .

(٢) الخيرى : ورد أصفر .

(٣) نفض : بمعنى أسقط ، ويعنى بما صنع الهجر بألوانهم : صفرتها والضمير فى ورقة للخيرى وهو ورد أصفر .

المحسنات اللفظية

الجناس

الجناس : أن يتشابه اللفظان فى النطق ويختلفا فى المعنى .

وينقسم إلى قسمين : تام وغير تام .

فالجناس التام : ما اتفق فيه اللفظان فى أمور أربعة هى :

نوع الحروف ، وعددها ، وهيئتها ، وترتيبها .

كقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾(١) فلفظتا « ساعة » فى الآية الكريمة ،قد اتفقنا فى هذه الأمور الأربعة مع اختلافهما فى المعنى ، فالمراد بالساعة الأولى « القيامة » وبالثانية « الساعة الزمنية » .

وقد صور الجناس شعور المجرمين نحو مدة إقامتهم فى الدنيا ، فهى فى نظرهم قصيرة للغاية .

يقول الشيخ الدسوقى : أى يحلف المجرمون أنهم ما لبثوا فى الدنيا غير ساعة أى إلا وقتًا يسيرًا من ساعات الأيام الدنيوية(٢) .

والجناس التام ثلاثة أنواع : مماثل ، ومستوفى ، ومركب ، فالمماثل : أن يتفق اللفظان فى نوع الكلمة ، بأن يكونا : أسمين أو فعلين أو حرفين .

فالاسمان : كالآية السابقة ، فإن لفظى الساعة من نوع الاسم وقد اتفق اللفظان فى نوع الحروف ، وعددها وهيئتها وترتيبها ، ولا عبرة بلام التعريف ، لأنها فى حكم الانفصال .

---

(١) سورة الروم : ٥٥ .

(٢) حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص ، جـ٤ / ٤١٦ .

وكقوله ﷺ لما نازع الصحابة جرير بن عبد الله فى أخذ زمام ناقة الرسول عليه الصلاة والسلام أيهم يقبضه ، فقال عليه الصلاة والسلام « خلوا بين جرير والجرير » أى دعوا زمامه(١) .

وجرير اسم الصحابى المذكور ، وجرير حبل مفتول .

وقول أبى نواس :

عَبَّاسُ عباسٌ إذا احْتَدَمَ الوغى والفضلُ فضلٌ والربيعُ ربيعُ

ففى البيت جناس تام فى ثلاثة مواضع ، الأول فى قوله « عباس عباس » والثانى فى قوله : « والفضل فضل » والثالث فى قوله : « والربيع ربيع » .

إذ المراد بـ« عباس » الأول عباس بن الفضل الأنصارى من رجال الحديث ولى قضاء الموصل فى عهد هارون الرشيد وبـ« عباس » الثانى صيغة مبالغة من عبس وجهه والمراد « بالفضل » الأول هو الفضل بن الربيع بن يونس وزير الرشيد ، ثم وزير الأمين ، و« الفضل » الثانى بمعنى الشرف والرفعة ، والمراد بـ« الربيع » الأول هو الربيع بن يونس وزير المنصور العباسى ، و« الربيع » الثانى بمعنى الخصب والنماء .

وقول أبى سعيد بن خالد المخزومى :

حَدَقُ الآجالِ آجَالُ والهَوَى للمرءِ قَتَّالُ(٢)

يريد أن حدق النساء الشبيهة بحدق الآجال فى سعتها وحسنها تقتل من ترميه بسهامها .

---

(١) المثل السائر ، ص ٩٩ ، وعروس الأفراح ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٤١٦ .

(٢) الحدق : واحده حدقه وهى سواد العين .

« فالآجال » الأولى جمع « إجل » بكسر فسكون وهو القطيع من بقر الوحش والثانية جمع « أجل » بفتح الهمزة والجيم والمراد به منتهى الأعمار.

وقول أبى تمام :

إذا الخيلُ جَابتْ قَسْطَلَ الحربِ صَدَّعُوا صُدُورَ العوالِي فى صدورِ الكتائبِ(١)

يريد إذا اخترقت خيولهم غبار المعركة سددوا الرماح فى صدور أعدائهم - وكما ترى - فالمراد « بصدور » الأولى أعالى الرماح ، و« بصدور » الثانية نحور الأعداء .

والفعلان : كقول أبى الفتح البستى :

فَهِمْتُ كِتَابَكَ يَا سَيِّدِى فَهِمْتُ وَلاَ عَجَبٌ أَنْ أَهِيمَا

والجناس بين كلمتى « فهمت وفهمت » الأولى من الفهم ، والثانية من الهيام وهو شدة الشوق .

وقولهم « لما قال لديهم قال لهم » فـ« قال » الأولى من القيلولة والثانية من القول.

وقولهم « فلان يضرب فى الصحراء فلا يضل ، ويضرب فى الهيجاء فلا يكل » فالضرب الأول بمعنى قطع المسافة ، الثانى بمعنى الحمل على الأعداء .

والحرفان : كقولك « قد ينزل المطر شتاء ، وقد ينزل صيفًا » .

فكلمة « قد » الأولى للتكثير لأن المطر يكثر نزوله شتاء ، والثانية للتقليل لأنه يقل صيفًا .

---

(١) جابت : بمعنى خرقت ، والقسطل : الغبار الساطع فى الحرب - صدعوا : أمالوا العوالى : جمع عالية وهى الرمح ، وصدور الكتائب : نحورها .

وقولك : « من الناس من يعمل من شروق الشمس إلى غروبها » فكلمة « من » فى « من الناس » تفيد معنى التبعيض أى بعض الناس وفى « من شروق الشمس » تفيد معنى الابتداء أى ابتداء من شروق الشمس .

والمستوفى أن يختلف اللفظان فى نوع الكلمة بأن يكون أحدهما اسمًا والآخر فعلا ، أو أحدهما حرفًا والآخر اسما أو أحدهما فعلاً والآخر حرفًا .

فالاسم مع الفعل كقول أبى تمام :

مَـامَـاتَ من كَـرَمِ الزَّمَـانِ فَـإِنَّهُ ... يَحْـيَـا لَدَى يَحْـيَى بنِ عـبـدِ الله

يريد أبو تمام : إذا انعدم الكرم فى هذا الزمان ، فإن له مكانا يوجد فيه وهو عند يحيى بن عبد الله .

وكما ترى ، فإن « يحيا » الأول فعل مضارع ، والثانى علم على الممدوح .

وكقول محمد بن عبد الله بن كناسة الأسدى فى رثاء ولده يحيى :

وَسَمَّيْتُهُ يحيى ليحيَا فلم يَكُنْ ... إلى رَدِّ أمـرِ اللهِ فـيـهِ سـبـيلُ

وقول الشاعر :

إذَا رَمَـاكَ الدهرُ فى مَـعْـشَـرٍ ... وقـد أجـمـعَ النـاسُ على بُغْـضِـهِـمْ
فَـدَارِهِمْ مـا دمـتَ في دَارِهِـمْ ... وَأَرْضِـهِـمْ مَـا دُمْتَ فِي أَرْضِـهِـم

ففى البيت الثانى فى شطريه جناس تام ، يراد بأولهما فى الشطر الأول فعل أمر من المداراة ، وهى المصانعة والمجاراة ويراد بالثانى المسكن الخاص .

وفى الشطر الثانى يراد بأولهما فعل أمر من الإرضاء ، ويراد بالثانى الأرض .

وقول أبي العلاء المعري :

لَوْ زَارَنَا طيفُ ذاتِ الخَالِ أَحْيَانَا ونحنُ في حُفَرِ الأجداثِ أَحْيَانَا(١)

فأحيانا الأولى اسم بمعنى من وقت لآخر وأحيانا الثانية فعل مضارع بمعنى بعث فينا الحياة من جديد ، ففي اللفظين - كما ترى - جناس مستوفى لاتفاقهما لفظًا واختلافهما نوعًا ومعنى .

والفعل مع الحرف كقول الشاعر :

عَلَا نَجْمُهُ في عَالَمِ الشعرِ فجأةً عَلَى أنهُ ما زالَ في الشعرِ شَادِيَا

فالجناس بين « علا » الأولى وهي فعل بمعنى ارتفع و« على » الثانية التي هي حرف جر .

وقول الآخر :

وَلَوْ أن وَصْلًا عَلَّلُوهُ بِقُرْبِهِ لمَا أنَّ مِنْ حَمْلِ الصَّبَابَةِ والجَوَى(٢)

فالجناس في البيت بين « أن » الأولى وهي حرف توكيد ونصب ، وأن الثانية وهي فعل ماض من الأنين .

وقولك « علا محمد ﷺ على جميع الأنام فلفظ « علا » الأول فعل ماض بمعنى ارتفع والثاني حرف جر .

والاسم مع الحرف كقولهم : « رب رجل شرب رب رجل آخر » فلفظ « رب » الأول حرف جر ، والثاني اسم للعصير المستخرج من العنب(٣) .

---

(١) الأجداث : القبور .

(٢) الجوى : حرقة القلب والصبابة : الولع الشديد .

(١) انظر مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٤١٧ .

وقول ﷺ « إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ما تجعل في في امرأتك » فالجناس بين « في » و « في » الأول حرف جر ، والثانية اسم بمعنى الفم أي فم امرأتك .

والمركب : أن يكون كلا اللفظين أو أحدهما مركبًا .

فالأول : وهو ما كان اللفظان فيه مركبين كقول الشاعر :

فَلَمْ تَضَعِ الأعَادِى قَدْرَ شَانِى ‍ ‍ ‍ ‍ وَلاَ قَالُوا فُلاَنٌ قَدْ رَشَانِى

فالجناس بين « قدر شانى » و « قدر شانى » واللفظ الأول مركب من اسمين « قدر » بمعنى المكانة والمنزلة ، و « شانى » بمعنى شأني ومنزلتي واللفظ الثاني مركب من كلمتين - أيضًا - هما « قد » وهي حرف معناه التحقيق و « رشانى » وهو فعل بمعنى أعطاني رشوة .

وكقول أبي الفتح البستي :

إلَى حَتْفِى سَعَى قَدَمِى ‍ ‍ ‍ ‍ أرى قَدَمِى أَرَاقَ دَمِى

فالجناس بين : « أرى قدمى » و « أراق دمى » واللفظ الأول مركب من فعل هو « أرى » واسم هو « قدمى » واللفظ الثاني مركب أيضًا من فعل واسم . الفعل « أراق » والاسم « دمى » :

ويسمى هذا الجناس « ما كان اللفظان فيه مركبين » جناسًا ملفقًا .

والثاني : ما كان أحد اللفظين فيه مركبًا ، وهو ثلاثة أنواع مرفو ومتشابه ومفروق .

فالمرفو : ما كان اللفظ المركب فيه مركبًا من كلمة وجزء كلمة كقول الحريري :

وَلا تَلْهُ عَنْ تَذْكَارِ ذَنْبِكَ وابْكِهِ … بِدَمْعٍ يُحَاكِي المزنَ حَالَ مُصَابِه
وَمَثِّلْ لِعَيْنَيْكَ الحِمَامَ ووقعَهُ … وروعةَ ملقاهُ ومَطْعَمَ صَابِه[1]

يريد : لا تغفل عما ترتكبه من الذنوب والمعاصى ، وابكه بدمع غزير ندمًا وحزنًا على ما ارتكبت ، واجعل الموت وأهواله نصب عينيك فذلك أردع لك .

فالجناس بين كلمة « مصابة » ومركب من كلمة وجزء من كلمة أخرى هما : الميم الأخيرة من « مطعم » وكلمة « صابه » .

وكقول الحريرى أيضًا :

والمكرُ مهمَا استطعْتَ لا تَأْتِه … لِتَقْتَنِي السؤدَدَ والمكرُمَةْ

فالجناس فى البيت لفظه الأول مركب من كلمة وجزء كلمة ، وهما : كلمة « المكر » والميم والهاء من « مهما » والثانى مفرد هو « المكرمة » .

والمتشابه : ما تشابه ركناه أى الكلمة المفردة والأخرى المركبة فى الخط .

كقول أبى الفتح البستى :

إذَا مَلِكٌ لم يكنْ ذَاهِبَهْ … فَدَعْهُ فَدَوْلَتُهُ ذَاهِبَهْ

فاللفظ الأول « ذاهبة » مركب من كلمتين هما « ذا » و « هبة » بمعنى صاحب عطاء والثانى مفرد وهو اسم فاعل من الذهاب وقد اتفق اللفظان خطا .

---

(١) « لا تله » من لها عن الشىء إذا أغفل عنه - يحاكى : يشبه - المزن : السحاب يحمل الماء . والمصاب : مصدر صاب المطر إذا انصب ، والحمام : الموت ، وملقاه : مصدر ميمى بمعنى اللقاء . والمصاب : شجر هو شديد المرارة واحده صابه .

وقول الشاعر :

يا سيدا حاز رقى بما حبانى وأولى
أحسنت برا فقل لى أحسنت فى الشكر أو لا

فالجناس بين « أولى » وهى كلمة مفردة « فعل ماض » بمعنى منح واعطى وبين « أولا » وهى مركبة من « أو » العاطفة و « لا » النافية .

والمفروق : ما كان اللفظ المركب فيه مركبًا من كلمتين مع اختلاف اللفظين فى الخط كقول أبى حفص عمر بن على المطوعى :

لا تعرضن على الرواة قصيدة ما لم تبالغ قبل فى تهذيبها
فمتى عرضت الشعر غير مهذب عدوه منك وساوسا تهذى بها(١)

فاللفظ الأول « تهذيبها » مصدر هذب بالتضعيف بمعنى نقحه وحسنه والثانى مركب من كلمتين « تهذى » و « بها » من الهذيان وهو الاختلاط فى القول .

وقول أبى الفتح البستى :

كلكم قد أخذ الجا م ولا جام لنا
ما الذى ضر مدير الـ جام لو جاملنا

والجناس بين لفظى « جام لنا » و « جاملنا » الأول(٢) مركب من كلمتين هما : « جام » بمعنى كأس و « لنا » جار ومجرور والثانى فعل ماض من المجاملة وهما مختلفان فى الخط - كما ترى - ولا يعتد بالضمير لأنه متصل بالفعل .

---

(١) المراد بالرواة : حفاظ الشعر ، نقاده ، والوساوس : جمع وسواس وهو ما يخطر بالقلب من شر ، أو مما لا خير فيه - يهذى : تكلم بما لا يعقل .

(٢) الجام الكأس - مدير الجام الساقى ، جاملنا : عاملنا بالجميل ، فاداره علينا أيضًا .

يقول ابن يعقوب : فاللفظ الأول من المتجانسين مركب من اسم لا وخبرها ، وهو المجرور مع حرف الجر ، والثانى مركب من فعل ومفعول لكن عدوا الضمير المنصوب المتصل من أجزاء الكلمة فصار المجموع فى حكم المفرد ، ولذلك صح التمثيل به لمفرد ومركب[١] .

وقول أبى الفضل الميكالى :

كتبتُ إليهِ أَسْتَهْدِى جوابًا ... فَقَابَلَنِى بوعدٍ فى الجوابِ
ألا ليتَ الجوابَ يكونُ خيرًا ... فَيَشْفِى ما أَحَاطَ من الجَوَى بى

فالجناس بين قوله « الجواب » و « الجوى بى » وأحدهما مركب والآخر مفرد وقد اختلفا خطا .

هذا . ووجه حسن الجناس التام ، كما يقول الإمام عبد القاهر حسن الإفادة مع أن الصورة صورة التكرير والإعادة[٢] .

كما يشيد الإمام بهذا اللون من الجناس ويعلل لسر جماله وحسنه وبهائه إذ يقول : قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها ، ويوهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاها ، فبهذه السريرة صار التجنيس وخصوصًا المستوفى منه المتفق فى الصورة من حلى الشعر ومذكورًا فى أقسام البديع[٣] .

* * *

---

(١) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٤١٩ .
(٢) أسرار البلاغة ، ٢١ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٢ .

والجناس غير التام : ما اختلف فيه اللفظان في واحد من الأمور الأربعة السابقة التي يجب توافرها في الجناس التام وهي : نوع الحروف ، وعددها وهيئتها ، وترتيبها.

فإذا اختلف اللفظان في نوع الحروف كان الجناس على نوعين مضارع ولاحق[١].

فالمضارع : ما كان فيه الحرفان اللذان وقع فيهما الاختلاف متقاربين في المخرج سواء كانا في أول اللفظ كقول الحريري « بيني وبين كني ليل دامس ، وطريق دامس »[٢] فالدال في « دامس » والطاء في « طامس » مختلفتان في النوع لكنهما متقاربان في المخرج لأنهما خارجتان من اللسان.

أو في الوسط كقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْئَوْنَ عَنْهُ ﴾[٣] .

فالهمزة والهاء من الحلق .

أو في الآخر : كقوله ﷺ « الخيل معقود بنواصيها الخير » فبين الراء واللام اختلاف في النوع وتقارب في المخرج لأنهما من اللسان .

واللاحق : ما كان الحرفان المختلفان متباعدين في المخرج سواء أكانا في أول اللفظ كقوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾[٤] .

أو في الوسط كقوله تعالى : ﴿ ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾[٥] .

---

(١) يشترط ألا يقع الاختلاف بأكثر من حرف واحد .

(٢) « الكن » المنزل ، والدامس : الشديد الظلمة ، والطامس : المطموس العلامات الذي لا يهتدى فيه إلى المراد .

(٣) سورة الأنعام : ٢٦ .

(٤) سورة الهمزة : ١ .

(٥) سورة غافر : ٧٥ .

أو فى الآخر كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ﴾[١] .

وإذا اختلف اللفظان فى عدد الحروف سمى « الجناس الناقص » وذلك لنقصان أحد اللفظين عن الآخر : ويأتى على وجهين :

أحدهما أن يختلفا بزيادة حرف واحد فى الأول كقوله تعالى : ﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾[٢] فالجناس بين الساق والمساق ولفظ الساق فيه ميم زائدة فى الأول .

أو فى الوسط كقولهم : « جدى جهدى »[٣] بزيادة الهاء فى الوسط .

أو فى الآخر كقول أبى تمام :

يمدون من أيد عواص عواصم ... تصول بأسياف قواض قواضب[٤]

يصفهم أبو تمام بالشجاعة والقوة فهم يمدون للضرب يوم الحرب أيديا ضاربات للأعداء حاميات للأولياء صائلات على الرؤوس بسيوف قاتلة قاطعة .

وكما ترى ، فقد زيد حرف الميم فى « عواصم » وحرف الباء فى « قواضب » وكلتا الزيادتين فى الآخر .

والثانى : أن يختلف اللفظان بزيادة أكثر من حرف : كقول الخنساء ترثى أخاها صخراً :

إن البكاءَ هو الشِّفَا ... ءُ من الجَوَى بين الجوانحِ[٥]

---

(١) سورة النساء : ٨٣ . (٢) سورة القيامة : ٢٩ ، ٣٠ .

(٣) الجد : الحظ والجهد المشقة يريد أن حظه فى الدنيا بجهدى وكدى .

(٤) عواص : جمع عاصية من العصيان : أى أبية - عواصم : جمع عاصمة من العصمة : أى حافظة مانعة - تصول : تسطو - القواضى : القاتلات جمع قاضية ، والقواضب : القواطع : جمع قاضبة .

(٥) الجوى : حرقة القلب ، الجوانح : الضلوع التى تحت الترائب مما يلى الصدر .

والجناس - كما ترى - بين الجوى والجوانح ، والثانى زاد عن الأول بحرفين .

ووجه حسن هذا اللون « الاختلاف فى العدد » كما يقول صاحب الإيضاح أنك تتوهم قبل أن يرد عليك آخر الكلمة « الثانية » أنها هى التى مضت ، وإنما أتى بها للتوكيد ، حتى إذا تمكن آخرها فى نفسك ووعاه سمعك انصرف عنك ذلك التوهم ، وفى هذا حصول الفائدة بعد اليأس منها(٢) .

وإذا اختلف اللفظان فى هيئة الحروف كان الجناس على نوعين : محرف ومصحف .

فالمحرف : ما أختلف فيه اللفظان فى الحركات والسكنات ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ * فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴾(١) .

فالأول : بكسر الذال : اسم فاعل من « أنذر » .

والثانى : بفتح الذال اسم مفعول منه .

وقوله ﷺ : « اللهم كما حسنت خلقى ، فحسن خلقى .

وقولهم : لا تنال الغرر إلا بركوب الغرر(٣) .

وقول عبد العزيز الحموى :

لِعَيْنِى كُلَّ يَوْمٍ فِيكَ عَبْرَةٌ   تُصَيِّرُنِى لأهلِ العشقِ عِبرةْ(٤)

---

(١) الإيضاح ، جـ٦ / ٩٤ .

(٢) سورة الصافات ٧٢ ، ٧٣ .

(٣) الغرر : بالضم جمع غرة وهى من كل شىء أوله وأكرمه - وبالفتح : الخطر والتعرض للهلكة .

(٤) العبر بفتح العين : الدمعة ، وبكسر العين : العظة .

والمصحف : ما أختلف فيه اللفظان فى النقط ، كقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾[١] .

وقوله ﷺ لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه : « قصر ثوبك فإنه أنقى وأتقى وأبقى » .

وقول الفاروق عمر بن الخطاب : « لو كنت تاجراً ما اخترت غير العطر إن فاتنى ربحه لم تفتنى ريحه .

وقول أبى نواس :

مِنْ بَحْرِ شِعْرِكَ أَغْتَرِفُ   وَبِفَيْضِ جُودِكَ أَعْتَرِفُ

وكما ترى ، فليس بين « أغترف وأعترف » خلاف إلا فى النقط ، بحيث لو تجرد كلاهما عنه لم يتميز كلاهما عن الآخر .

وإذا اختلف فى ترتيب الحروف سمى جناس القلب ، وهو أربعة أنواع : قلب كل ، وقلب بعض ، ومجنح ، ومستو .

فالقلب الكلى : ما انعكس فيه الترتيب كلا ، كقول العباس بن الأحنف :

حُسَامُكَ فِيهِ للأحبابِ فَتْحٌ   وَرُمْحُكَ فِيهِ لِلأَعْدَاءِ حَتْفُ[٢]

فالجناس بين فتح وحتف ، وقد انعكس فيهما الترتيب تماماً .

والقلب الجزئى : ما انعكس فيه الترتيب بعضاً كما جاء فى الخبر « اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا » وقول بعضهم : « رحم الله امرءاً أمسك ما بين فكيه ، وأطلق ما بين كفيه » ، وقول أعرابى : « أعوذ بك من سَقم وعدواه ، وذى رحم ودعواه » .

---

(١) سورة الشعراء : ٧٩ ، ٨٠ .

(٢) الحتف الهلاك - والحسام : السيف .

***والمجنح*:** ما كان فيه أحد اللفظين اللذين وقع بينهما القلب فى أول البيت والآخر فى أخره كقول الشاعر :

لاح أنوار الهدى من كفه فى كل حال [١]

فالجناس بين « لاح » و « حال » - وكما ترى - « لاح » فى أول البيت و « حال » فى آخره .

وسمى مجنحًا ، لأن اللفظين بمنزلة جناحين للبيت .

وقول الشاب الظريف شمس الدين محمد بن العفيف :

أسكرنى باللفظ والمقلة الـ كحلاء والوجنة والكأس
ساق يرينى قلبه قسوة وكل ساق قلبه قاس

فالجناس هنا بين « ساق » فى أول البيت ، و « قاس » فى آخره ومن ثم قيل له « جناس قلب مجنح » .

***والمستوى*:** ما كان اللفظ فيه ، بحيث لو عكس وبدىء بحرفه الأخير إلى الأول لم يتغير .

كقول سيف الدين بن المشد :

ليل أضاء هلاله أنى يضىء بكوكب

فكل كلمة فى البيت تقرأ مستوية ومقلوبة .

* * *

---

(١) لاح : ظهر - فى كل حال : فى كل صفة من صفاته ، وفى كل وضع من أوضاعه .

هذا . ويلحق بالجناس أمران :

أحدهما : أن يجمع اللفظين الاشتقاق ، كقوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ ﴾[١] فإن « أقم » و « القيم » أصل لغوى واحد .

وقوله تعالى : ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾[٢] ، « والجناس بين روح وريحان »[٣] .

وقوله ﷺ : « الظلم ظلمات يوم القيامة » .

وقول الشافعى رضى الله عنه وقد سئل عن النبيذ أجمع أهل الحرمين على تحريمه » .

ويسمى هذا الجناس الاشتقاق .

والآخر : أن يجمع بين اللفظين شبه الاشتقاق كقوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴾[٤] .

فقال من القول ، والقالون من القلى وهو البغض .

يقول ابن يعقوب : فقال مع القالين ، فى أحدهما من الحروف جل ما فى الآخر ويتبادر لكون الأول فعلاً مشتقًا من المصدر ، والثانى وصفًا ، أنهما من أصل واحد وليس كذلك ، لأن الأول من القول ، والثانى من القلى وهو البغض والترك ، فبينهما ما يشبه الاشتقاق على الوجه المذكور ، فكان ما بينهما ملحقًا بالجناس[٥] .

---

(١) سورة الروم : ٤٣ . (٢) سورة الواقعة : ٨٩ .
(٣) الروح : الرحمة . والريحان : الرزق .
(٤) سورة الشعراء ، ١٦٨ .
(٥) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ، جـ٤ / ٤٣٢ .

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾(١) .

فلفظ « الأرض مشتق من مادة أرض ، وأرضيتم » مشتق من الرضا .

يقول الشيخ الدسوقي : وإن كان يتوهم في بادىء الرأى رجوعهما إلى أصل واحد(٢) .

وقول البحترى :

وَإِذَا مَا رِيَاحُ جُودِكَ هَبَّتْ ... صَارَ قَولُ الْعَذُولِ فِيهَا هَبَاءً(٣)

والجناس بين « هبت وهباء » فاللفظ الأول مشتق من « هب يهب » المضعف العين والثاني من « هبا يهبو » .

هذا . ولعلك أدركت ما في الجناس من جمال ، ولكي يحقق هدفه المنشود ، ينبغي أن ترسل المعاني على سجيتها لتكتسي من الألفاظ ما يزينها .

يقول الإمام عبد القاهر : إنك لا تجد تجنيسًا مقبولاً ، ولا سجعًا حسنًا حتى يكون المعنى هو الذى طلبه واستدعاه ، وساقك نحوه ، وحتى تجده لا تبتغي به بدلاً ، ولا تجد عنه حولاً ، ومن هنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه ، وأحقه بالحسن وأولاه ، ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه ، وتأهب لطلبه ، وذلك كما يمثلون به أبدًا من قول الشافعي رحمه الله تعالى وقد سئل عن النبيذ فقال : أجمع أهل الحرمين على تحريمه(٤) .

---

(١) سورة التوبة : ٣٨ .

(٢) حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٤٣١ .

(٣) هبت بمعنى ثارت وهاجت ، والهباء . الغبار أو دقائق التراب ساطعة ومنشورة على وجه الأرض.

(٤) أسرار البلاغة ، ١٥ .

القلب

القلب : هو أن يكون الكلام بحيث لو عكس ، كان الحاصل من عكسه هو ذلك الكلام بعينه .

كقول عماد الدين الكاتب للقاضي الفاضل « سر فلا كبابك الفرس » ورد القاضي « دام علا العماد » .

وقول أحمد بن الحسين المعروف بالقاضي الأرجاني :

مـــودتـهُ تـدومُ لِـكُـلِّ هَـوْلٍ ۝ وَهَـلْ كُـلٌّ مَـــوَدَّتُـهُ تـدومُ(١)

ولا يخفى عليك ما في هذا اللون من التكلف ، وما جاء منه في القرآن الكريم كقوله تعالى : ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ ﴾(٢) وقوله تعالى : ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾(٣) فهو غير مقصود فيه .

ولا يضر في القلب مد المقصود ، ولا قصر الممدود كقولك « أرض خضراء » ، ولا يضر فيه أيضًا تخفيف المشدد ، أو تشديد المخفف أو تبديل بعض الحركات والسكنات ، كقولك « أرانا الإله هلالاً أنارًا » وقولك : كبر رجاء أجر ربك .

هذا . وما ذكره الخطيب القزويني في قلب الحروف ، وقد يكون القلب في الكلمات كقول الشاعر :

---

(١) الهول : المخافة من الأمر ، والاستفهام في قوله وهل كل للإنكار والمراد : وصف صاحبه بالوفاء من بين الأصحاب ، وقبل البيت .

أحب المرء ظاهره جـــميـــل ۝ لصـــاحـــبـــه وباطنه سليم

يؤول دعـــوني ويجـــيب طوعـــا ۝ إذا مـــا عن لي شـــرف مـــروم

(٢) سورة الأنبياء : ٣٣ . (٣) سورة المدثر : ٣ .

عَـدَلُوا فَـمَـا ظَلِمَتْ لَهُمْ دُوَلُ　　سَعِـدُوا فَـمَـا زَالَتْ لَهُمْ نِعَمُ
بَذَلُوا فَـمَـا شَحَّتْ لَهُمْ شِيَمُ　　رَفِـعُـوا فَـمَـا زَلَّتْ لَهُمْ قَدَمُ

وهو مدح ، فإذا قلبت كلماته كان ذمًا ، بأن يقال :

نِعَمُ لهم زالتْ فـمـا سَعِـدُوا　　دُوَلٌ لهم ظَلَمَتْ فـمـا عَـدَلُوا
قَدَمُ لهم زَلَّتْ فـمـا رَفِـعُوا　　شِيَمٌ لهم شَحَّتْ فـمـا بَذَلُوا

وقد يكون القلب فى المفرد كقولك : « سلس » و « باب » .

وكما ترى ، فهناك فرق بين تجنيس القلب ، وبين القلب من وجهين .

أحدهما : أن تجنيس القلب يجب أن يذكر فيه اللفظ الذى هو المقلوب مع مقابله .

والآخر : أن تجنيس القلب لا يجب أحد المتجانسين فيه نفس مقلوب الآخر إذا قرىء من آخره ، كالقمر والرقم ، فإن الجمع بينهما تجنيس القلب ولو قرىء أحدهما على الترتيب لم يكن نفس الآخر ، بخلاف القلب هنا ، فيذكر اللفظ المقلوب وحده وحيثما قرىء من آخره كان نفسه كسلس(١) .

وهذا النوع يدل على المهارة فى رصف الكلمات والتلاعب بالألفاظ .

---

(١) انظر مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٤٦٠ .

السجع

السجع : تواطؤ الفاصلتين من النثر عن حرف واحد .

والمراد بالفاصلتين الكلمتان الأخيرتان من الفقرتين .

كقوله ﷺ : أيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام .

وقول ابن عباس رضى الله عنهما يصف سيدنا أبا بكر رضى الله عنه : كان والله للقرآن تاليا ، وعن المنكر ناهيا ، وبذنبه عارفًا ، ومن الله خائفًا وعن الشبهات زاجرًا ، وبالمعروف آمرًا ، وبالليل قائمًا ، وبالنهار صائمًا ، فاق أصحابه ورعًا وكفافًا وسادهم زهدًا وعفافًا .

وقول بعض الحكماء : اللئيم إذا سأل ألحف ، وإذا وعد أخلف ، وإذا قدر أتلف ، هذا ، والسجع ثلاثة أنواع : مطرف ، ومرصع ، ومتواز .

فالمطرف : ما اختلف فيه الفاصلتان فى الوزن مع الاتفاق فى التقفية[1] .

كقوله تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴾[2] .

فإن « وقاراً » و « أطواراً » قد اختلفتا فى الوزن ، لأن ثانى « وقاراً » متحرك وثانى « أطواراً » ساكن ، وكلتا القافيتين الراء .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً * وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً ﴾[3] .

---

(١) المراد بالتقفية : فى الحرف الأخير .
(٢) سورة نوح : ١٣ ، ١٤ .
(٣) سورة النبأ : ٦ ، ٧ .

وسمى مطرفًا ، لأن ما وقع فيه التوافق ، كان فى الطرف ، وهو الحرف الأخير أو لبلوغه طرف الحسن ونهايته .

والمرصع : ما اتفقت فيه ألفاظ الفقرتين ، أو أكثرها وزنًا وتقفية كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ⑬ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾[١] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾[٢] .

وقول الرسول ﷺ : « اللهم أعط منفقًا خلفًا ، وأعط ممسكًا تلفًا » .

وقول أبى الفضل الهمذانى : « إن بعد الكدر صفوا ، وبعد المطر صحوًا » .

وقول أبى الفتح البستى : « ليكن إقدامك توكلاً ، وإحجامك تأملاً » .

وقول الحريرى : « هو يطبع الأسجاع بجواهر لفظه ، ويقرع الأسماع بزواجر وعظه »[٣] .

وكما ترى ، فقد اتفقت الفاصلتان فى الأمثلة السابقة وزنًا وتقفية ، كما اتفقت فيه ألفاظ الفقرتين أو أكثرها - أيضًا - فى الوزن والتقفية .

وسمى مرصعًا : تشبيهًا له بالعقد ، تجعل فيه إحدى اللؤلؤتين فى مقابلة الأخرى .

والمتوازى : ما اتفق فيه أقل ألفاظ الفقرتين وزنًا وتقفية .

كقوله تعالى : ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴾[٤] .

---

(١) سورة الإنفطار : ١٣ ، ١٤ .
(٢) سورة الغاشية : ٢٥ ، ٢٦ .
(٣) يطبع : يزين - يقرع : يدق .
(٤) سورة الغاشية : ١٣ ، ١٤ .

فالفاصلتان « مرفوعة » و « موضوعة » اتفقتا فى الوزن والتقفية ، دون باقى ألفاظ الفقرتين .

وكقول النبى ﷺ فى دعائه : « اللهم إنى أدرأ بك فى نحورهم ، وأعوذ بك من شرورهم » .

وقول بعض الحكماء يوصى أبناءه : يا بنى لا تزهدوا فى معروف ، فإن الدهر ذو صروف ، والأيام ذات نوائب على الشاهد والغائب ، فكم من راغب كان مرغوبًا إليه وطالب أصبح مطلوبًا ما لديه . واعلم أن الزمان ذو ألوان ، ومن يصحب الزمان ير الهوان .

وكما ترى ، فإن أقل ألفاظ الفقرتين قد اتفق فى الوزن والتقفية وسمى : متوازيًا ، لتوازى الفاصلتين أى توافقهما وزنًا وتقفية .

هذا . وقيل إن أحسن السجع ما تساوت قرائنه . كقوله تعالى : ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾[١] .

يقول الشيخ الدسوقى : « فهذه قرائن ثلاثة وهى متساوية فى كون كل مركبة من لفظين ، والسدر : شجر النبق ، والمخضود : الذى لا شوك له ، كأنه خضد ، أى قطع شوكة ، والطلح : شجر الموز ، والمنضود : الذى نضد بالحمل من أسفله إلى أعلاه »[٢] .

ثم ما طالت قرينته الثانية ، كقوله تعالى : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾[٣] .

---

(١) سورة الواقعة : ٢٨ - ٣٠ .

(٢) حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٤٤٩ .

(٣) سورة النجم : ١ ، ٢ .

يقول ابن يعقوب : « هذه الثانية ، وهى أكثر فى الكلمات مما قبلها فهى أطول »(١) .

ثم ما طالت قرينته الثالثة ، كقوله تعالى : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾(٢).

يقول الشيخ الدسوقى : هما قرينتان متساويتان فى أن كلا منهما كلمة واحدة ولا عبرة بحرف الفاء المأتى به للترتيب فى كون الثانية من كلمتين ، وأما قوله : « ثم الجحيم صلوه ، فهو قرينة ثالثة ، وهى أطول من كل ما قبلها »(٣) .

وهذا التنويع للسجع الحسن يشير إلى أن آيات القرآن الكريم فيها حسن وأحسن ، وأرى أن القرآن الكريم بجميع آياته فى الطبقة العليا من البلاغة وأن تساوى القرائن ، أو طول الثانية أو الثالثة فلغرض سام استدعاه المقام ، واقتضاه الحال .

وينبغى أن يعلم أن فواصل الأسجاع موضوعة على أن تكون ساكنة الإعجاز موقوفًا عليها(٣) ، لأن الغرض أن يزاوج بينها ، ولا يتم ذلك فى كل صورة إلا بالوقف والبناء على السكون ، كقولهم « ما أبعد ما فات ، وما أقرب ما هو آت » فإنه لو أعتبر الحركة ، لفات السجع ، لأن التاء من « فات » مفتوحة ، ومن « آت » مكسورة منونة ، وهذا غير جائز فى عرف القوافى ، ولا يتحقق فيه التزاوج بين الفواصل .

(١) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٤٤٩ .
(٢) سورة الحاقة : ٣٠ - ٣١ .
(٣) حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٤٤٩ .

يقول الشيخ الدسوقى : « إن سكون الإعجاز أصل ينبغى عليه تحصيل السجع ، وهو واجب عند اختلاف الحركات الإعرابية ، ومستحسن عند اتفاقها »(١) .

هذا ، ولا يحسن السجع إلا إذا كان رشيق الألفاظ ، خاليًا من التكرار لغير فائدة ، بعيدًا عن التكلف خادمًا للمعانى .

يقول ابن الأثير : ينبغى أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة حارة طنانة رنانة ، لاغثة ولا باردة .

فإذا صفى الكلام المسجوع من الغثاثة والبرد ، فإن وراء ذلك مطلوبًا آخر ، وهو أن يكون اللفظ فيه تابعًا للمعنى ، لا أن يكون المعنى فيه تابعًا للفظ ، فإنه يجىء عند ذلك كظاهر مموه على باطن مشوه ، ويكون مثله كغمد من ذهب على نصل من خشب(٢) .

وقد أشاد الإمام عبد القاهر بهذا اللون من البديع ، لما يضفيه على المعنى ، من حسن وبهاء . بقوله : وإن أنت تتبعت من الأثر كلام النبى ﷺ ، تثق كل الثقة بوجودك له على الصفة التى قدمت ، كقوله ﷺ : « أيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام » فإنك لا تجد فى جميع ما ذكرت ، لفظًا اجتلب من أجل السجع .

فقد تبين من هذه الجملة أن المعنى المقتضى اختصاص هذا النحو بالقبول ، هو أن المتكلم لم يقد المعنى نحو التجنيس والسجع ، بل قاده المعنى إليها(٣) .

---

(١) السكون مستحسن عند اتفاق الحركات الأعرابية كقوله ﷺ ، رحم الله عبداً قال خيراً فغنم ، أو سكت فسلم ، وواجب عند اختلافها .

(٢) المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ، ٧٥ .

(٣) أسرار البلاغة ، ص ١٨ ، ١٩ .

كما أثنى عليه ابن سنان إذ يقول : « والمذهب الصحيح أن السجع محمود إذا وقع سهلاً متيسراً ، بلا كلفة ولا مشقة ، وبحيث يظهر أنه لم يقصد فى نفسه ولا أحضره إلا صدق معناه دون موافقة لفظه »(١) .

هذا ، وقد منع فريق من العلماء أن يسمى ما جاء فى القرآن الكريم على هذه الوتيرة سجعًا ، وآثروا أن يسموه فواصل ، لقوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾(٢) .

ولقول الرسول ﷺ : « إياكم وسجع الكهان » ولأن السجع فى الأصل هدير الحمام ، كما أن السجع - فى رأيهم - يتبعه المعنى .

يقول الرمانى : الفواصل بلاغة ، والأسجاع عيب ، وذلك أن الفواصل تابعة للمعانى ، وأما الأسجاع فالمعانى تابعة لها ، وهو قلب ما توجبه الحكمة فى الدلالة إذ كان الغرض الذى هو حكمة إنما هو الإبانة عن المعانى التى الحاجة إليها ماسة فإذا كانت المشاكلة وصلة إليه فهو بلاغة ، وإذا كانت المشاكلة على خلاف ذلك فهو عيب ولكنه ، لأنه تكلف من غير الوجه الذى توجبه الحكمة ، ومثله مثل من رصع تاجًا ، ثم ألبسه زنجيًا ساقطًا ، أو نظم قلادة در ثم ألبسها كلبًا ، وقبح ذلك وعيبه بين لمن له أدنى فهم .

فمن ذلك ما يحكى عن مسيلمة الكذاب : يا ضفدع نقى كم تنقين ، لا الماء تكدرين ، ولا النهر تفارقين .

فهذا أغث كلام يكون وأسخفه ، وقد بينا علته ، وهو تكلف المعانى من أجله ، وجعلها تابعة له ، من غير أن يبالى المتكلم بها ما كانت .

---

(١) سر الفصاحة ، ص ١٦٤ . (٢) سورة فصلت : ٣ .

ثم يقول : وفواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة ، لأنها طريق إلى إفهام المعانى التى يحتاج إليها فى أحسن صورة يدل بها عليها ، وإنما أخذ السجع فى الكلام من سجع الحمامة ، وذلك أنه ليس فيه إلا الأصوات المتشاكلة كما ليس فى سجع الحمامة إلا الأصوات المتشاكلة ، إذ كان المعنى لما تكلف من غير وجه الحاجة إليه ، والفائدة فيه لم يعتد به[1] .

ويلاحظ أن « الرمانى » قصر السجع على النوع الثقيل المستكره ، ومن ثم فلم يسم ما جاء على أسلوبه فى القرآن سجعًا ، وإنما سماه فاصلة .

وكلام الرمانى فيه نظر ، لأن السجع الحسن هو ما تطلبه المعنى واستدعاه الحال ، كما قال الإمام عبد القاهر[2] .

كما يقول الباقلانى : ذهب أصحابنا كلهم إلى نفى السجع فى القرآن ؛ وذكره الشيخ أبو الحسن الأشعرى رضى الله عنه فى غير موضع من كتبه .

وذهب كثير ممن يخالفهم إلى إثبات السجع فى القرآن ، وزعموا أن ذلك مما يبين به فضل الكلام ، وأنه من الأجناس التى يقع بها ألتفاضل فى البيان والفصاحة كالتجنيس والالتفات . وما أشبه ذلك من الوجوه التى تعرف بها الفصاحة .

... وهذا الذى يزعمونه غير صحيح ، ولو كان القرآن سجعًا لكان غير خارج عن أساليب كلامهم ، ولو كان داخلاً فيها لم يقع بذلك إعجاز ، ولو جاز أن يقولوا هو سجع معجز ، لجاز أن يقولوا شعر معجز ، وكيف والسجع مما كان يألفه الكهان من العرب ونفيه من القرآن أجدر ، بأن يكون حجة من نفى الشعر ، لأن الكهانة تنافى النبوات وليس كذلك الشعر .

---

(١) النكت فى إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ، ص ٩٧ .

(٢) انظر أسرار البلاغة ، ١٥ .

وقد روى أن النبى ﷺ قال للذين جاءوه وكلموه فى شأن الجنين « كيف ندى من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح فاستهل ، أليس دمه يطل »[١] .

فقال : « أسجاعة كسجاعة الجاهلية » ، وفى بعضها « أسجعًا كسجع الكهان » فرأى أن ذلك مذمومًا لم يصح أن يكون فى دلالته[٢] .

بينما يرى الفريق الآخر جواز إطلاقه على ما جاء فى القرآن الكريم مما اتفقت فيه الفواصل ، لحسن موقعه فى السمع ، وتأثيره فى النفس .

يقول ابن سنان : وأما الفواصل التى فى القرآن ، فإنهم سموها فواصل ولم يسموها أسجاعًا ، وفرقوا فقالوا : إن السجع هو الذى يقصد فى نفسه ، ثم يحمل المعنى عليه ، والفواصل التى تتبع المعانى ولا تكون مقصودة فى أنفسها .

وقال على بن عيسى الرمانى : إن الفواصل بلاغة ، والسجع عيب ، وعلل ذلك بما ذكرناه من أن السجع تتبعه المعانى ، والفواصل تتبع المعانى ، وهذا غير صحيح .

والذى يجب أن يحرر فى ذلك أن يقال : إن الأسجاع حروف متماثلة فى مقاطع الفصول على ما ذكرناه ، والفواصل على ضربين : ضرب يكون سجعًا وهو ما تماثلت حروفه فى المقاطع ، وضرب لا يكون سجعًا ، وهو ما تقاربت حروفه فى المقاطع ولم تتماثل ، ولا يخلو كل واحد من هذين القسمين - أعنى المتماثل والمتقارب - من أن يأتى طوعًا سهلاً وتابعًا للمعانى ، وبالضد من ذلك ، حتى يكون متكلفًا يتبعه المعنى ، فإن كان من

---

(١) يطل : يهدر .

(٢) إعجاز القرآن ، ٥٨ .

القسم الأول فهو المحمود الدال على الفصاحة وحسن البيان ، وإن كان من الثانى فهو مذموم مرفوض .

فأما القرآن فلم يرد فيه إلا ما هو من القسم المحمود ، لعلوه فى الفصاحة ، وقد وردت فواصله متماثلة ومتقاربة ، فمثال المتماثلة قوله تعالى : ﴿ وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾(١) .

وقوله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾(٢) . وجميع هذه السورة على هذا الازدواج ، وهذا جائز أن يسمى سجعًا لأن فيه معنى السجع ، ولا مانع فى الشرع يمنع من ذلك .

ومثال المتقارب فى الحروف قوله تبارك وتعالى : ﴿ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾(٣) .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَـٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾(٤) وهذا لا يسمى سجعًا ، لأنا قد بينا أن السجع ما كانت حروفه متماثلة .

فأما قول الرمانى : السجع عيب والفواصل بلاغة على الإطلاق فغلط ، لأنه إن أراد بالسجع ما يكون تابعًا للمعنى وكأنه غير مقصود فذلك بلاغة ، والفواصل مثله ، وإن كان يريد بالسجع ما تقع المعانى تابعة له ، وهو مقصود متكلف ، فذلك عيب والفواصل مثله »(٥) .

---

(١) سورة الطور : ١ - ٤ .
(٢) سورة القمر : ٢ ، ٣ .
(٣) سورة الفاتحة : ٣ ، ٤ .
(٤) سورة ق : ١ ، ٢ .
(٥) سر الفصاحة ، ١٦٥ .

كما يقول ابن الأثير بعد أن عرف السجع : بأنه تواطؤ الفواصل فى الكلام المنثور على حرف واحد . وقد ذمه بعض أصحابنا من أرباب هذه الصناعة ، ولا أرى لذلك وجهًا سوى عجزهم أن يأتوا به ، وإلا فلو كان مذمومًا ، لما ورد فى القرآن الكريم فإنه قد أتى منه الكثير ، حتى إنه ليؤتى بالسورة جميعها مسجوعة ، كسورة الرحمن وسورة القمر وغيرهما ، وبالجملة فلم تخل منه سورة من السور .

فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لاَّ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً ﴾(١) . وأمثال ذلك كثيرة وقد ورد على هذا الأسلوب من كلام النبى ﷺ شىء كثير أيضًا .. فإن قيل « إن النبى ﷺ قال لبعضهم منكرًا عليه » وقد كلمه بكلام مسجوع : أسجعًا كسجع الكهان ، ولولا أن السجع مكروه لما أنكره النبى ﷺ ، فالجواب عن ذلك أنا نقول : لو كره النبى ﷺ السجع مطلقًا لقال أسجعًا ثم سكت . وكان المعنى يدل على إنكار هذا الفعل ، لم كان ، فلما قال : أسجعًا كسجع الكهان صار المعنى معلقًا على أمر ، وهو إنكار الفعل لم كان على هذا الوجه ، فعلم أنه إنما ذم من السجع ما كان مثل سجع الكهان لا غير ، وأنه لم يذم السجع على الإطلاق ، وقد ورد فى القرآن الكريم ، وهو ﷺ قد نطق به فى كثير من كلامه(٢) .

والحق أن منع إطلاق ذلك عليه رعاية للأدب ، ورغبة فى تنزيه القرآن الكريم عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام .

---

(١) سورة الأحزاب : ٦٤ ، ٦٥ .

(٢) المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ، ص ٧٤ .

السجع والشعر

قيل إن السجع غير مختص بالنثر ، فقد يأتي في الشعر كقول الخنساء في أخيها صخر :

حَامِي الحقيقةْ محمودُ الخليقةْ مَهْـ ـدِيُّ الطَّرِيقَـةْ نَفَّـاعٌ وَضَـرَّارُ[١]

فقد اتفقت فواصله في القاف ، وهو - كما ترى - ظاهر التكلف .

ومن السجع على هذا القول - بأنه يأتي في الشعر - ما يسمى بالتشطير ، وهو أن يجعل كل من شطرى البيت سجعة مخالفة لأختها بأن يكون كل شطر فقرتين تخالف الأوليان منهما الأخريين ، كقول أبي تمام في مدح المعتصم بالله بن هارون الرشيد :

تَدْبِيرُ معتصِمٍ باللهِ منتقمٍ لله مُرْتَغِبٍ في الله مُرْتَقِبِ[٢]

فالشطر الأول مركب من فقرتين متفقتين في الميم ، والشطر الثاني من فقرتين متفقتين في الباء .

يقول ابن يعقوب : لا يخفى أن سجعتي الشطر الأول بالميم ، وسجعتي الثاني بالباء ، فهذا تشطير لأنه جعل سجعتي الشطر الأول مخالفتين لأختيهما من الشطر الثاني ، وقد وجد السجع في البيت بلا سكون ، وبه يعلم أن العدول إلى السكون في السجع إنما هو عند الحاجة إليه ، وقد وصف الممدوح في البيت بأنه ممن يعتصم بالله ، أي يتحصن به تعالى ، ويتوكل عليه ، وينتقم ممن انتقم منه لله أي لأجل أخذ حق الله من ذلك المنتقم منه ، ويرغب فيما عند الله ، ويرتقب من الله تعالى ثوابه ، ويرجوه أن يرفع عنه عذابه فهو خائف راج كما هو صفة المؤمنين [١].

---

(١) الحقيقة : ما يجب على الإنسان أن يحميه من عرض ونحوه ، والخليقة : السجية .

(٢) قوله « بالله » متعلق بمعتصم ، وقوله « لله » متعلق بمنتقم ، وقوله « في الله » متعلق بمرتغب أى راغب في ثوابه ، والمرتقب : الخائف من عقابه .

(٣) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٤٥٥ .

وقد أيد أبو هلال العسكرى وجود السجع فى الشعر إذ يقول : وقد أعجب العرب السجع حتى استعملوه فى منظوم كلامهم ، وصار ذلك الجنس من الكلام منظومًا فى منظوم وسجعًا فى سجع[١] .

والتصريع : جعل العروض مقفاة تقفية الضرب[٢] .

كقول أبى فراس الحمدانى :

بِأَطْرافِ المُثَقَّفَةِ العَوالِى ... تَفَرَّدْنا بِأَوْساطِ المَعالِى[٣]

يريد بأسلحتنا وقوتنا حققنا ما نصبوا إليه من مجد ، وظفرنا بالعلا والمكارم .

وكما ترى - فالعروض « العوالى » والضرب « المعالى » وقد اتفقت العروض مع الضرب فى اللام المكسورة .

يقول صاحب الإيضاح : وهو مما استحسن حتى إن أكثر الشعر صرع البيت الأول منه[٤] .

كقول امرىء القيس :

أَلاَ عِمْ صَبَاحًا أيها الطللُ البَالِى ... وَهَلْ يَنْعَمَنْ مَنْ كان فى العُصُرِ الخالِى[٥]

فالعروض « البالى » متفقة فى التقفية مع الضرب « الخالى » فى اللام المكسورة .

---

(١) الصناعتين ، ص ٢٧٠ .

(٢) الإيضاح ، جـ٦ / ١١١ ، العروض آخر تفعيله فى الشطر الأول من البيت ، والضرب : آخر تفعيله فى الشطر الثانى من البيت .

(٣) المثقفة : المقومة ، العوالى : الرماح ، والأوساط : جمع وسط وهو أفضل شىء فيه .

(٤) الإيضاح ، جـ٦ / ١١٢ .

(٥) عم : فعل أمر من وعم الديار إذا حياها ، الطلل : ما شخص من آثار الديار ، العصر : الدهر ضمت الصاد للوزن ، الخالى : الماضى .

رد العجز على الصدر

المراد برد العجز على الصدر فى النثر : أن يجعل أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين ، أو الملحقين بهما فى أول الفقرة ، والآخر فى آخرها .

كقوله تعالى : ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ﴾(١) .

فأحد اللفظين المكررين فى أول الآية ، والآخر وهو « تخشاه » فى آخرها يقول الشيخ الدسوقى : فقد وقع « تخشى » فى أول هذه الفقرة ، وكرر فى آخرها ولا يضر اتصال الآخر بالهاء فى كونه آخراً ، لأن الضمير المتصل كالجزء من الفعل لأنه لما كان مفعولاً له كان من تتمته(٢) .

وقول القائل « سائل اللئيم يرجع ودمعه سائل » « فسائل » الأولى من السؤال و « سائل » الثانية من السيلان فالكلمتان بينهما جناس اتفقتا فى اللفظ واختلفتا فى المعنى ، وإحداها فى أول الفقرة ، والثانية فى آخرها .

يقول الشيخ الدسوقى : أى طالب المعروف من الرجل الموصوف باللآمة والرذالة وقوله ودمعه سائل ، أى ودمع السائل ، ويحتمل دمع اللئيم وهو أبلغ فى ذم اللئيم حيث لا يطيق السؤال(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ﴾(٤) .

فقد وقعت « استغفروا » فى أول الفقرة ، و « غفاراً » فى آخرها ، والكلمتان يجمعهما الاشتقاق .

---

(١) سورة الأحزاب : ٣٧ .
(٢) حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٤٣٤ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٤٣٤ .
(٤) سورة نوح : ١٠ .

يقول ابن يعقوب : فبين « استغفروا » و « غفارًا » شبه التجانس بالاشتقاق لأن مادتهما « المغفرة » ولم يعتبر فى الآية لفظ « فقلت » قبل « استغفروا » لأن « استغفروا » هو أول الفقرة فى كلام نوح على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام وهى المعتبرة أولا ، ولفظ « قلت » لحكايتها[١] .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴾[٢] .

فبين « قال » و« القالين » شبه اشتقاق ، وقال فى أول الفقرة و« القالين » فى آخرها . وقال من القول ، والقالين من القلى وهو البغض والكره .

والمراد برد العجز على الصدر فى الشعر : أن يكون أحدهما فى أخر البيت والآخر فى صدر المصراع الأول ، أو حشوه أو آخره أو صدر الثانى[٣] ويرد على الصور الآتية :

فى اللفظين المكررين :

(أ) ما كان اللفظان فيها مكررين أحدهما فى أول الصدر ، والآخر فى آخر العجز كقول الأقيشر الأسدى :

سَرِيعٌ إلى ابنِ العمِّ يَلطمُ وَجْهَهُ ... وليسَ إلى دَاعِ النَّدَى بِسَرِيعِ[٤]

« فسريع » الأولى فى صدر البيت ، والثانية فى آخره ، ومعناها واحد .

يقول ابن يعقوب : أى هذا المذموم سريع إلى الشر واللآمة فى لطمة وجه ابن العم ، وليس بسريع إلى العمل بما يدعى إليه من الندى أى الكرم فسريع الثانى فى آخر المصراع الثانى ، والأول وهو مكرر فى أول المصراع الأول[٥] .

---

(١) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٤٣٤ .

(٢) سورة الشعراء : ١٦٨ .

(٣) الإيضاح ، جـ ٦ / ١٠٢ .

(٤) الندى : الكرم .

(٥) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٤٣٦ .

(ب) ما يكون أحد اللفظين المكررين فى آخر البيت ، والثانى فى حشو المصراع الأول كقول الصمة بن عبد الله القشيرى :

تَمَتَّعْ مِنْ شَمِيمِ عَرَارِ نجدٍ　　فما بعد العَشِيَّةِ من عَرَارِ(١)

« فعرار » الأولى تقع فى وسط الشطر الأول من البيت ، وهو مكرر مع « عرار » العجز ، ومعنى البيت أنه يأمر بالاستمتاع بشم عرار نجد ، وهى وردة ناعمة صفراء طيبة الرائحة ، لأن الحال يضطرهم إلى الخروج من نجد ومنابته عند المساء بالسفر عنها(٢) .

(جـ) ما يكون أحد المكررين فى آخر البيت ، والثانى فى آخر المصراع الأول كقول أبى تمام :

وَمَنْ كَانَ بالبيضِ الكواعب مُغْرَمًا　　فَمَا زِلْتُ بالبيضِ القواضبِ مُغْرَمًا(٣)

فالكلمة الأولى « مغرمًا » فى آخر الشطر الأول ، والكلمة الثانية « مغرمًا » فى آخر البيت .

يريد : أن من كانت لذته فى مخالطة الإناث الحسان ، فلا ألتفت إليه لأنى ما زالت لذتى بمخالطة السيوف القواطع : واستعمالها فى محالها من الحروب(٤) .

(د) ما يكون أحد المكررين آخر البيت ، والثانى فى صدر المصراع الثانى كقول ذى الرمة :

---

(١) العرار : ورد ناعم أصفر طيب الرائحة ، وشميم : مصدر شم .

(٢) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٤٣٧ .

(٣) الكواعب : جمع كاعب ، وهى الجارية حين يبدو ثديها للنهوض ، والبيض القواضب : السيوف القواطع .

(٤) انظر حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٤٣٧ .

وإنْ لَمْ يكن إلا مُعَرَّجَ ساعةٍ قَلِيلاً فإني نَافِعٌ لى قَلِيلُهَا[١]

فالكلمة الأولى « قليلاً » فى أول الشطر الثانى ، والكلمة الثانية « قليلها » فى آخر البيت .

يقول ابن يعقوب : فقليلاً الأول فى صدر المصراع الثانى ، وهو مكرر مع قليلها فى العجز ، ولا تضر الهاء فى كونه فى العجز ، لما تقدم أن الضمير المتصل ، حكمه حكم ما اتصل به .. أى إن لم يكن ذلك النزول ، وذلك التصريح إلا شيئًا قليلاً فهو نافع لى يذهب بتذكر الأحباب فيه بعض همى ، ويشفى غليلى ، ويرفع حزنى ووجدى[٢] .

فى اللفظين المتجانسين :

(أ) أن يقع فيه اللفظان المتجانسان أحدهما فى أول الصدر والثانى فى آخر العجز . كقول القاضى الأَرَّجَانِى :

دَعَانِى من ملامكما سِفَاهًا فَدَاعِي الشوق قبلكما دَعَانى[٣]

فبين كلمتى « دعانى » فى أول البيت و « دعانى » فى آخره جناس ، لاتفاقهما فى اللفظ واختلافهما فى المعنى .

يقول ابن يعقوب : فدعانى الأول بمعنى اتركانى ، وهو فى صدر المصراع الأول والثانى وهو فى العجز بمعنى الدعوة ، والسفاه بفتح السين الخفة وقلة العقل ، ويروى بكسر الشين المعجمة ، بمعنى المشافهة والمواجهة بالكلام .

---

(١) معرج مصدر ميمى بمعنى الوقوف واللبث .

(٢) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٤٣٨ .

(٣) دعانى : فى صدر البيت بمعنى اركانى ، وفى آخره بمعنى نادانى ، والسفاه : الخفة وقلة العقل .

والمعنى : اتركانى من لومكما الواقع منكما لأجل سفهكما وقلة عقلكما ، أو الواقع منكما مشافهة من غير استحاء ، فإنى لا ألتفت إلى ذلك اللوم لأن الداعى للشوق الموجب لغلبته على قد دعانى لذلك الشوق ، ونادانى إليه فأجبته ، فلا أجيبكما بعده ، وذلك الداعى للشوق هو جمال المشتاق إليه(١) .

(ب) ما وقع فيه أحد اللفظين المتجانسين فى حشو الصدر ، والاخر فى آخر العجز كقول أبى منصور الثعالبى :

وَإِذَا البلابلُ أفصحتْ بِلُغَاتِهَا فانفِ البلابل باحتساءِ بلَابِلِ(٢)

فبين كلمتى « البلابل » التى فى حشو الشطر الأول و« بلابل » التى فى نهاية البيت جناس لاتفاقهما لفظًا واختلافهما معنى .

يقول ابن يعقوب : إن الصوت الحسن مما يحرك الأشواق ، ويقوى الدواعى إلى التلاقى ، والمثال باعتبار لفظ البلابل الأول ، مع البلابل الأخرى .

وأما المتوسطة ، فإنما يكون من هذا الباب مع ما بعده على مذهب السكاكى الذى يعتبر فى رد العجز على الصدر حشو المصراع الثانى(٣) .

(جـ) ما وقع فيه أحد اللفظين المتجانسين فى آخر الصدر ، والثانى فى آخر العجز .

---

(١) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٣٣٩ .

(٢) البلابل الأولى : جمع بلبل وهو طائر يضرب به المثل فى طلاقة اللسان ، والثانية جمع بلبال وهو الهم ، والثالثة جمع بلبل ، وهو قناة الابريق التى يصب منها الخمر والاحتساء : الشرب ؛ وقوله : أفصحت بلغاتها بمعنى أخلصت فى نغماتها .

(٣) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٤٣٩ .

كقول الحريري :

فَمَشْغُوفٌ بآيات المثانِي ومفتونٌ بِرَنّاتِ المثانِي[١]

فبين كلمتي « المثاني » التي في آخر الشطر الأول ، و« المثاني » التي في آخر البيت جناس .

يقول ابن يعقوب : البيت في نفسه يحمل معنيين : أحدهما أن يكون الموصوف واحداً ، أي هذا مشغوف بآيات القرآن وتلاوتها ، ومفتون مع ذلك لرقة قلبه برنات المزامير ، وأن يكون اثنين أي فهناك مشغوف بالآيات يهتدي بها ويتذكر بها ، وآخر مفتون بنغمات المزامير غفلة منه عن الدار الآخرة ومقام إنشاد البيت قبله يعين أحدهما[٢] وقد تعين الثاني لأن البيتين للحريري ، ومقامهما يقتضي المعنى الثاني[٣] .

(د) ما وقع فيه أحد اللفظين المتجانسين في آخر البيت والثاني في أول العجز .

كقول القاضي الأرجاني :

أَمَّلْتُهُمْ ثم تَأَمَّلْتُهُمْ فَلاَحَ لي أنَّ ليس فيهم فَلاَحْ[٤]

فبين كلمتي « فلاح » التي في أول الشطر الثاني و« فلاح » التي في آخر البيت جناس . الأول بمعنى ظهر ، والثانية بمعنى الفوز والإقامة على الخير .

---

(١) المشغوف : المولع ، والمراد بالمثاني في الأول القرآن الكريم ، وفي آخر البيت : أوتار المزامير ، ورناتها : نغماتها .

(٢) قبل البيت :

بها ما شئت من دين ودنيا وجيران تنافوا في المعاني

(٣) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٤٤٠ .

(٤) أملتهم : بمعنى رجوت خيرهم ، وقوله : تأملتهم بمعنى : فكرت في أحوالهم .

فى اللفظين الملحقين بالمتجانسين للاشتقاق :

(أ) ما يكون اللفظان الملحقان بالمتجانسين يجمعهما الاشتقاق وأحدهما فى آخر البيت والثانى فى صدر المصراع الأول .

كقول السرى الرفاء :

ضَرَائبُ أبدَعْتَها فى السَّمَاحِ فَلَسْنَا نرى لك فيها ضَرِيبًا(١)

فإن كلمتى « ضرائب » فى أول البيت ، « وضريب » فى آخر البيت ملحقتان بالمتجانستين لأنهما يرجعان إلى أصل واحد فى الاشتقاق .

يقول الشيخ الدسوقى : إن هذا مثال للفظين المتقابلين الملحقين بالمتجانسين ، من جهة الاشتقاق ، وقد وقع أحدهما فى عجز البيت ، والثانى المقابل له فى صدر المصراع الأول ووجه كونها ملحقين بالمتجانسين من جهة الاشتقاق ، أن ضرائب وضريبًا يرجعان لأصل واحد وهو الضرب(٢) .

(ب) أن يكون اللفظان الملحقان بالمتجانسين ، يجمعهما الاشتقاق ، وأحدهما فى آخر البيت والثانى فى حشو المصراع الأول .

كقول امرىء القيس :

إذا المرءُ لم يَخْزُنْ عليه لِسَانَهُ فليس على شىء سِوَاهُ بِخَزَّانِ(٣)

يريد : إذا لم يحفظ الإنسان سر نفسه ، لم يحفظ سر غيره من باب أولى .

---

(١) الضرائب : جمع ضريبة وهى السجية والطبيعية والعطرة ، والضريب : المثيل والنظير ، انظر معاهد التنصيص ، جـ٣/ ٢٧٨ .

(٢) حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص ، جـ٤ / ٤٤١ .

(٣) لم يخزن : لم يحفظ ، والمراد من اللسان : السر .

فالفعل « يخزن » وصيغة المبالغة « خزان » فى آخر البيت مما يرجعان فى الاشتقاق إلى أصل واحد .

يقول ابن يعقوب « فيخزن » فى حشو المصراع الأول - كما رأيت - وهو مشتق مع « خزان » الذى فى العجز من « الخزن »[١] .

(جـ) أن يكون اللفظان الملحقان بالمتجانسين يجمعهما الاشتقاق ، وأحدهما فى آخر البيت ، والثانى فى آخر المصراع الأول .

كقول ابن عينية المهلبى :

قَدَعِ الوعيدَ فما وَعيدُكَ ضَائِرِى   أَطَنِينُ أجنحة الذبابِ يَضِيرُ[٢]

« فضائر » و« يضير » يجمعهما الاشتقاق .

يقول ابن يعقوب : فبين « ضائر » و « يضير » اشتقاق ملحق والأول منهما فى آخر المصراع الأول ، والثانى فى العجز ، والمعنى أن وعيدك ، أى إخبارك بأنك تنالنى بمكروه دعه ، فإنه لا يجديك معي شيئًا لأنه بمنزلة طنين أجنحة الذباب ، وذلك الطنين لا يبالى به « فكذا وعيدك »[٣] .

(د) أن يكون اللفظان الملحقان بالمتجانسين يجمعهما الاشتقاق ، وأحدهما فى اخر البيت ، والآخر فى صدر المصراع الثانى .

كقول أبى تمام فى رثاء محمد بن حميد :

وَقَدْ كَانَتِ البيضُ القَواضِبُ فى الوغَى   بواترَ وهى الآن من بعده بُتْرُ[٤]

---

(١) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٤٤١ .

(٢) الوعيد : التهديد بالشر ، والضائر : اسم فاعل من الضمير وهو الضرر .

(٣) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٤٤٤ .

(٤) الضمير فى بعده للمرثى محمد بن حميد - البيض القوابض : السيوف القواطع ، الوغى : الحرب ، والبواتر : القواطع والبتر : جمع أبتر ، وهو المقطوع ، أو مقطوع الذنب ، والمراد أنها مقطوعة الفائدة .

يريد أنها كانت قواطع فى عهده لحسن استعماله لها ، فلما مات لم تجد من يحسن استعمالها فصارت مقطوعة الفائدة .

وكما ترى ، « فالبواتر » و « البتر » يرجعان فى أصلهما إلى اشتقاق واحد .

يقول ابن يعقوب : فالبواتر فى صدر المصراع الثانى والبتر فى العجز ، وهما مأخوذان من مادة البتر(١) .

هذا . وأسلوب رد الصدر على العجز ، يؤكد المعانى ، ويجمل الألفاظ وقد أشاد به أبو هلال العسكرى بقوله : إن لرد الإعجاز على الصدور موقعًا جليلاً فى البلاغة ، وله فى المنظوم خاصة محلاً خطيرًا(٢) .

كما أثنى عليه ابن رشيق إذ يقول فى كتابه « العمدة » تحت باب التصدير « هو أن يرد إعجاز الكلام على صدوره ، فيدل بعضه على بعض ، ويسهل استخراج الشعر إذا كان كذلك ، وتقتضيها الصنعة ، ويكسب البيت الذى يكون فيه أبهة ، ويكسوه رونقًا وديباجة ويزيده مائية وطلاوة »(٣) .

---

(١) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ، جـ٤ / ٤٤٤ .
(٢) الصناعتين ، ص ٤٠٠ .
(٣) الإيضاح ، جـ٦ / ١١٥ .

لزوم ما لا يلزم

لزوم ما لا يلزم : أن يجيء قبل حرف الروى ، أو ما معناه من الفاصلة ما ليس بلازم فى مذهب السجع(١) .

كقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ * وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ ﴾(٢) .

وكقوله تعالى : ﴿ فأما اليتيم فلا تنهر ، وأما السائل فلا تنهر ﴾(٣) .

يقول ابن يعقوب : فالراء فى تقهر وتنهر بمنزلة الروى من القافية ، فى التواطؤ على الختم به ، وهو كاف فى باب السجع فى الفواصل ، إذ لا يشترط فيه إلا التواطؤ فى الحرف الواحد ، وقد جاء قبل تلك الراء فيهما هاء ، فكان التزام الهاء فى الفاصلتين من التزام ما لا يلزم فيهما لتحقيق السجع بدون تلك الهاء ، كما لو ختمت فاصلتين بتقهر ويسخر ، فإنه سجع ، ولو اختلف الحرف الذى قبل الآخر(٤) .

وقول شوقى فى المال يا مال ، الدنيا أنت ، والناس حيث كنت سحرت القرون ، وسخرت من قارون ، يا نيرون(٥) .

فقد التزم شوقى فى هذا السجع حرفًا قبل الحرف الأخير الذى تواطأت عليه الفواصل .

---

(١) الإيضاح ، جـ٦ / ١١٥ .
(٢) سورة الأعراف : ٢٠١ ، ٢٠٢ .
(٣) سورة الضحى : ١٠ .
(٤) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٤٦٥ .
(٥) نيرون قيصر من قياصرة الرومان ، أشعل النار فى روما ، وجلس على جبل ليبتهج بمنظر الحريق .

وقول عبد الله بن الزبير الأسدى فى مدح عمرو بن عثمان بن عفان :

سأشكر عمراً ما تراخت مَنيّتى ... أيادىَ لم تمنن وإن هىَ جَلّتِ(١)
فتىً غير محجوب الغنى عن صديقه ... ولا مُظْهِرَ الشكوى إذا النعلِ زلت
رأى خُلّتى من حيثُ يخفى مكانُها ... فكانت قَذَى عينيه حتى تجلّتِ(٢)

وكما ترى ، فقد التزم اللام المشددة ، والفتحة قبلها فى الأبيات الثلاثة .

يقول ابن يعقوب : وفى هذا الكلام من القوة ما لا يخفى ، فحرف الروى هو التاء ، وقد جىء قبله بلام مشددة مفتوحة فى هذه الأبيات ، والإتيان بها ليس بلازم فى السجع ، فكان من التزام ما لا يلزم ، فإنك لو ختمت قرائن فتجلت ومدت وحقت وانشقت ونحوها ، كان توافق فواصلها فى التاء سجعًا وإن اختلفت فيما قبلها(٣) .

وقول أبى العلاء المعرى :

يقولونَ فى البستانِ للعينِ لَذّةً ... وفى الخمرِ والماءِ غيرُ آسنِ
إذا شئتَ أن تلقىَ المحاسنَ كُلّها ... ففى وَجْهِ مَنْ تهوى تَلْقَى المحاسن(٤)

فقد التزم أبو العلاء السين والألف قبلها ، ولم يكتف بحرف الروى وهو النون المكسورة .

وقول أبى العلاء أيضًا :

---

(١) لم تمنن : لم تقطع أو تخلط بمنه والمراد بالأيادى النعم .

(٢) قوله : إذا النعل زلت : كناية عن نزول الشر ، وزلت بمعنى زلقت ، والخلة الحاجة ، والقذى : الرمد ، و ،قوله تجلت : بمعنى انكشفت .

(٣) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٤٦٦ .

(٤) الذى غير آسن : تقديره : الذى هو غير آسن ، فحذف فيه صدر الصلة ، والآسن : المتغير وتهوى : بمعنى تحب .

أنا صائمٌ طولَ الحياةِ وإنما ... فِطرى المماتُ فعند ذاكَ أُعَيِّدُ
لونانِ من صُبْحٍ وليلٍ شَيَّبَا ... رَأْسِي وأضعفَنِي الزمانُ الأَيِّدُ(١)

فقد التزم الياء المشددة .

وقول جعفر الغرناطى :

نَاوَلْتُهُ وَرْدَةً فَاحمرَّ من خجلٍ ... وَقَالَ وجهى يُغنينى عن الزَّهَرِ
الخدُّ وردٌ وعينى نرجسٌ وعلى ... خَدَّى عِذَارٌ كريحانٍ على نَهْرِ(٢)

وكما ترى ، فقد التزم جعفر الغرناطى بالهاء .

هذا . وأسلوب « لزوم ما لا يلزم » من محاسن الكلام إذا وفق فيه الأديب ، فجاء عفو الخاطر ، وكان المعنى هو الذى يقود إليه ويستدعيه .

يقول ابن الأثير : هو من أشق هذه الصناعة مذهبًا ، وأبعدها مسلكًا ، وذاك لأن مؤلفه يلتزم ما لا يلزمه ، فإن اللازم فى هذا الموضع وما جرى مجراه إنما هو السجع الذى هو تساوى أجزاء الفواصل من الكلام المنثور فى قوافيها ، وهذا فيه زيادة على ذلك ، وهو أن تكون الحروف التى قبل الفاصلة حرفًا واحدًا ، وهو فى الشعر أن تتساوى الحروف التى قبل روى الأبيات الشعرية ، وقد جمع أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان فى ذلك كتابًا ، وسماه كتاب اللزوم ، فأتى فيه بالجيد الذى يحمد ، والردىء الذى يذم(٣) .

---

(١) الأيد : القوى الشديد .
(٢) النرجس : نبت من الرياحين ، ومنه أنواع تزرع لجمال زهرها وطيب رائحته ، وزهرته تشبه بها الأعين والعذار جانب اللحية - معاهد التنصيص ، جـ٣ / ٩٠٧ .
(٣) المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ، ص ١٩٦ .

الموازنة والمماثلة

الموازنة : أن تكون الفاصلتان متساويتين فى الوزن دون التقفية[١] كقوله تعالى : ﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾[٢] .

فلفظا « مصفوفة ومبثوثة » متساويان فى الوزن لا فى التقفية ، لأن الأول على الفاء ، والثانى على الثاء ، ولا ينظر إلى تاء التأنيث ، لأنها لا تعد من حروف القافية لإبدالها هاء فى الوقف .

يقول ابن يعقوب : فالفاصلة فى الفقرة الأولى « مصفوفة » وفى الثانية « مبثوثة » وهما متفقان فى الوزن الشعرى دون التقفية ، ضرورة مخالفة الفاء فى الأولى للثاء فى الثانية ، ولا عبرة بهاء التأنيث فى التقفية على ما تقرر ذلك فى علم الشعر[٣] .

هذا . وإذا كان ما فى إحدى القرينتين من الألفاظ أو أكثر ما فيها مثل ما يقابله من الأخرى فى الوزن خص باسم المماثلة .

كقوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ * وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾[٤] فالكتاب من القرينة الأولى ، موازن للصراط من الثانية ، والمستبين من الأولى موازن للمستقيم من الثانية ، والمفعول « هما » من الأولى ، متفق مع المفعول هما فى الثانية ، وكذلك الفاعل « نا » فى الأولى متفق مع الفاعل « نا » فى الثانية ، ولا خلاف إلا فى الفعل .

---

(١) الإيضاح ، جـ٦ / ١١٢ والمراد بالفاصلتان الكلمتان الأخيرتان من الفقرتين أو المصراعين .

(٢) سورة الغاشية : ١٥ ، ١٦ ، النمارق : الوسادة الصغيرة ، الزرابى : البسط الفاخرة ، مبثوثة مفروشة .

(٣) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ، جـ٤ / ٤٥٦ .

(٤) سورة الصافات : ١١٧ ، ١١٨ .

وقول أبي تمام :

مَهَـا الوحشِ إلا أن هَاتَا أَوَانِسٌ قَنَـا الخـطِّ إلا أن تِـلْـكَ ذَوَابِـلُ[١]

فإن « مها » من الشطر الأول ، موازن « لقنا » في الشطر الثاني ، و« أوانس » من الشطر الأول موازن لذوابل من الشطر الثاني ، وقوله « إلا أن » متفق في الشطرين وأما « هاتا » في الشطر الأول ، و « تلك » في الشطر الثاني فهما غير متوازيين .

وقول البحتري :

فَأَحْجَمَ لما لم يَجِدْ فيكَ مَطْمَعًا وأقدَمَ لما لم يَجِدْ عنكَ مَهْرَبًا[٢]

فإن « أقدم » في الشطر الثاني موازن « لأحجم » في الشطر الأول ، و « لما يجد » في الشطر الثاني موازن لنظيرتها في الشطر الأول و « عنك » موازن لـ« فيك » و « مهربًا » موازن لـ« مطمعًا » وليس في البيت موافقة في التقفية .

يقول ابن يعقوب : ولا شك أن كل لفظ من المصراع الأول موازن لما يقابله من المصراع الثاني والمعنى : أن هذا الاسد لما لم يجد فيك لقوتك عليه طمعًا في تناولك فأحجم ، ولما عرف أنه لا ينجو منك أقدم دهشا فإقدامه تسليم منه لنفسه لعلمه بعدم النجاة لا للشجاعة ، وهذا النوع وهو تساوى الكل هو الأحسن والتزمه في أكثر مديحه[٣] .

---

(١) المها : جمع مهاة : وهي هنا البقرة الوحشية ، الخط : موضع تنسب إليه الرماح المستقيمة ، والقنا : الرماح ، الذوابل : الأغصان الجافة .

(٢) البيت من قصيدة للبحترى ، في وصف مبارزة الفتح بن خاقان للأسد ، والضمير في قوله « أحجم » للأسد الذى بارزه ، والمطمع : محل الطمع ، والمهرب : محل الهرب .

(٣) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٤٥٩ .

هذا . وأسلوب الموازنة يضفى على الكلام الجمال والبهاء وقد أثنى عليه ابن الأثير وجعله مما يرتفع به قدر الكلام .

يقول ابن الأثير : وللكلام بذلك طلاوة ورونق وسببه الاعتدال لأنه مطلب في جميع الأشياء .

وإذا كانت مقاطع الكلام معتدلة وقعت من النفس موقع الاستحسان وهذا لا مراء لوضوحه[١] .

---

(١) المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ، ص ١١١ .
شرط ابن الأثير فى السجع التوافق فى الوزن وفى الثقفية ، أى الحرف الأخير وشرط فى الموازنة التوافق فى الوزن ، ولم يشترط التوافق فى الحرف الأخير ، وهو التوافق فى التقفية ، فالموازنة عنده الكلام الذى يقع فيه التوافق فى الوزن ، سواء كان مع ذلك متفقًا فى الشقفية أم لا ، فالسجع عنده أخصر من الموازنة لأنه شرط فيه ما فى الموازنة وزيادة ، فنحو « سرر مرفوعة وأكواب موضوعة » سجع وموازنه ، ونحو « شديد وقريب » إذا ختم بهما قرينتان ، لا يكون من السجع لعدم الثقفية . ويكون من الموازنة لوجود الوزن ، واعترض عليه بأنه يلزم على كلامه أن نحو « مالكم لا ترجون لله وقارًا ، وقد خلقكم أطوارًا » ليس من السجع لعدم الوزن ، ولا من الموازنة لذلك أيضًا فيكون خارجًا عن النوعين ، وهو فى غاية البعد .
انظر حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٤٥٦ والمثل السائر ، ص ١١١ .

التضمين

التضمين : أن يضمن الشاعر كلامه شيئًا من شعر الغير مع التنبيه عليه إن لم يكن مشهورًا عند البلغاء ونقاد الشعر(١) فإن كان مشهورًا فلا حاجة إلى التنبيه .

كقول ابن التلميذ :

كَانَتْ بُلَهْنِيةُ الشبيبةِ سَكْرَةً ... فصحوتُ واستبدلتُ سِيرةَ مُجْمِلِ
وقعدتُ أنتظرَ الفناء كراكبٍ ... عَرَفَ المحلَّ فباتَ دون المنزلِ(٢)

يريد : كان رخاء عهد الشباب وسعته ولينه غفلة بيد أني انتبهت من هذه الغفلة . وسرت سيرة المعتدل غير المفرط أو سيرة الصابر على الدهر غير مظهر مذلة وقد جلست انتظر الموت حالى كحال راكب عرف مكان الحلول والنزول والمقام فانتظر قريبًا من المنزل .

فالبيت الثانى لمسلم بن الوليد الأنصارى وقد أخذه الشاعر وضمنه شعره من غير تنبيه على الأخذ لشهرة نسبة البيت لصاحبه .

وقول الصولى(٣) :

خُلِقْتُ علي بابِ الأميرِ كَأَنَّنِي ... قِفانبكِ من ذِكرَى حبيبٍ ومنزلِ
إذا جئتُ أشكُو طولَ ضيقٍ وفاقةٍ ... يقولونَ لا تَهْلِكْ أَسًى وتجمَّلِ
ففاضَتْ دموعُ العينِ من سوءِ ردهمُ ... على النحرِ حتى بَلَّ دَمْعِيَ مِحْمَلِي
لقدْ طالَ تِرْدَادِي وقصدِي إليكمُ ... فهلْ عند رسمٍ دارسٍ من مُعَوَّلِ

---

(١) بهذا التنبيه يتميز التضمين عن السرقة .

(٢) البلهنية : رخاء العيش ، المجمل : المعتدل المحل : مكان الحلول والنزول . والفناء : الموت ، دون : قريب .

(٣) العمدة ، جـ ٢ / ٦٨ .

فقد ضمن الشاعر فى أبياته قسيمًا من شعر امرئ القيس فى معلقته المشهورة :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل	بسقط اللوى بين الدخول فحومل
وقوفًا بها صحبي علي مطيهم	يقولون لا تهلك أسى وتجمل
وإن شفائى عبرة مهراقة	فهل عند رسم دارس من معول[١]

يريد امرؤ القيس : قفا نبك عند طرف الرمل المعوج الكائن بين الدخول فحومل ولقد وقفوا لأجلى ، وأنا قاعد عند رواحلهم يقولون لاتهلك من فرط الحزن وتجمل بالصبر فسالت دموع عينى من فرط وجدى بهما وشدة حنينى إليهما حتى بل دمعى حمالة سيفى .

وإن شفائى مما بى بكائى ، ولا ينفع البكاء عند رسم دارس

أما تضمين البيت مع التنبيه على أنه من شعر الغير فكقول عبد القاهر ابن طاهر التميمى من كبار الشافعية :

إذا ضاق صدرى وخفت العدى	تمثلت بيتًا بحالى يليق
فبالله أبلغ ما أرتجى	وبالله أدفع ما لا أطيق[٢]

يريد : إذا ضاق صدرى بكثرة الهموم والأحزان ونزل بى من مكروه فإنى أتمثل ببيت من الشعر يخفف عنى لوعتى وألمى ويدفع عنى حزنى وغمى ، وهو أنى أبلغ أملى ورجائى بالله لا بغيره وأدفع ما لا أطيق بالله لا بسواه .

---

(١) نصب وقوفًا على الحال ، والوقوف جمع واقف ، والصحب : جمع صاحب ، المطى : المراكب والواحدة مطية ، والصبابة : رقة الشوق ، والمحمل : حملة السيف والنحر : أعلى الصدر والمهراق : المصبوب ، وقد أرقته وهرقته : أى صببته ، والعبرة : الدمع وجمعها عبرات والمعول : المبكى : قد أعول الرجل إذ بكى رافعًا صوته به .

(٢) ضاق صدرى : كثرت همومى ، العدى : الأعداء ، تمثلت بيتًا : اتخذته مثلا أستفيد منه .

وكما ترى ، فقد نبه الشاعر على التضمين بقوله « تمثلت بيتا بحالى يليق » وذلك لعدم شهرة البيت المضمن لدى النقاد والبلغاء .

وتضمين المصراع مع التنبيه عليه كقول الحريرى يحكى ما قاله الغلام الذى عرضه أبو زيد السروجى بطل مقاماته للبيع :

على أنى سأنشد عند بيعى ... أضاعونى وأى فتى أضاعوا

فالمصراع الأخير للعرجى من أبيات قالها فى حبسه ومنها :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ... ليوم كريهة وسداد ثغر

كأنى لم أكن فيهم وسيطًا ... ولم تك نسبتى فى آل عمرو(١)

ولا يضر التغيير اليسير فى التضمين ليدخل فى معنى الكلام كقول ضياء الدين موسى بن ملهم فى يهودى به داء الثعلب(٢) :

أقول لمعشر غلطوا وغضوا ... عن الشيخ الرشيد وأنكروه

هو ابن جلا وطلاع الثنايا ... متى يضع العمامة تعرفوه(٣)

فالبيت الثانى لسحيم بن وثيل وأصله :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا ... متى أضع العمامة تعرفونى(٤)

---

(١) أى اسم استفهام أريد به التعظيم ، مفعول مقدم لاضاعوا ، يريد فتى كاملاً من الفتيان ، واللام فى قوله : ليوم - بمعنى فى ، متعلقة بأضاعوا ، والكريهة الحرب ، وسداد الثغر : سده على الأعداء بالخيل والرجال ، والثغر : موضع المخافة من ثغور البلدان .

(٢) مرض يسقط شعر الرأس .

(٣) لمعشر « جماعة اليهود » ، غضوا : أعرضوا ، الرشيد : المراد : الغوى على سبيل التهكم مبالغة فى الذم ، جلا : صفة لمحذوف تقديره : شعر جلا وانكشف ، والمراد بالثنايا : مقدم أسنانه لأنها كانت بارزة ، والمراد بالعمامة : عمامته التى يضعها على رأسه وهذا خلاف المراد من بيت سحيم .

(٤) جلا : كشف الأمور ، والثنايا : جمع ثنية وهى الطريق فى أعلى الجبل ، أو الطريق الصعب منه والمراد بالعمامة : عمامة الحرب .

فقد أخذ ضياء الدين بيت سحيم وغيره إلى صيغة الغيبة ليتلاءم مع مقصده وهو ذم اليهودى .

يقول ابن يعقوب : مراد الشاعر الأول الافتخار وأنه ابن رجل جلا أمره واتضح ، وأنه متى يضع العمامة للحرب وتوجه له يعرف قدره فى الحرب ونكايته بناء على أن المراد بالعمامة ملبوس الحرب أو متى يضع لثامه يعرف لشهرته .

ومراد الثانى التهكم باليهودى ، وأنه ابن صاحب شعر جلا الرأس منه وانكشف عن الرأس ، وأنه طلاع الثنايا ، أى ركاب صعاب الأمور ، وهى مشاق داء الثعلب ، ومشاق الذل والهوان ومراده بالرشيد الغوى على وجه التهكم .. وإنما غيره إلى الغيبة ليدخل فى المقصود ويناسبه وهو كون من نسب إليه ما ذكر على وجه التهكم ، متحدث عنه ، لا متحدث عن نفسه ، كما فى الأصل[١] .

هذا . وربما سمى تضمين البيت فما زاد عنه « استعانة » لأنه لكثرته كأن الشاعر قد استعان به وتقوى على تمام المراد .

كما أنه ربما سمى أيضًا تضمين المصراع فما دونه « إيداعًا » لأنه لقلته كأنه أمانة أودعت عند من له سعة ، وقد يسمى « رفوا » فكأنه لقلته أصلح به خرق شعره كما يرفأ الثوب بالخيط الذى هو من جنسه[٢] .

هذا . وأسلوب « التضمين » يكشف عن مهارة الأديب الفائقة فى إحكام الصلة بين كلامه ، وما أخذه من شعر الغير ، كما أنه يزداد به حسنا ويستعير من قوته قوة .

---

(١) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٥٢٠ .
(٢) انظر شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٥٢٠ .

الاقتبـــاس

الاقتـبـاس : أن يضمن الكلام نثرا كان أو نظمًا شيئا من القرآن الكريم أو الحديث الشريف على وجه لا يشعر بأنه منهما .

يقول الشيخ الدسوقى : أى كلا ما يشبه القرآن أو الحديث ، فليس المضمن نفس القرآن أو الحديث ، لأنه يجوز فى اللفظ المقتبس تغيير بعضه ، ويجوز نقله من معناه الوارد فيه ، فلو كان المضمن هو القرآن حقيقة كان نقله عن معناه كفرا ، وكذا تغييره(١) .

كقول الحريرى « أنا أنبئكم بتأويله ، وأميز صحيح القول من عليله »(٢) .

وقول ابن نباته الخطيب : فيا أيها الغفلة المطرقون ، أما أنتم بهذا الحديث مصدقون ما لكم لا تشفقون ؟ فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون »(٣) .

وقوله - وأيضًا - من خطبة ذكر فيها يوم القيامة : هناك يرفع الحجاب ، ويوضع الكتاب ، ويجمع من وجب له الثواب ، وحق عليه العقاب ، فيضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة ، وظاهره من قبله العذاب(٤) .

---

(١) حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص ، جـ٤ / ٥١٠ .

(٢) قوله : « أنا أنبئكم بتأويله » مقتبس من قوله تعالى : ﴿ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ يوسف ٤٥ بتأويله : أى بتبيينه وتوضيحه وتفسيره بما يؤول إليه ، وأميز صحيح القول من عليله أى أحسنه من قبيحه .

(٣) الغفلة : جمع غافل وهو الساهى ، المطرقون : من أطرق إلى اللهو مال إليه ، أو من أطرق بمعنى سكت ولم يتكلم ، وقوله « فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون » مقتبس من قوله تعالى : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ الذاريات ٢٣ .

(٤) مقتبس من قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ الحديد ١٣ .

وقولهم « رب حقود ينصب لأخيه شراً كالحتفه ، ولا يحيق المكر السئ إلا بأهله »[١] وقولهم « العالم سراج هذه الأمة ، والجاهل مصدر البلاء والغمة ، وإذا افتخر الجهال بالمال الذى يكنزون فقل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون »[٢] .

وقول الشجاعي :

لَا تُعَاشِرْ مَعْشَراً ضَلُّوا الهُدَى ... فَسَوَاءٌ أقبلُوا أو أدْبَرُوا

بَدَتِ البغضاءُ من أفْواهِهِم ... والَّذِي يُخْفُونَ منها أكبرُ[٣]

يقول صاحب الإيضاح : ولا بأس بتغيير يسير لأجل الوزن ، كقول بعض المغاربة عند وفاة بعض أصحابه :[٤]

قد كان ما خفت أن يكونا ... إنا إلى الله راجعونا

وقد علق ابن يعقوب على قول الشاعر بأنه اقتبسه من قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾[٥].

فقد نقص مما أخذ من الآية « اللام » من « لله » و « إنا » والضمير من « إنا إليه » قصد الاستعانة الوزن »[٦] .

هذا . ويرى بهاء الدين السبكى أن البيت السابق ليس من الاقتباس ، لأن التغيير فيه كثير ، كما أن الأولى ترك الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف .

---

(١) مقتبس من قوله تعالى : ﴿ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ فاطر ٤٣ .

(٢) مقتبس من قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الزمر ٩ .

(٣) ضلوا الهدى : لم يهتدوا إليها ، بدت : ظهرت ، مقتبس من قوله تعالى : ﴿ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ آل عمران ١١٨ .

(٤) البيت من قول أبى تمام فى رثاء ابنه « وكان » بمعنى وجد .

(٥) سورة البقرة : ١٥٥ ، ١٥٦ .

(٦) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٤١٦ .

يقول صاحب عروس الأفراح تعليقًا على البيت « وفي تسميته هذا اقتباسا نظر ، لأن هذا اللفظ ليس في الأصل من القرآن والورع اجتناب ذلك كله وأن ينزه عن مثله كلام الله ، وكلام رسول الله ﷺ لا سيما إذا أخذ شئ من القرآن الكريم ، وجعل بيتا أو مصراعا ، فإن ذلك من الإساءة ما لا يناسب المتقين »(١) .

والاقتباس من الحديث كقول الحريرى « شاهت الوجوه ، وقبح اللكع ومن يرجوه » .

فإن قوله « شاهت الوجوه » لفظ الحديث ، فإنه روى أنه لما اشتدت الحرب يوم حنين ، أخذ النبى ﷺ كفا من الحصباء فرمى بها فى وجوه القوم ، وقال « شاهت الوجوه » أى قبحت ، واللكع قيل هو اللئيم(٢) .

وقول القاضى منصور الهروى الأزرى :

فَلَوْ كانتِ الأخلاقُ تُحْوَى وِرَاثةً ... ولو كانتِ الآراءُ لا تتشعبُ
لأصبحَ كل الناسِ قد ضَمَّهُمْ هَوًى ... كما أن كُلَّ الناسِ قد ضَمَّهُمْ أبُ
ولكنهَا الأقدارُ كُلٌّ ميسرٌ ... لما هُوَ مخلوقٌ له ومقربُ(٣)

فقد اقتبس من لفظ الحديث « اعملوا كل ميسر لما خلق له » .

هذا . والاقتباس يكون « مستحسنا » فى الخطب والمواعظ ومباحا فى القصص والرسائل ، ومردودا فى الهزل والمجون .

---

(١) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٥١٤ .
(٢) الإيضاح ، جـ٦ / ١٣٩ .
(٣) تحوى : تملك وتحرز ، وتتشعب : تتفرع وتختلف .

حسن الابتداء

حسن الابتداء : أن يجعل المتكلم مبدأ كلامه عذب اللفظ ، حسن السبك صحيح المعنى(١) .

وذلك لأن الكلام المبتدأ به ، أول ما يقرع السمع ، أو يقع عليه النظر فإذا كان على هذه الصفات المذكورة ، وقع من قلب السامع أو القارئ أجمل موقع فأقبل عليه ، واهتم له ، ووعاه إلى نهايته ، وإن لم يكن لباقيه من الجودة ما لأوله وإن كان بخلاف ذلك أعرض عنه ورفضه .

يقول ابن رشيق : حسن الافتتاح داعية الانشراح ، ومطية النجاح ، فإن الشعر قفل أوله مفتاحه ، وينبغي للشاعر أن يجود ابتداء شعره ، فإنه أول ما يقرع السمع ، وبه يستدل على ما عنده من أول وهلة ، وليجعله حلوا سهلا وفخما جزلا(٢) .

كقول امرئ القيس :

قِفَا نَبْكِ من ذِكْرَى حبيبٍ ومنزلِ ... بسقطِ اللِّوَى بين الدَّخُولِ فحوملِ(٣)

فالشاعر - كما يقول ابن رشيق - وقف واستوقف ، وبكى واستبكى ، وذكر الحبيب والمنزل في مصراع واحد بلفظ مسبوك لا تعقيد فيه ولا تنافر .

وقول النابغة الذبياني :

كِلِينِي لِهَمٍّ يا أُمَيْمَةَ ناصبٍ ... وليلٍ أُقاسيهِ بطيءِ الكواكبِ(٤)

---

(١) سبك الكلام : أحسن ترصيفه وتهذيبه ، والمقصود حسن الصياغة ، وبعده عن التعقيد .

(٢) العمدة ، جـ ١ / ٢١٧ ، القفل جمع أقفال : الحديد الذي يغلق به الباب ، والمراد بالمطية : الطريق .

(٣) السقط : منقطع الرمل حيث يدق طرفه ، اللوى : رمل معوج ملتو ، الدخول وحومل موضعان .

(٤) كليني : أمر من وكل إليه كذا : سلمه إياه ، والمراد : دعيني واتركيني ، والناصب : المتعب - أقاسيه : أتحمله وأعاني قوته .

يريد : دعيني واتركيني لهمومي وأحزاني وتعبي وآلامي وليل أقاسي شدائده وآلامه وهو يمر ثقيلاً بطيئاً .

فقد بين النابغة من أول الأمر حاله عندما غضب عليه النعمان وتوعده ، وصور ما يعتلج في قلبه من هم أعياه ، وأقض مضعجه ، وحرمه النوم الهنئ ، فألم به أرق جعل ليله طويل ، وكل ذلك قد وضع في اسلوب بين واضح ، وارتباط قوي بين شطري المطلع ، وتناسب في القوة والجزالة .

هذا . ويرى بعض النقاد أن مطلع النابغة أفضل من مطلع امرئ القيس نظراً لملاءمة ألفاظه ، وتناسب قسميه .

وهذه الدراسة والنقد مبنيان على أن الشطر الثاني من مطلع امرئ القيس لا يثير في نفس سامعه ما يثيره الشطر الأول من المعاني لأن « سقط اللوى والدخول وحومل » لا تثير في نفس السامع أو القارئ شيئا ولكن ينبغي أن يوضع في جانب الاعتبار ، ما كان لهذه الأسماء من قيمة لدى الشاعر ، وما كانت تثير في نفسه من انفعالات قوية عميقة فللشاعر في سقط اللوى وفي الدخول وفي حومل ذكريات يفيض بها قلبه ووجدانه ، إذ كثيراً ما كان له فيها لقاء أو انتظار أو سعادة أو ألم ، وإن الذكريات لترتبط بالأماكن ارتباطًا وثيقًا ، ولذا حرص الشاعر حرصًا شديداً على تحديد منزل حبيبته ، لأن قلبه شديد التلفت إلى هذه الأماكن شديد الحنين إليها موصول بها[١] .

وقول المتنبي :

لكل امرئ من دهره ما تعودا   وعادة سيف الدولة الطعن في العدى

---

(١) أسس النقد الأدبي عند العرب ، ص ٢٩٨ .

وجودة هذا المطلع تعود إلى أن الشاعر بدأه بقاعدة كأنها مسلم بها ، تلك هى أن كل إنسان يعيش على ما اعتاده فى هذه الحياة لا يستطيع فكاكا عنه ثم رتب على هذه القاعدة أن سيف الدولة قد اعتاد أن يطعن عداه فى ميدان القتال ، فكأنه لذلك لا يستطيع أن يترك عاداته ، ومعنى ذلك أنه شجاع مطبوع(١) .

وقول أبى تمام يهنئ المعتصم بالله بفتح عمورية مع أن المنجمين كانوا قد زعموا أنها لا تفتح فى ذلك الوقت :

السيفُ أصدقُ أنباءً من الكتبِ ... فى حده الحدُّ بين الجِدِّ واللعبِ(٢)

قبح الابتداء :

ينبغى للأديب أن يتجنب فى مطالع المديح أو التهانى ما يتطير به أو ما شكل ذلك .

كما روى أن ذا الرمة دخل على عبد الملك بن مروان ، فاستنشده شيئًا من شعره ، فأنشده قصيدته التى مطلعها :

ما بالُ عَيْنِكَ منها الماءُ ينسكبُ ... كأنه مِنْ كُلَى مَفْرِيَّةٍ سَرِبُ(٣)

وكان بعبد الملك رمش ، وهو حمرة فى الجفن مع ماء يسيل من العين فتوهم أنه خاطبه أو عرض به فقال : وما سؤالك عن هذا يا جاهل وأمر بإخراجه .

كما دخل عليه جرير فابتدأ ينشده :

---

(١) العمدة ، جـ ١ / ٢٢٢ .

(٢) الأنباء مصدر أنبأ بمعنى أخبر ، وحد السيف مقطعه وشفرته وجانبه الماضى .

(٣) الكلى : جمع كلية ، وهما كليتان فى الجسم لإفراز البول ، والمفرية : المقطعة المشققة والسرب : السائل .

أَتَصْحُو أم فُؤَادُكَ غيرُ صَاحِ عَشِيَّةَ هَمَّ صَحْبُكَ بِالرَّوَاحِ

فقال له عبد الملك « بل فؤادك » كأنه استثقل هذه المواجهة ، فهو يعلم أن الشاعر إنما خاطب نفسه على أسلوب التجريد .

وكذلك فعل ابنه هشام بأبى النجم وقد أنشده :

والشمسُ قد كادتْ ولَمَّا تفعلِ كأنها فى الأفْقِ عينُ الأحوالِ

وكان هشام أحول ، فأمر به فحجب عنه مدة وقد كان قبل ذلك من خاصته يسمر عنده ويمازحه[1] .

ويقال إن ابن مقاتل[2] الضرير أنشد الداعي العلوى قصيدته التى أولها :

مَوْعِدُ أحبابِكَ بالفُرْقَةِ غَدْ[3]

فقال له الداعى : « موعد أحبابك ولك المثل السوء » .

كما روى - أيضًا - أنه دخل عليه فى يوم مهرجان[4] وأنشده :

لَا تَقُلْ بُشْرَى ولكن بُشْرَيَانِ غُرةُ الداعِى ويومُ المِهْرَجَانِ[5]

فتطير به ، وقال : أعمى يبتدئ بهذا يوم المهرجان ، وقيل بطحه وضربه خمسين عصا ، وقال إصلاح أدبه أبلغ فى ثوابه[6] .

يقول أبو هلال العسكرى : فأوجعه الداعى ضربا ، ثم قال : هلا قلت : « إن تقل بشرى فعندى بشريان »[7] .

---

(١) فى الصناعتين « أبو مقاتل » ، ص ٤٥٢ ، وهو نصر بن نصر الحلوانى والداعى : هو محمد بن زيد صاحب طبرستان .

(٢) الفرقة : الفراق ، وقيل إنه اسم موضع ، ولكنه يوهم ذلك فتطير منه .

(٣) المهرجان : عيد الفرس ، وهى كلمتان « مهر وجان » ركبتا فصارتا كالكلمة الواحدة ، ومعناها محبة الروح .

(٤) الغرة : بياض فى الجبهة .

(٥) الإيضاح ، جـ٦ / ١٥١ .

(٦) الصناعتين : ٤٥٣ .

(٧)

وقيل لما بنى المعتصم بالله قصره بالميدان ، وجلس فيه أنشده إسحق الموصلى :

يا دارُ غَيَّرَكِ البِلَى وَمَحَاكِ ... يا لَيْتَ شِعْرِى ما الذِى أبلاكِ

فتطير المعتصم ، وأمر بهدم القصر .

يقول أبو هلال : لما فرغ المعتصم من بناء قصره بالميدان الذى كان للعباسية ، جلس فيه وجمع الناس من أهله وأصحابه ، وأمر أن يلبس الناس كلهم الديباج ، وجلس على سرير مرصع بأنواع الجواهر ، ووضع على رأسه التاج الذى فيه الدرة اليتيمة .

وكلما دخل رجل رتبه هو نفسه فى الموضع الذى يراه ، فما رأى الناس أحسن من ذلك اليوم ، فاستأذنه اسحق بن إبراهيم فى النشيد ، فأذن له فأنشده شعرا ، ما سمع الناس أحسن منه فى صفته وصفة المجلس إلا أن أوله تشبيب بالديار القديمة ، وبقية آثارها ، فكان فى أول بيت منها :

يا دارُ غَيَّرَكِ البِلَى ومحاكِ ... يا ليتَ شِعْرِى ما الذى أبلاكِ[1]

فتطير المعتصم منها ، وتغامز الناس ، وعجبوا كيف ذهب هذا عن اسحق مع فهمه وعلمه ، وطول خدمته للملوك ، قال : فأقمنا يومنا هذا وانصرفنا فما عاد منا اثنان إلى ذلك المجلس ، وخرج المعتصم إلى « سر من رأى » وخرب القصر[2] .

هذا . ومن أراد أن يذكر الديار فليقل كما قال الخريمى :

ألاَ يا دارُ دامَ لَكِ الحُبُورُ ... وَساعَدَكِ الغضارةُ والسرورُ[3]

أو كما قال أشجع السلمى :

قصر عليه تحيةٌ وسلامُ ... نَشَرَتْ عليه جَمَالَهَا الأيامُ

---

(١) البلى : مصدر بلى الثوب - بمعنى رث - ليت شعرى ليت علمى - أبلاك - صيرك بالية .

(٢) الصناعتين ، ص ٤٥٢ .

(٣) الغضارة : النعمة والسعة وطيب العيش .

حسن الانتهاء

حسن الانتهاء ، ويقال له حسن الختام : هو أن يجعل المتكلم آخر كلامه عذب اللفظ ، حسن السبك ، صحيح المعنى ، مشعرا بالتمام .

وذلك لأن ختام الكلام هو آخر ما تعيه الأذن ، أو يقع عليه النظر ويرتسم فى الخيال ، فإن كان حسنا هفت إليه النفس ، واستلذه السمع وقد يكون جابر الما عساه قد وقع من نقص أو تقصير .. فإذا لم يكن الانتهاء حسنا جميلاً ، كان الأمر على العكس ، من صدوف النفس ونفورها ، واستكراه السمع ومجه ، وقد ينسى ذلك ما سبق من محاسن الكلام .

إن ما يختم به الكلام بمثابة الطعام يؤتى به فى ختام الأطعمة ، فإن كان حلوا لذيذًا أنسى مرارة أو ملوحة ما قبله ، وإن كان مرا أو مالحا أنسى حلاوة أو عذوبة ما قبله[١] .

يقول ابن أبى الأصبع : يجب على المتكلم شاعرًا كان أو ناثرًا أن يختم كلامه بأحسن خاتمة فإنها آخر ما يبقى فى الأسماع لأنها ربما حفظت من دون سائر الكلام فى غالب الأحوال ، فيجب أن يجتهد في رشاقتها وحلاوتها وجزالتها[٢] .

هذا . وأحسن الانتهاء ما آذن بانتهاء الكلام ، ولو فى مجرى العرف والعادة كالدعاء والسلام ويسمى الانتهاء الذى يؤذن بذلك « ببراعة المطلع » .

وجميع خواتم سور القرآن الكريم فى غاية الحسن ونهاية الكمال ، لأنها بين أدعية ووصايا وفرائض وتحميد وتهليل ومواعظ ، ووعد ووعيد إلى غير ذلك من الخواتيم التى لا يبقى للنفوس بعدها تشوف إلى ما يقال[٣] .

---

(١) أنظر حاشية الدسوقى ضمن ضروح التلخيص ، جـ ٤ / ٥٤٣ .

(٢) بديع القرآن ، ص ٣٤٣ .

(٣) انظر بديع القرآن لابن أبى الأصبع ، ص ٣٤٦ وما بعدها ، والإتقان فى علوم القرآن ، جـ ٢ / ١٠٦ .

ومن حسن الانتهاء من الشعر قول أبي نواس في مدح المأمون :

فَبَقِيتَ للعلم الذى تَهْدِى له وَتَقَاعَسَتْ عن يَوْمِكَ الأيام(١)

فقد اشتمل البيت على الدعاء المؤذن بالانتهاء .

وقوله - أيضًا - فى مدح الخصيب بن عبد الحميد المرادى :

وإنى جَدِيرٌ إذ بَلَغْتُكَ بالمُنَى وَأَنْتَ بما أَمَّلْتُ مِنكَ جَدِيرُ

فإن تُولِنِى منك الجميلَ فأهلُهُ وإلا فإني عاذرٌ وشكورُ(٢)

لأن قبول العذر يقتضى انقطاع الكلام والمراد شكور لعطاياه الماضية أو لاصفائه إلى مديحه .

يقول الشيخ العدوى : إن محل الشاهد قوله « فإنى عاذر وشكور » لأنه يقتضى أنه قبل العذر وإذا قبله فقد انقطع الكلام .. فهو من قبيل الانتهاء الذى آذن بانتهاء الكلام(٣) .

وقول المتنبى فى مدح أبى سهل سعيد بن عبد الله :

قد شَرَّفَ الله أرضًا أنتَ ساكِنُهَا وَشَرَّفَ الناسَ إذْ سَوَّاكَ إنسانًا

يريد : أرض فيها أنت فيها مقيم ، قد شرفها الله على غيرها ، وشرف الله الناس إذا كنت فيهم .

يقول الدسوقى : فإن هذا يقتضى تقرر كل ما مدح به ممدوحه ، فعلم أنه قد انتهى كلامه ولم يبق للنفس تشوف لشىء وراءه(٤) .

---

(١) تهدى: تدل وتوصل - تقاعست : تأخرت ، والمراد بيومه : يوم وفاته .

(٢) الجدير : المستحق ، المنى : ما يتمنى ويطلب ، وتولنى : بمعنى تعطنى ، فأهله : على تقدير فانت أهله .

(٣) حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٥٤٤ .

(٤) حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٥٤٤ .

وقول الشاعر[١] :

بقيتَ بقاءَ الدهرِ يا كهفَ أهلِهِ ... وهذا دعاءٌ للبريةِ شاملُ[٢]

يريد : لما كان بقاؤك سببًا لنظام البرية ، وحسن حالهم برفع الخلاف فيما بينهم ، ودفع ظلم بعضهم ، وتمكن كل واحد ببلوغ مصالحه كان الدعاء ببقائك دعاء ينفع الناس جميعًا .

يقول ابن يعقوب : وإنما آذن هذا الدعاء بانتهاء الكلام ، لأنه لا يبقى عند النفس ، ما يخاطب به هذا المخاطب بعد هذا الدعاء ولأن العادة جرت بالختم بالدعاء[٣] .

وقول ابن الزبعرى فى آخر قصيدة يعتذر فيها إلى النبى ﷺ ويستعطفه :

فخُذِ الفضيلةَ عن ذُنوبٍ قد خَلَتْ ... واقْبَلْ تضرُّعَ مُستضيفٍ تائبِ

فجعل نفسه مستضيفًا ومن حق المستضيف أن يضاف ، وإذا أضيف من حقه أن يصان ، وذكر تضرعه وتوبته مما سلف وجعل العفو عنه مع هذه الأحوال فضيلة ، فجمع فى هذا البيت جميع ما يحتاج إليه فى طلب العفو[٤] .

---

(١) نسب البيت لأبى العلاد المعرى ، كما نسب لأبى الطيب المتنبى ، وقد ذكر الشيخ العباسى فى كتابه « معاهد التنصيص » ، جـ ٤ / ١٧٣ أنه لم يره فى ديوان واحد منهما .

(٢) الكهف : فى الأصل : الغار فى الجبل ، والمراد به هنا : الملجأ ، والبرية : الخلق والمراد بأهله : جنسه بدليل ما بعده ، والمراد بقوله : يا كهف أهله : يا ملجأ يأوى إلى عزة أهله .

(٣) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٥٤٥ .

(٤) الصناعتين ، ص ٤٦٤ .

السرقات الشعرية

من البين أن دراسة السرقات الشعرية تفيد الناقد وتوقفه على مدى تصرف الشعراء فى أخذهم ممن تقدمهم .

يقول القاضى على بن عبد العزيز الجرجاني : ولست تعد من جهابذة الكلام ، ونقاد الشعر حتى تميز بين أصنافه وأقسامه ، وتحيط علما برتبه ومنازله ، فتفصل بين السرق والغصب وبين الإغارة والاختلاس ، وتعرف الإلمام من الملاحظة ، وتفرق بين المشترك الذى لا يجور ادعاء السرق فيه ، والمبتذل الذى ليس أحد أولى به ، وبين المختص الذى حاره المبتدئ فملكه ، وأحياه السابق فاقتطعه ، فصار المعتدى مختلسا سارقا ، والمشارك له محتذيا تابعا ، وتعرف اللفظ الذى يجوز أن يقال فيه أخذ ونقل ، والكلمة التى يصح فيها أن يقال : هى لفلان دون فلان[١] .

ويؤكد ابن الأثير فائدة دراسة السرقات الشعرية للناقد والأديب فيقول :

واعلم أن الفائدة من هذا النوع أنك تعلم أين تضع يدك فى أخذ المعانى ، إذ لا يستغنى الآخر عن الاستعارة من الأول ، لكن لا ينبغى لك أن تعجل فى سبك اللفظ على المعنى المسروق فتنادى على نفسك بالسرقة فكثيرا ما رأينا من عجل فى ذلك فعثر وتعاطى فيه البديهة فعقر[٢] .

هذا . ويرى العلماء والنقاد أن الشاعرين إذا اتفقا فى المعنى العام كالوصف بالشجاعة والسخاء أو حسن الوجه والبهاء ، فلا يعد سرقة لأنها أمور اشترك الناس فى معرفتها ، واستقرت فى عقولهم ، حتى استوى فيها العامة والخاصة والعرب والعجم .

---

(١) الوساطة بين المتنبى وخصومه ، ص ١٨٣ .
(٢) المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ، ص ٣١١ .

وإذا كان الاتفاق في وجه الدلالة على الغرض ، فإن كان مما يشترك الناس في معرفته لاستقراره في العقول والعادات ، كتشبيه الفتاة الحسناء بالشمس والقمر ، والجواد بالغيث والبحر ، والبليد البطي بالحجر والحمار ، والشجاع الماضي بالسيف والنار والصب المستهام بالمخبول في حيرته ، والسليم في سهره ، والسقيم في أنينه وتألمه أمور متقررة في النفوس ، متصورة للعقول ، يشترك فيها الناطق والأبكم . والفسيح والأعجم والشاعر والمفحم حكمت بأن السرقة عنها منتفية ، والأخذ بالاتباع مستحيل ممتنع[١] .

وإن كان مما لا ينال إلا بفكر وروية وإنعام نظر ، ولا يصل إليه كل أحد ، بأن كان - مثلاً - تشبيهًا لطيفًا ، أو كناية رائعة أو مجازًا على وجه مخصوص ، أو معنى دقيقًا ، فهذا الذي يجوز أن يدعى فيه الاختصاص والسبق ، وأن يقضى فيه بالتفاضل ، كقول أبي تمام :

لَا تُنْكِرُوا ضَرْبِي لَهُ مَنْ دُونَهُ ... مَثَلاً شَرُودًا في النَّدَى والبَاسِ
فالله قد ضرب الأقلَّ لِنُورِهِ ... مَثَلاً من المشكاةِ والنِّبْرَاسِ[٢]

فإن هذا معنى مخصوص ابتدعه أبو تمام ، وكان لابتداعه سبب والحكاية فيه مشهورة ، وهي أنه لما أنشد أحمد بن المعتصم قصيدته السينية التي مطلعها :

ما في وقوفكَ ساعة من باسِ ... نقضي حقوقَ الأربعِ الأدراسِ[٣]

انتهى إلى قوله :

---

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه ، ص ١٨٤ .

(٢) القصيدة في مدح أحمد بن المعتصم ، والشرود : النافر ، والمراد به : الفريد ، والندى : الجود والباس : مخفف بأس ، وهو الشدة في الحرب والمشكاة : كوة غير نافذة : والنبراس : المصباح.

(٣) الأربع : جمع ربع : وهو الدار ، والأدراس : جمع دارس : وهو الذي عفا ودرسته الرياح .

إقدامُ عمرٍو في سماحةِ حاتمٍ   في حلمِ أحنفَ في ذكاءِ إياسِ[١]

فقال الحكيم الكندى : وأى فخر فى تشبيه ابن أمير المؤمنين بأجلاف العرب ، فأطرق أبو تمام ، ثم أنشد هذين البيتين ، معتذراً عن تشبهه إياه بعمرو وحاتم وإياس ، وهذا معنى يشهد به الحال أنه ابتدعه ، فمن أتى من بعده بهذا المعنى أو بجزء منه ، فإنه يكون سارقًا له[٢] .

هذا . وقد نوع البلاغيون والنقاد المعانى المسروقة إلى ثلاثة أنواع هى : النسخ ، والمسخ والسلخ :

فالنسخ أو الانتحال :[٣] هو أن يأخذ السارق اللفظ والمعنى معا بلا تغيير ولا تبديل ، أو بتبديل الألفاظ كلها أو بعضها بمرادفها ، وهذا مذموم سرقة محضة ، كما حكى أن عبد الله بن الزبير[٤] دخل على معاوية فأنشده :

إذَا أنتَ لم تُنْصِفْ أخاكَ وَجَدْتَهُ   عَلَى طرفِ الهِجْرَانِ إنْ كَانَ يَعْقِلُ
ويركبُ حَدَّ السيفِ مِنْ أن تُضِيمَهُ   إذا لم يَكُنْ عن شفرةِ السيفِ مَزْحَلُ[٥]

فقال له معاوية : لقد شعرت بعدى يا أبا بكر ، ولم يفارق عبد الله المجلس حتى دخل معن بن أوس المزنى ، فأشد قصيدته التى أولها :

---

(١) عمرو : هو عمرو بن معد يكرب : فارس مشهور ، والأحنف : هو الأحنف بن قيس ، رئيس بنى تميم مشهور بالحلم ، وإياس : هو إياس بن معاوية قاضى البصرة .

(٢) المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ، ص ٣١١ .

(٣) يقال : نسخ الكتاب : نقله حرفًا بحرف ، وانتحل الشعر ادعاه لنفسه وهو لغيره .

(٤) عبد الله بن الزبير : بفتح الزاى المشددة : شاعر معروف ، وهو خلاف عبد الله بن الزبير بن العوام .

(٥) لم تنصف : لم تعدل معه ، وتوفه حقه ، طرف الهجران : جانبه المراد بحد السيف : ما يتحمله من الشدائد و « من » فى قوله « من أن تضيمه » التعليل ، والضيم : الظلم ، وشفرة السيف : حده ، والمزحل : المبعد .

لَعَمْرُكَ مَا أدرِي وإني لَأَوْجَلُ عَلَى أينا تَعْدُو المنيةُ أولُ[١]

حتى أتى عليها ؛ وفيها ما أنشده عبد الله ؛ فأقبل معاوية على عبد الله وقال له : ألم تخبرني أنهما لك ؟ فقال : المعنى لي ؛ واللفظ له . وبعد فهو أخي من الرضاعة ، وأنا أحق بشعره[٢] .

وهذا الاعتذار كما ترى - غير مقبول .

يقول الشيخ الدسوقي : هذا اعتذار من ابن الزبير في سرقته البيتين ونسبتهما لنفسه ، يستظرفه الحاضرون ، وقوله : وأنا أحق بشعره ، أي لكمال اتحاده به ولا يخفى برودة هذا الاعتذار خصوصًا ، وهو غير أخ له من النسب[٣] .

كما روى لأوس بن حجر ، ولزهير بن أبي سلمى في قصيدتيهما هذا البيت[٤] :

إذا أنتَ لم تُعْرِضْ عن الجهلِ والخَنَا أصبتَ حَلِيمًا أو أصابك جَاهِلُ[٥]

وأما تبديل الألفاظ بمرادفها ، كما فعل بقول الحطيئة :

---

(١) أوجل : أفعل تفضيل من الوجل ، وهو الخوف ، تعدو تصبح ، والجار والمجرور متعلق بأدرى .

(٢) الإيضاح ، جـ ٦ / ١٢٢ ، وانظر الكامل : للمبرد ، جـ ٢ / ٢١١ .

(٣) حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٤٨٣ .

(٤) من قصيدة أوس التي مطلعها :

يا راكبا إما عرضت فبلغن يزيد بن عبد الله ما أنا قائل

وقصيدة زهير ومطلعها :

لسلمى بشرقي القنان منازل ورسم بصحراء اللبيين حائل

وتوفي أوس بن حجر ٦٢٠ م وهو من شعراء تميم في الجاهلية ، وتوفي زهير ٦٢٧ م ، وكان أوس زوج أم زهير بن أبي سلمى .

(٥) تعرض : تنصرف - الخنا : الفحش : الحليم : العاقل ، والمراد : أصبت حليمًا بجهلك ، أو أصابك جاهل بجهله . والجهل : السفه والطيش .

دع المكارم لا ترحل لبغيتها　　واقعد فإنك أنت الطاعم الكاس

فقال الآخر :

ذر المآثر لا تذهب لمطلبها　　واجلس فإنك أنت الآكل اللابس

يقول الشيخ الدسوقى : فقد بدل كل لفظ من البيت الأول بمرادفه « فذر » مرادف « لدع » و« المآثر » مرادف « للمكارم » ، و« لا تذهب » مرادف لقوله « لا ترحل » وقوله « لمطلبها » مرادف « لبغيتها » و« اجلس » مرادف « لا قعد » و« الآكل » مرادف « للطاعم » و« اللابس » مرادف « للكاس » وأما قوله له « فإنك أنت » فمذكور فى البيتين باللفظ(١) .

كما يقول ابن يعقوب : لأن المرادف يتنزل منزلة رديفه ، فلازم أحدهما من القبح لازم للآخر ، لسهولة ذلك التبديل ، فهو يعد أيضًا مذمومًا وسرقة محضة(٢) .

ومثله - أيضًا - ما كان التغيير فيه بالضد كقول حسان بن ثابت رضى الله عنه ، فى مدح آل حفنة :

بيض الوجوه كريمة أحسابهم　　شم الأنوف من الطراز الأول(٣)

فقال ابن أبى قيس ، أو أبو حفص البصرى(٤) :

سود الوجوه لئيمة أحسابهم　　فطس الأنوف من الطراز الآخر

والمسخ أو الإغارة(٥) : أن يأخذ الشاعر بعض اللفظ ، أو بغير بعض النظم .

---

(١) حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٤٨٤ .

(٢) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٤٨٣ .

(٣) شم : بضم الشين جمع أشم من الشمم والطراز الزول : النمط الأول .

(٤) العمدة ، جـ ٢ / ٢٢٢ .

(٥) تحويل الصورة إلى صورة أقبح منها ، والإغارة : الهجوم بقوة .

فإن كان الثانى أبلغ من الأول لاختصاصه بفضيلة ، كحسن السبك ، أو الاختصار أو الإيضاح ، أو زيادة المعنى ، فهو ممدوح ومقبول ، كقول بشار بن برد :

مَنْ راقبَ الناسَ لم يظفَرْ بِحَاجَتِهِ وفاز بالطيباتِ الفاتِكُ اللَّهِجُ[1]

فأخذه تلميذه سلم الخاسر[2] فقال :

مَنْ راقبَ الناسَ ماتَ غَمًّا وفازَ باللذةِ الجسورُ[3]

وبيت سلم أجود وأخصر .

يقول الشيخ الدسوقى : إن المعنى فى البيتين واحد ، وهو أن من لا يراقب الناس يفوز بالمرغوب فيه ، ومن راقبهم فإنه مطلوب ، لكن بيت مسلم أجود سبكًا لدلالته على المعنى من غير تأمل لوضوحه ، وأخصر لفظًا ، لأن لفظ الجسور ، قائم مقام لفظى « الفاتك اللهج » .. وقرر بعضهم أنه إنما كان أجود سبكًا لأنه رتب فيه الموت على مراقبة الناس ، وأما بيت بشار ، فقد رتب فيه على مراقبة الناس عدم الظفر بالحاجة والأول أبلغ ، وفى الأطول : إنما كان بيت مسلم أجود سبكًا لكونه فى غاية البعد عن موجبات التعقيد من التقديم والتأخير ، ونحو ذلك ، قال فى الأطول : يروى عن أبى معاذ ، راويه بشار أنه قال : أنشدت بشارًا قول مسلم ، فقال : ذهب والله بيتى ، فهو أخف منه وأعذب ، والله لا أكلت اليوم ولا شربت[4] .

---

(١) راقب : خاف وحاذر ، والفاتك : الشجاع القتال ، واللهج الملازم لمطلوبه ، الحريص عليه من غير مبالاة .

(٢) هو سلم بن عمرو والخاسر ، لقب بالخاسر لخسرانه فى تجارته ، لأنه باع مصحفًا ورثه ، فاشترى بثمنه عودًا ، يضرب به - كما فى الأساس - أو اشترى بثمنه ديوان شعر - كما فى الأطول - حاشية الدسوقى ، جـ ٤ / ٤٨٦ .

(٣) الجسور : الجرىء .

(٤) حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٤٨٦ .

ويذكر الرواة أن بشار حين سمع بهذه السرقة قال : يعمد إلى معانى التى سهرت فيها ليلى ، وأتعبت فيها فكرى ، فيكسوها لفظًا أخف من لفظى ؛ فيروى شعره ويترك شعرى [١].

وقد أشاد أبو هلال العسكرى : بتناول المعانى ممن تقدم ، بشرط أن تكسى ألفاظًا جيدة ، وتبرز فى معارض حسنه .

يقول أبو هلال : ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعانى ممن تقدمهم « والصب على قوالب من سبقهم ، ولكن عليهم - إذا أخذوها - أن يكسوها ألفاظًا من عندهم ، ويبرزوها فى معارض من تأليفهم ، ويوردوها فى غير حليتها الأولى ، ويزيدوها فى حسن تأليفها ، وجودة تركيبها ، وكمال حليتها ومعرضها ؛ فإذا فعلو ذلك فهم أحق بها ممن سبق إليها[٢] .

هذا . وإن كان الثانى دون الأول فى البلاغة فهو مذموم مردود ، كقول أبى تمام :

هيهاتَ لا يأتى الزمانُ بمثلِهِ ... إن الزمانَ بمثلهِ لَبَخِيلُ[٣]

مع قول المتنبى ، وقد أخذ عنه يمدح بدر بن عمار :

أعدى الزمانَ سخاؤُه فَسَخَا بِهِ ... ولقد يكون به الزمانُ بَخِيلاَ[٤]

فإن مصراع أبى تمام أحسن سبكًا ، من مصراع أبى الطيب ، فإنه أراد أن يقول كان الزمان به بخيلاً ، فعدل عن الماضى إلى المضارع للوزن[٥] .

---

(١) مشكلة السرقات فى النقد الأدبى ، ص ٤٢ .

(٢) الصناعتين ، ص ٢٠٢ .

(٣) هيهات اسم فعل ماض : بمعنى بعد .

(٤) أعدى : فعل ماض من الأعداء ، وهو تجاوز الشىء من صاحبه إلى غيره ، والسخاء : الجود .

(٥) الإيضاح ، جـ ٦ / ١٢٥ .

يقول الشيخ الدسوقى : إن قول أبى الطيب ، ولقد يكون به الزمان بخيلاً ، مأخوذ من قول أبى تمام « إن الزمان بمثله لبخيل » وظاهر أن الأول أحسن من الثانى لأن الثانى عبر بصيغة المضارع ، والمناسب صيغة الماضى ، بأن يقال : ولقد كان به الزمان بخيلاً ، كما دلت عليه الجملة الاسمية من الأول ، لأن أصلها الدلالة على الوقوع ، مع زيادة إفادتها الدوام والثبوت الشامل الممضى ، وأيضًا المراد أن الزمان كان بخيلاً به ، حتى أعداه بسخائه ، فلا تناسب المضارعة ، إذ لا معنى لكونه جادبه الزمان وهو بخيل به فى المستقبل ، لأنه بعد الجود به خرج عن تصرفه فيه[1] .

وإن كان الثانى مثل الأول ، فإن الثانى يكون بعيداً عن الذم ، ويكون الفضل للسابق ، كقول أبى تمام :

لَوْ حَارَ مُرْتَادُ المنيةِ لم يَجِدْ ... إلا الفراقَ علي النفوسِ دَلِيلاً[2]

يريد : لو تحيرت المنية فى وصولها لهلاك النفوس ، لم تجد لها طريقًا يوصلها لذلك إلا فراق الأحبة .

مع قول المتنبى :

لَوْلاَ مُفَارَقَةُ الأحبابِ ما وجدتْ ... لَهَا المنايا إلى أرواحنا سُبُلاً

يريد : لولا مفارقة الأحباب ، ما اتصلت المنية بالأرواح .

وكما ترى ، فالمعنى العام : لا دليل على النفوس إلا الفراق .

---

(١) حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٤٨٩ .

(٢) حار بمعنى ضل إلى مراده ، والمرتاد : الطالب ، والدليل : الطريق أى لم يجد طريقًا له إلى النفوس إلا الفراق .

يقول الشيخ الدسوقى : إن البيتين متساويان فى البلاغة ، فلذا كان الثانى غير مذموم(١) .

السلخ أو الإلمام :(٢) هو أخذ المعنى وحده .

فإن كان الثانى ممتازًا بحسن صياغته وبلاغته ، كان مقبولاً ممدوحًا كقول المعذل بن غيلان(٣) .

ولست بنظار إلى جانب الغنى   إذا كانت العلياء فى جانب الفقر(٤)

وقول أبى تمام بعده ، من قصيدة فى مدح محمد بن الهيثم :

يصد عن الدنيا إذا عن سؤدد   ولو برزت فى زى عذراء ناهد(٥)

فمعنى البيت الأول : إنى لا أنظر إلى الغنى والثراء ، مادامت السيادة ، فى جانب الفقر ، ولا مانع أن أجود بالمال فى سبيل العلياء .

ومعنى الثانى : يعرض عن الدنيا وما فيها من جاه وثراء ، إذا كانت السيادة فى البعد عنها وعن مظاهرها ، ولو ظهرت الدنيا فى ثوب قشيب وحلة زاهية .

فبيت أبى تمام أخصر وأبلغ ، لأن قوله : « ولو برزت فى زى عذراء ناهد » زيادة حسنة ، ولقوله : « يصد عن الدنيا » بدل قول الأول « ولست بنظار

---

(١) حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص ، جـ ٤ / ٤٩١ .

(٢) السلخ : من سلخ الخروف سلخًا : كشط جلده ، فكأنه كشط عن المعنى جلدًا ، وألبسه جلدًا آخر ، فإن اللفظ للمعنى بمنزلة اللباس - والإلمام مأخوذ من ألم بالمنزل إذا نزل به ، أو قصد إليه ، لأن الشاعر ، قد قصد أخذ المعنى من لفظ غيره .

(٣) قيل إنه لأبى سعيد المخزومى .

(٤) نظار : صيغة مبالغة .

(٥) عن : ظهر ، والعذراء : البكر ، ويصد : يعرض ، وبرزت : ظهرت .

إلى جانب الغنى » لأن الصد عن الدنيا أبلغ عن عدم النظر إليها(١) .

وإن كان الثانى دون الأول فى البلاغة فهو مذموم مردود كقول الشاعر :

وَرِيحُهَا أطيبُ من طِيبِهَا والطيبُ فيهِ المسكُ والعنبرُ(٢)

مع قول بشار وقد أخذ منه ، وقصر عنه المعنى .

وإذا أدنيتَ منها بَصَلاً غَلَبَ المسكُ على ريحِ البَصَلْ

فبشار يجعل الفضل فى التغلب على ريح البصل للمسك ، لا لرائحتها ، مع ما فيه من عدم مراعاة الذوق ، فى إدناء البصل منها ، ليعلم أى الرائحتين أغلب .

وإن كان الثانى مثل الأول ، فالفضل للمتقدم .

كقول العتبى يرثى ابنا له قد مات :

والصبرُ يُحْمَدُ فى المواطنِ كُلِّهَا إلا عليكَ فإنهُ مذمومُ(٣)

وقول أبى تمام بعده :

وقد كان يُدْعَى لابسُ الصبرِ حازمًا فأصبحَ يُدْعَى حازمًا حينَ يَجْزَعُ(٤)

يريد العتبى أن الصبر محمود فى جميع المواضع ، إلا فى موضع يصبر فيه عليك فهو مذموم .

ويريد أبو تمام الذى يتحلى بالصبر يدعى حازمًا لأنه يضع الأمور فى مواضعها ، وبعد فقد الحبيب ، أصبح الذى يخرج عليه هو الحازم ، لأنه وضع الأمور فى مواضعها .

---

(١) بغية الإيضاح ، جـ٤ / ١٢٠ .

(٢) المراد بريحها : ريح فمها أو نحوه ، والواو فى قوله « الطيب » للحال .

(٣) المواطن : جمع مواطن ، وهو الموضع ، وقوله إلا عليك : أى إلا فى موضع يصبر فيه عليك .

(٤) الحازم : من يضع الأمور فى مواضعها .

هذا . إذا تأكد أن الثانى أخذ من الأول ، بأن يعلم أنه كان يحفظ قول الأول حين نظم قوله .

فإذا لم يعلم على سبيل القطع أخذ الثانى من الأول ، فإنه يجوز أن يكون ذلك من قبيل توارد الأفكار والخواطر ، من غير أن يعمد الشاعر الثانى إلى السرقة أو الأخذ ، ويسمى ذلك مواردة ، ويرشد إلى ذلك ابن ميادة(١) حينما أنشد ابن الأعرابى ، قوله نفسه :

مفيد ومتلاف إذا ما أتيته تهلل واهتز اهتزاز المهند(٢)

قيل له أين يذهب بك(٣) ؟ هذا للحطيئة ، قال : الآن علمت أنى شاعر إذ وافقته على قوله ، ولم أسمعه إلى الساعة .

يقول صاحب الإيضاح : ولهذا لا ينبغى لأحد بت الحكم على شاعر بالسرقة ، ما لم يعلم الحال ، وإلا ، فالذى ينبغى أن يقال : قال فلان كذا ، وقد سبقه إليه فلان ، فقال كذا ، فيغتنم به فضيلة الصدق ، ويسلم من دعوى العلم بالغيب ونسبة النقص إلى الغير(٤) .

وقد سئل أبو عمرو بن العلاء : أرأيت الشاعرين يتفقان فى المعنى ، ويتواردان فى اللفظ ، لم يلق واحد منهما صاحبه ، ولم يسمع شعره فقال : تلك عقول رجال توافت على ألسنتها ، وسئل أبو الطيب عن مثل ذلك فقال : الشعر جادة وربما وقع الحافر على موضع الحافر(٥) .

والحمد لله الذى هدانا لهذا . وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) ميادة : اسم امرأة أمة سوداء وهى أم الشاعر .

(٢) المفيد : الذى يعطى أمواله للناس ، والمتلاف الذى يتلف أمواله على نفسه ، وقوله : تهلل بمعنى أشرق وجهه ، والمهند : السيف المصنوع من حد الهند ، واهتز : تحرك .

(٣) أين يذهب بك : كلام يقال للمخطىء الضال تنبيهًا له على الصواب .

(٤) الإيضاح ، جـ ٦ / ١٣٧ .

(٥) العمدة ، ص ٢٢٢ .

أهم المراجع

١ - أسرار البلاغة : للإمام عبد القاهر الجرجاني .
٢ - أسس النقد الأدبي عند العرب : للدكتور أحمد بدوي .
٣ - أصول النقد الأدبي : للأستاذ أحمد الشايب .
٤ - الإتقان في علوم القرآن : للسيوطي .
٥ - الإيضاح في علوم البلاغة : للخطيب القزويني .
٦ - البديع : لابن المعتز .
٧ - بديع القرآن : لابن أبي الأصبع المصري .
٨ - بغية الإيضاح : للشيخ عبد المتعال الصعيدي .
٩ - البلاغة التطبيقية : للدكتور أحمد موسى .
١٠- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري : للدكتور محمد أبو موسى .
١١- البيان والتبيين : للجاحظ .
١٢- تفسير الجلالين : للإماميين جلال الدين بن أحمد وجلال الدين السيوطي .
١٣- تفسير القرطبي : للإمام أبي عبد الله محمد القرطبي .
١٤- حاشية الدسوقي : للشيخ محمد عرفة الدسوقي .
١٥- دلائل الإعجاز : للإمام عبد القاهر .
١٦- سر الفصاحة : لابن سنان .
١٧- الصبغ البديعي في اللغة العربية : للدكتور أحمد موسى .
١٨- الصناعتين : لأبي هلال العسكري .
١٩- عروس الأفراح : لبهاء الدين السبكي .
٢٠- العمدة : لابن رشيق .
٢١- الكشاف : للزمخشري .
٢٢- الكامل : للمبرد .

٢٣- مفتاح العلوم : السكاكى .
٢٤- الموازنة : للآمدى .
٢٥- المطول : لسعد الدين الفتازانى .
٢٦- مواهب الفتاح : ابن يعقوب المغربى .
٢٧- مختصر السعد : لسعد الدين التفتازانى .
٢٨- معاهد التنصيص : للعباسى .
٢٩- المثل السائر : لابن الأثير .
٣٠- المجازات النبوية : للشريف الرضى .
٣١- مذكرة فى البلاغة : للأستاذ حامد عونى .
٣٢- من بلاغة القرآن : للدكتور أحمد بدوى .
٣٣- نقد الشعر : لقدامة بن جعفر .
٣٤- النكت فى إعجاز القرآن : للرمانى .
٣٥- الوساطة بين المتنبى وخصومه : للقاضى الجرجانى .
٣٦- يتيمة الدهر : للثعالبى .

المحتـــويات

رقم الإيداع بدار الكتب
١٩٨٦/٧٥٥٥ م